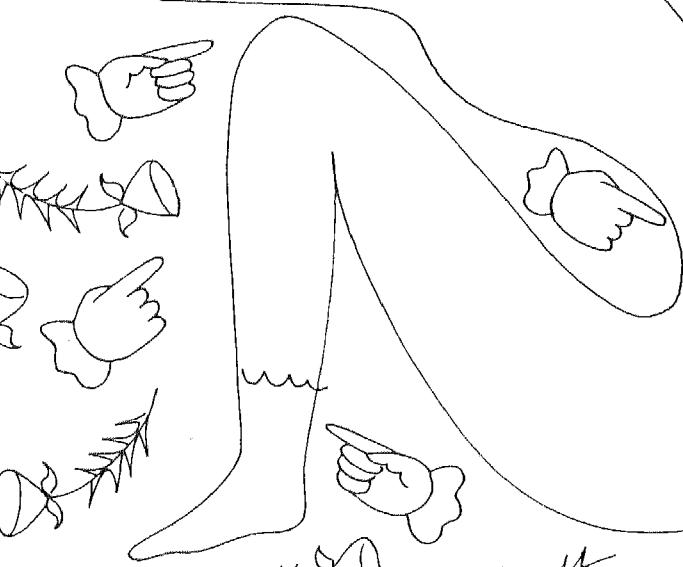


أَنْيَكَهُ مِنْهُمْ



جَهَادُ الْأَيْمَانِ!

دار الشروق

چندھک لاپیکڈت ا

الطبعة الأولى
م ١٩٨٧ - هـ ١٤٠٧
الطبعة الثانية
م ١٩٨٨ - هـ ١٤٠٨
الطبعة الثالثة
م ١٩٨٩ - هـ ١٤٠٩
الطبعة الرابعة
م ١٩٩٣ - هـ ١٤١٣
الطبعة الخامسة
م ٢٠٠٢ - هـ ١٤٢٢

جيتبع جستجو على الطبع وتحديثه

© دار الشروق

أسيوط - مصر - العام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيفي بويه المصري -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص. ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: dar@shorouk.com

أَنْتِي مِنْهَا وَرَ

جَهَنَّمُكَ لَأَبْيَدَنِي إِ

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الذي هو ملليمتر فوق بشرتك !

ولكنك أنت تكذب.

يسألك الطبيب عن حالك. فتقول: أحسن حال.
ولكن النبض المرتفع وصفار عينيك ، وشحوب أظافرك،
وشفتينك ، وعرق يديك ، كلها تقول أشياء أخرى في مظاهره تهتف
بسقوطك نفسياً وانهيارك جسماً. إذن أنت تكذب. أما جسمك
فلا.. وجسمك هو جسدك. وجسدك هو جسمك. وجسمك هو
ذلك الشوال الذي يلم لحمك وشحملك و ٢٠٦ عظاماً و ٦٤٩ عضلة.
وفي أحشائك معدة هي بيت الداء. وقلب هو مصدر الرحمة مع أنه غارق
في الدم. وعلى كتفيك كرة مظلمة هي مصدر النور والحضارة وفيها مخ
رمادي يزن ١٤٢٤ جراماً - هو أعظم ما خلق الله..

ونحن جميعاً تحت الجلد: سواء.. كلنا واحد.. ولكن لون
الجلد هو الذي يفرق بيننا.. هذا أسود وذاك أصفر والثالث
أبيض.. هذا شاب وهذاشيخ.. هذا رجل وهذه امرأة..

ومكتوب على الجبين ما نقرؤه عيون الآخرين.. ومكتوب في باطن
الكف وباطن القدم أيضاً.. أما الأذن فهي «فهرس» الجسم
الإنساني - هكذا يقول علماء الونزر بالإبر الصينية. ففي شحمة الأذن

مراكز الجسم كلها.. وشحمة الأذن تشبه «تابلوه» النور في كل بيت وكل مصنع.. وتشبه تابلوه السيارة والسيارة فيها مفاتيح الغدد والعضلات.. وعندما تعلم الإنسان الكتابة بدأ ينقش جسمه: فالألوان لغة. وكل لون له معنى. سواء الألوان على الوجه أو على الصدر والذراعين والساقين.

وكذلك الأزياء التي ابتدعها الإنسان: كانت ألواناً وخطوطاً. فالستان للمرأة: بشرة ثانية. واللون والخطوط: مفردات للغة الوقاية من البرد. والحر والأناقة والجمال دليل الطبقة الاجتماعية والحالة النفسية أيضاً. والأزياء لها قصة نفسية واجتماعية طويلة، سوف أحكيها فيما بعد..

وسوف أحديث الآن لا عن حلة الإنسان ولا عن جسمه وإنما عن ملليمتر من اللون أو القماش يعلو جسم الإنسان.. ونحن لا نعرف بالضبط متى بدأ الإنسان تلوين جسمه. ولكن رأينا الحيوانات والطيور التي تركها وراءه في الكهوف من عشرات ألف السنين، وعلى التوابيت وفي المعابد..

فيين ليبيا والجزائر توجد كهوف «تسيل» وعلى جدرانها حيوانات وطيور وكائنات بشرية غريبة. والألوان المستخدمة هي الأحمر والبني والأسود والأبيض. وهذه الألوان لها معنى. لأن الفنان الذي رسمها أراد أن يبعث إلينا برسالة. والرسالة وصلت. والمعنى هو أن اللون الأبيض رمز السمو والأحمر رمز الحياة والأسود رمز البقاء. ولم نجد في داخل هذه الكهوف أحداً من الذين حفروها ثم بعشوا إلينا بهذه البرقيات المقوشة على الجدران..

وأنت تولد في جسمك ، وعندما تموت تركه وراءك . لأنك تموت في جلدك وتلمس الدنيا من خلال نوافذ العين والأذن والأنف والفم .. وتحس الدنيا بأصابعك .. وتطورها بعد ذلك .. فالفرق بين الحيوان والإنسان هو أن للإنسان أصابع قادرة على صنع السكين والقلم والسيف . فالإنسان هو الحيوان الذي يصنع أدوات حياته وأسلحة موتة .. وهو يفعل ذلك لأن له أصابع قادرة على أن تقبض على المادة وتشكلها وتطورها ، أما القرد - مثلاً - فله أصابع ممدودة مشدودة تقع منها الأشياء ..

* * *

وحكاية بلقيس ملكة سبأ غوج من التاريخ على إرغام جسم على أن يكذب .. فعندما شكت بلقيس ملكة سبأ من أن بشرتها جافة خشنة ، فقد كانت مصابة بمرض في الكبد ، أشار عليها الأطباء بعلاج للبشرة ، ولا شيء يدل على صحتك مثل بشرتك .. ولتكون هذه البشرة ناعمة لينة ، نصحوها بأن تستحم يومياً في لبن « حمار » .. ثم في لبن الماعز وأن تضيف إلى هذا اللبن عطرًا . ولما ذهبت بلقيس إلى مدينة القدس للقاء الملك سليمان أقفلت قصرها عليها أياماً . ولم يفهم الملك ذلك . ولا أحد .. ثم عرف فيها بعد أنها حشدت أطباءها وعواجزها يسهرون ليلاً ونهاراً على جهاها . ولم يفعلوا إلا شيئاً واحداً . راحوا يذلون بشرتها بكل أنواع اللبن والدهون والعنبـر .. وهي محاولات طويلة مرهقة للكذب ، فتبعدو بلقيس ناعمة لامعة شابة ، مع أنها مريضة تتنفس تحت جلدها خوفاً من جبروت الملك سليمان .

فكان أول حادث كذب في التاريخ - كذب في شهادة رسمية .. أما

الشهادة فهي لونها النبي الأسمر الأصفر الشاحب. وشفتها الجافتان،
وبشرتها المشقة!

ولا تزال كل أخوات وبنات بلقيس يكذبن حتى اليوم.. ونحب
هذا الكذب!.

أما الأكذوبة الثانية فيوم قررت «كليوبطرا» ملكة مصر أن تنتحر..
وضعت كل زيتها: الأبيض والأسود والأحمر والذهبي.. وفستانها
العاري ومجوهراتها.. ثم أتت بشعبان يلتف حول عنقها ويلدغها
وقوت. كأنما أرادت أن تقول: إن الموت فاجأها في نصف زيتها. كأنها
لم تكن تخاف الموت.. أي إنها لم تأت بالموت. وإنما هو الذي تسلل
إليها.. فليس الموت ذلك الشبح المخيف، وإنما هو ذلك اللص الخائف
فتسلل يسرق حياتها!.

أو كأنما أرادت.. بجميلها أن تغزو الموت.. فيات فيها الموت!

ولاشيء يدل على سذاجة «مارلين مونرو» أجمل إمرأة خلقها الله، إلا
أنها كانت تتبع في حياتها أسلوباً غريباً.. فقد كانت قبل النوم تأخذ حاماً
ساخناً جداً. ثم تبتلع عدداً من الأقراص المنومة، مع الويسيكي لكي تمام
نوماً عميقاً - هذا ما كانت تقوله أول الأمر. ولكنها اعترفت بعد ذلك بأن
خدمتها - نعم خدمتها - قد قرأت كثيراً عن آثر المنومات والمسكرات في
نعومة البشرة!.

وقرر الطبيب النفسي الذي كان يعالجها بأنها قرأت سطراً واحداً في
مقال لأحد النقاد هز كيانها حتى الموت. قال الناقد: إن شحوبها المثير
يزلزل الجبال!

ومنذ ذلك الحين ومارلين مونرو حريصة على أن تبدو شاحبة
متهاكمة ، لأن هذا يثير الرجال أكثر !

* * *

وعندما جاء المؤرخ الإغريقي هيردوت إلى مصر اندهش للألوان
التي يستخدمها الفراعنة .. فقد أعجبته نقوش المقابر. أما أزياء الرجال
والنساء فهي التي شغلته . فالفراعنة كانوا يرتدون الملابس النظيفة
«اللامعة» ..

وكانت المرأة تتضع الألوان في الوجه . وكذلك الرجل . وألوان المرأة
كانت بسيطة خفيفة حول العين وال الحاجب وفي أصابعها ..

وعندما ذهب المكتشف كوك إلى استراليا سنة ١٧٧٠ بهره شيشان
حيوان الكانجرو والألوان الصفراء التي استخدمها البدائيون فقد كان
الأصغر درجات : أصفر فاتحًا وأصفر ميالاً لل أحمر . وأكثر الألوان من
نصيب المرأة ..

وأول ما شهدته خريستوف كولمبوس في «كوبا» سنة ١٤٩٢ أن الهند
الحمر يسرفون في استعمال اللون الأحمر . يضعه الرجل على شفتيه قبل
آية معركة أو الخروج لصيد الحيوانات أو الأساك .

ومنذ عشر سنوات اكتشفوا في مدينة «تاتا» بال مجر صورة لحيوان
الماموث ، وكان لونها أبيض ..

بينا الحيوانات التي ظهرت في الشرق الأوسط وعلى الجدران
والكهوف والمقابر فقد اتخذت اللون الأحمر والأسود والأبيض . وكان
ذلك لون الأجسام . ولون الملابس التي فوقها ..

وقد درس العلماء الأميركيان والألمان قبائل «ندمبو» في شمال زامبيا. فوجدوا أن الألوان ذات قوة سحرية. أي أن ساحر القبيلة يستخدم الألوان ليحدث أثراً في جسم الإنسان. فاللون ليس كلاماً يقال ، ولكنه فعل السحر.. دواء.. سم.. بركة.. لعنة.. فاللون معناه تصريح بمرور الحير والشر في الجسم الإنساني.. تماماً كعلامات المرور: أحمر للوقوف وأخضر للمرور وأصفر للاحتراس..

وقد اهتدى العلماء إلى معانى الألوان عند هذه القبائل البدائية.. فاللون الأبيض: هو لون اللبن والحيوانات المنوية والصحة والقوة.. واللون الأحمر: الدم والحياة والروابط العائلية.. واللون الأسود: الليل والسحب والموت والمرض والسحر والشر.

وعندما تكشفت لنا الحضارة الفرعونية. أروعحضارات وأعمقها وأكملها، عرفنا معانى الألوان على جسم الإنسان والمومياء والتابوت وجدران المقابر والمعابد.. فالمومياء كانوا يصبغونها بالأسود: رمزبعث والحياة الأبدية.. وكان أزوريس يتخد لوناً أسود.. وكذلك توت عنخ آمون..

أما اللون الأخضر فلون الحياة الحيوانية والنباتية والشباب وكان جسم آمون إله السماء أزرق اللون..

أما الأصفر فهو لون الذهب ولون جسم الآلهة أيضاً. وكان لوناً محبوباً عند الفراعنة.. وبعض المؤرخين اتهم الفراعنة بالإسراف وتبديد الذهب على جثث الموتى وتوابيتهم. ولكن عرفنا أخيراً جداً، أيام رفع معبد أبي سمبل من أسفل إلى أعلى، هرباً من مياه السد العالي، أن

أجدادنا لم يكونوا يستخدمون الذهب.. وإنما كانوا قد اهتدوا إلى أن الحلة إذا غليت مع قشر البصل، وظل الماء يتبعثر شيئاً فشيئاً، فسوف نجد أمامنا عجينة ذهبية اللون. هذه العجينة هي التي كان يستخدمها الفراعنة - وليس سائل الذهب!

أما اللون الأبيض فهو لون السعادة والمرح، ولون تاج الجنوب أيضاً. واللون الأحمر يستخدمه الملوك، والصغار. إذا استخدمه الملك فهو دليل على الحياة والقوة والبطش. وإذا استخدمه الشعب فدليل على التبدل والفساد.

وكان الكاتب المصري يكتب بالخبر الأسود.. أما الخبر الأحمر فقد خصصه للألفاظ النابية والشتائم وأسماء الحيوانات مثل الكلاب والحمير.. وأسماء الأعضاء الجنسية عند الرجل والمرأة..

وكانت الأسرة المالكة في مصر الحديثة تستخدم السيارات الحمراء، ولم يكن مسموماً لأحد أن يركب سيارة لها مثل هذا اللون. ولكن بعد الثورة ظهرت سيارات حمراء اللون. فالشعب قد استباح اللون الأحمر. واستباح القصور الملكية، ولم يجعلها متاحف كما فعل الدول الاشتراكية والرأسمالية - لقد بهدوء اللون وداسوا التاريخ.

* * *

ومن أجمل الدراسات الحديثة عن المعنى العميق لللون. لون الصبغة التي توضع على البشرة ولون الأزياء ما كتبته السيدة «كارلا ريتز» عن قبائل «تشكرین» في حوض نهر الأمازون. فقد تفرغت لدراسة قبيلة انعزلت ألف السنين في الغابات. القبيلة تسكن قرية من الأكواخ.

يتوسطها بيت كبير. هذا البيت للمتزوجين. أما الشبان الذي لم يتزوجوا بعد. فهم يقيمون في أكواخ عند أطراف القرية مع الفتيات المرشحات للزواج ، وهم جمِيعاً ينتظرون الأمر من ساحر القبيلة . فهو الذي يختار الوقت المناسب لظهور القمر أو غروب الشمس . فإذا تزوج الشبان تغيرت ألوان البشرة . وإذا حملت الفتاة تغير لون الشفتين . وإذا أنجبت طفلها الأول والثاني والثالث تغير لون الذراعين .. وإذا مات أحد الأطفال وإذا مات زوجها مريضاً أو قتيلاً .. لكل ذلك علامات لونية على الوجه واليدين والساقيين ..

ولم ترك هذه القبائل أي أثر .. لا تماثيل ولا معابد ولا قبور وإنما القبيلة كأنها كتب متحركة أو معرض للفنون الشعبية .. فمن يريد أن يعرفها فليقترب منها أكثر ليقرأ ماذا تقول أجسامها ..

وفي القرن السابع عشر كان المقاتل الياباني يضع الأبيض والأسود والأحمر على وجهه .

وفي القرن الثامن عشر كان النبلاء الفرنسيون يضعون كل ما تستخدمه المرأة الآن .. إبتداء من البويرة فالمساكراه فاللون الأساس وأحمر وأصفر الشفاه .. وكذلك الكحل في العينين والشارب - وهو ما يفعله الممثلون الآن !

وفي آسيا انفرد الرهبان باللون الأصفر - في الملابس وفي كل أدوات حياتهم . وكل رجال الدين يستخدمون اللون الأسود في ملابسهم - رمزاً للوقار والزهد في الدنيا ..

والشعوب التي تضع موتها في الكفن الأبيض ترتدي السواد حداداً

عليهم.. والذين يضعون الموتى في القماش الأسود، يلبسون الأبيض
حداداً على أعزائهم.. والذين يحرقون موتاهم، لا يغيرون ملابسهم!

* * *

ونحن نتشابه في كل شيء: أفكارنا وعاداتنا ولغتنا.. وطعامنا
وشرابنا.. وملابسنا الجاهزة وملابسنا التفصيل.. فالأفكار مصدرها:
نفس الصحف ووسائل الإعلام.. ولغتنا المصرية ذات اللهجة
المصرية.. اللهجة أبناء القاهرة واللهجة أبناء الأقاليم.. والقماش الذي
تنتجه مصانعنا.. والقماش الذي تبيعه شوارع سليمان وقصر النيل
والشوارب.. ونأكل الفول صباحاً، أو نحب ذلك.. ونأكله في رمضان
أو نضعه أمامنا ونصرف إلى غيره.. ونذهب إلى مسجد سيدنا الحسين،
لنكملي أيام شهر رمضان.. الخ.

ولكننا نختلف في أجسامنا.. فأجسامنا هي الشيء الشخصي
الوحيد.. فكل واحد له جسم مختلف عن الآخر.. وللجسد معالم
متميزة. وجسمي هو وسيليتي الوحيدة إلى معرفة العالم والتأثير فيه.. هو
المرض... هو المعلم.. هو الأرشيف وهو الملعب وهو المقبرة أيضاً..
وأذكر عندما كنت رئيساً لتحرير مجلة «الجيل» سنة ١٩٦٠ أن جائني
أستاذنا د. لويس عوض ثائراً يقول: يجب أن توقف هؤلاء الشباب عند
حد.. لقد تجاوزوا أصول الأدب والأمانة الصحفية. يجب
فقد نشرت مجلة «الجيل» حديثاً بين المحررة «أحلام شريف» وبين
صوفيا لورين.. ولم يكن حديثاً عن شخص صوفيا لورين وإنما عن
جسمها ومكانتها وإثارتها الجنسية للآخرين.

أما سبب غضب د. لويس عوض فهو أن هذا الحديث قد أجراه أديب إيطاليا العظيم البرتو مورافيا مع صوفيا لورين، بطلة معظم قصصه. وقد كان حديثاً غير تقليدي. فبدلاً من أن يكون عن أسيرتها وعن أعماقها، كان عن الجانب الشخصي المميز.. كان عن جسمها.. عينيها وشفتيها ونديها وردفيها وساقيها..

أي أن هذه المحررة الناشئة قد نسبت هذا الحديث إلى نفسها!

ووعدته بأن أعقاب المحررة حتى لا يتذكر منها أو من غيرها شيء من ذلك. ولم يكن د. لويس عوض يعرف أن «أحلام شريف» هذه ليست إلا واحدة من الأسماء الكثيرة التي اختنفي أنا وراءها: ففي ذلك الوقت كنت أكتب بأقلام مستعارة: شريف شريف ومني جعفر وهالة أمحمد!

أما الحديث الذي أجراه البرتو مورافيا مع صوفيا لورين فكان تقريراً هكذا:

هو: وشفتاك هل هما لأبيك أو لأمك؟

هي: لأمي.

هو: وأنفك؟

هي: لأبي.

هو: وعيناك؟

هي: اليسرى لأمي واليمنى لأبى.. ولذلك فهما غير متساوietin في الاستدراة.

هو: دعني أنا أحذلك عن الباقى.. أما وجهك فجميل.. ولكن.

لو أخذنا كلاً من ملامحه على حدة لم يكن جميلاً.. فكمك واسع.. وأنفك دقيق.. وعيناك منحرفتان كأن أمك إغريقية وكأن أبيك ياباني.. وعنفك طويل اسطواني رقيق: أسباني.. وصدرك إيطالي.. وساقك فرنسية.. أما هذه الرعشة في شفتك السفل فتدل على عصبية في تكوينك.. وهي تدل على قرفك إذا تذكرت ما كان بين أبيك وأمك.. فالرجل كان يبتز مالها، وهي تبتز جسده.. وأنت كأمك تمشين على مرحلتين.. نصفك العلوي يسبقك ويجرجر وراءه نصفك السفلي.. كأنك تقدمين نهاداً، وتتخرين ردفاً.. ولا شيء يدل على التردد والجزأة، واللحجل والإصرار، أكثر من ذلك.. وكل ملامحك ليست جميلة إذا نظرنا إليها واحدة واحدة.. ولكنها معاً: رائعة.. وهذا يؤكد أن الجمال مجموعة أشياء مختلفة ولكنها في النهاية مُؤتلفة.. فالجمال ليس نعمة ولكنه لحن.. الجمال ليس خطأ ولكنه خطأ وظلالة.. ماذا قلت لي عن أنفك؟

هي: إنه لأمي!

هو: بل قلت إنه لأبيك.. وهذا يدل على أنه لا يعجبك.. فأنت حائرة في نسبة لأحد.. مع أن أنفك شامخ وهو مختلف عن أنف أمك وأنف أبيك.. وكانك لا تصدقين ذلك عندما وضعت يدك سعيدة على أنفك الآن..

دعيني المسها.. دعيني..

هي: ماذا؟

هو: المسها..

هي: شفتي.. عيني.. صدري؟

هو: لا..

هي لم يبق شيء!

هو: بل بقيت أذنك التي أخفيتها تحت شعرك.. لأنك تشعرين بأنها
كبيرة قليلاً.. وإنها إلى الوراء كثيراً..

هي: هل تعرف أنك ضايفتني جداً؟

هو: أعرف لأنني أتحدث عن أحسن خصوصياتك.. عن الأشياء
التي هي شخصية جداً.. والتي تختلفين بها عن كل خلق الله!

مط الشفتين وشد الأذنين وتصغير القدمين

أنت تبحث عن عروس . ولك صديق طيار يلف الكرة الأرضية كل يوم ، والمطلوب منك أن تدله على «مواصفات» بنت الحلال . وأنت لم تجد ما تقوله . ولذلك اخترت بعض الكلمات من قصص «ألف ليلة وليلة» . وكتبتها على ورقة . وتركت له حرية الاختيار فكان قبل أن يبسط أية مدينة يخرج الورقة ليقرأ . وبعد أيام عاد إليك دون أن يعثر على فتاة أحلامك . لماذا؟ لأن الصفات التي جاءت في الورقة من الصعب العثور على صاحبتها في أي مكان . أما الورقة فتقول :

«رشيقه القد ، قاعدة الهند ، لها عيون الغزلان ، وحواجب كهلال شهر رمضان ، وحدود مثل شقائق النعمان ، وفم كخاتم سليمان ، ووجه كالقمر مدور ، وبطن كالعجبين مخمر ، وسيقان سبحانه من صور . (الخ) أما لماذا لم يجد هذه العروس ، فلأن الجمال نسيبي . فالذى نراه فاتنا ، لا تراه شعوب أخرى . فالمرأة في الهند تعرى بطنها وتغطي كتفها . وفي هونغ كونغ تشق فستانها لتظهر ساقها ، وتداري صدرها الصغير .

وقد حاول الرحالة ابن بطوطة أن يقنع إحدى زوجاته من جزر المالديف بأن تستر بطنها وصدرها فلم يفلح . ويصفها بأنها «تعرى من سرتها حتى غرتها» !

وكما أن الإنسان حاول أن يقول كلاماً كثيراً عندما راح يصبح جسمه، فإنه مرة أخرى قال كلاماً أوضح وأعمق عندما جأ إلى «الوشم» - أي صبغ الجسم صباغة أعمق وأثبت، مستخدماً الإبر والمسامير..

أما صورة الإنسان، أو الإنسان كما يبدو لنفسه ولغيره فقد طورها وصورها كثيراً ولا يزال. وكان هذا التغيير من علامات قوته وحريته. فالإنسان يرفض أن يستسلم لهذا الجسم الذي يعيش به وفيه، دون أن يدخل عليه التعديلات التي تختتمها الرغبة في الامتياز عن الآخرين، فيبدو أحجمل وأقوى..

(ونحن في العصر الحديث نفعل ذلك بجسامنا، وبكل ما نملكه من الأشياء المتشابهة: المساكن الشعبية والسيارات.. فالسيارات من ماركات متشابهة. ولذلك فصاحب كل سيارة يفعل بها ما يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى. كأن يضع عليها علامات من الخارج والداخل. ويعلق في سقفها عرائس وحيوانات ومسابح بما يدل على أنه ليس كالآخرين. ويكتب عليها أسماء الأغاني وأسماء أولاده ورأيه في عيون الناس.. ثم إنه أيضاً يختار لها رقمًا جذاباً.. والمعنى: إنه ليس سليباً.. وإنما له رأي.. له إرادة.. مختلف عن الناس.. وكذلك حرصه على اختيار أرقام للتليفونات جذابة.. أو موسيقية..).

ومنذ أكثر من ٢٥ ألف سنة دلت الآثار على أن الإنسان استخدم «الوشم».. ظهرت علامات هندسية على جوانب من الوجه والذقن.. وهذه العلامات على الذقن تشبه التي تستخدمها نساء البربر في المغرب والجزائر وبدو الصحراء الغربية. فالمراة تضع خطوطاً زرقاء على الذقن.

كما أن المرأة البربرية تستخدم الكحل. وتضع نقطة سوداء عند جانب من العين.. وظهر الوشم الأحمر أيضاً، استخدمته المرأة على خديها. وقد حرصت المرأة على ذلك لألف السنين. ولكنها اختفت دون أن ترك لنا تفسيراً لذلك!

وفي قبائل «المأوري» في جزيرة نيوزيلندا، نجد المرأة قد استخدمت الوشم في أماكن كثيرة من جسمها. على شفتيها ونديها وفي أماكن عميقه من ساقيها.. أما الرجال فكان الوشم عندهم على الكتفين. مثل الشرائط والنجم والنسور التي يضعها الجنود والضباط. دليلاً على المكانة الاجتماعية وعلى سلطة القبيلة..

وفي اليابان وحتى القرن السابع عشر، كانت المرأة تضع الوشم على جانبي العين والشفتين. والمعنى: إنها لا ترى إلا زوجها ولا تكلم سواه. وأحياناً يكون الوشم على شفتها العليا كما لو كان شارباً. وفي ذلك دلالة على استقامتها وصلابتها..

وكانت بنات «الجيشا» يكتبن أسماء العشاق على الساقين. دليلاً على أن كل منهن اختارت رجلاً واحداً مدى الحياة. وفي قصص «الف ليلة وليلة» كانت الغانيات يكتبن ما يريدن أن يقلنه للرجال على ملابسهن. ولذلك نجد مثل هذه العبارة: «ولما كشف عن سروالها وجد بيتاً من الشعر مكتوباً على «تكتها» هذا نصه: «الخ».

وفي الحرب العالمية الثانية كنا نرى القوات البريطانية في مصر وقد ظهر الوشم على الذراع والصدر لجنود استراليا ونيوزيلندا.. وبعض القبائل الأفريقية وبسبب سواد البشرة. لا يستخدمون الوشم. وإنما

يلجأون إلى «تشريط» الوجه بعلامات طولية أو عرضية.. وكل علامة لها دلالة خاصة على القبيلة وعلى المكانة الاجتماعية..

وفي العصور الوسطى كان الألمان يتباهون بالخروج الظاهر في الوجه دليلاً على أنهم اشتراكوا في مبارزة بالسيف، ثم انتصروا فيها! ومن مظاهر التغيير ما يطأ على: الأذن.. ففي أواسط أفريقيا نجد أن الأذن الكبيرة من معالم الجمال والدلالة. ولذلك فالطفل وهو صغير يعلقون في أذنه حجراً أو قرصاً من الحديد. فتتدلى الأذن على الكتف.. ثم ثقبت المرأة أذنيها لتضع الأقراط المعدنية والذهبية والماضية..

وقد عادت المرأة الغربية إلى ثقب أذنها مرة أخرى ابتداء من سنة ١٩٦٥ ، وكانت قد عدلت عن ذلك زمناً طويلاً.

ثم وجدنا الرجال يثقبون أذناً واحدة للدلالة على أنه قرصن أو قاطع طريق.. أو أنه شاذ جنسياً. وإنه يريد أن يعترف، وأن يعلن للناس ذلك. ولا يهمه ما يقال عنه.

وكذلك: الأنف.. في الدراسات الممتازة التي خلفتها لنا العالمة الأمريكية «مرجريت ميد» نجد أن بعض قبائل جزر المحيط الهادئ ترى القوة الجنسية لصاحب الأنف الطويل. أو أن إطالة الأنف تقوي جنسياً. ولذلك كانوا يشدون الأنف إلى الأمام، حتى يصبح منقاراً.

والشاب عندما يخطب عروسه. يجلس إلى جوارها، وعلى إيقاع الموسيقى ودق الطبول ونشوة الخمر، يقترب أنفه من أنفها.. ويتألمسان ساعات طويلة حتى لا يكون أمامهما إلا حل واحد هو الزواج فوراً.

ولابد أن يشعر بالعار كل من يجد أنفه صغيراً - فذلك هو عصب
السيء - والمعنى الحزين أنت تعرفه .
والشفتان ..

وابن بطوطة يقول لنا إنه رأى في جزيرة سيلان رجالاً كالكلاب .
الشفاه ممطرطة إلى الأمام . فعند بعض القبائل الآسيوية والأفريقية لابد
من شد الشفتين إلى الأمام مدى الحياة . حتى تصبح الشفتان مثل منقار
البطة . ويصبح من الصعب عليه أن يأكل أو يشرب واقفاً أو جالساً .
وإنما نائم .. ولذلك كان الزواج ضرورياً . وقبل أن يزف العريس إلى
عروسه ، لابد من شد الشفتين والأذنين والألف ووضع الشطة في فمه
لتتوorm شفتاه ولسانه . ويرون ذلك ضرورياً للليلة سعيدة - وهي لا تنتهي
عادة كذلك !

وفي القرن التاسع عشر في أوروبا ظهرت موضة الشفاه الممتلة ،
دليلًا على الحيوانية والإثارة الجنسية . وتغنى الشعراء بالشفاه الدافئة ..
وفي القرن العشرين مع ظهور مارلين مونرو ، كانت الشفاه الغليظة هي
هدف العيون والشفاه .. وفي مصر كانت الممثلة «كاميليا» نموذجاً لذلك .
وقد حرصت كل نجمة السينما على تغليظ الشفاه بخطها إلى الأمام أو
برسمها بالروج لتبدو كذلك
والأسنان ..

وقد رأيت في أندونيسيا والفلبين الرجال وقد خلت أفواههم من
الأسنان . فهم يعتقدون أن الشياطين تسكن بين الأسنان . ولذلك
وسعوا المسافة بين الأسنان حتى تساقط الشياطين . وعندما وسعوا بين

الأسنان أزالوا طبقة «المينا» التي تحمي الأسنان من التسوس. وقبل ذلك أزالوا الأسنان التي في مقدمة الفك. لأن الفم الكامل الأسنان يبدو بكم الحجار! أما الأسنان البيضاء فيروتها تشبه أسنان الكلاب.. ولذلك كان لابد من صبغها باللون الأحمر في الهند وباسستان أو اللون الأسود في أندونيسيا واليابان. أو باللون الأبيض للمرأة بصفة خاصة تكريماً لها. أما الحقيقة العلمية فهي أن سوء التغذية ونقص الكلسيوم أدى أيضاً إلى اصفرار الأسنان وسقوطها..

ففي اليابان كانوا يصبغون أسنان الموتى والشهداء احتراماً لهم. وفي كينيا لا تهتم قبائل الماساي بالأسنان لأنها لا تحتاج إليها. فهم يعيشون على شرب اللبن والمدم. فالأبقار تظل في المرعى وهم يرpushون أثدائها. ثم يجعلونها تنزف دمًا ويشربون الاثنين معاً. ويفطرون مكان النزيف بالعجائن النباتية.

وبعض البلاء في اليابان والصين كانوا يضعون الأحجار الكريمة بين الأسنان.. تماماً كما يلجأ بعض الرجال والنساء الآن. إلى أن تكون لهم أسنان من ذهب أو من بلاتين، تلمع في أفواههم عند الكلام - كأنه نوع من الابتسام الدائم! ومنذ عشرين عاماً رأيت في مدينة كيوتو إحدى فتيات الجيشا ولها أسنان واحدة من فضة وواحدة من ذهب - وكان ذلك أقبح ما في وجهها إذا تجاوزنا عن الأبيض والأحمر والأسود على خديها وكذلك رائحة البصل التي تفوح من اللحم البارد الذي تقدمه مع عميق الانحناء. وعظيم الاحترام، وبالغ الأدب!

والقدمان..

وقد انفردت الصين بهذه البدعة «الجمالية» فالفتاة يجب أن تكون صغيرة القدم . والقدم الجميلة هي التي عملاً كف الرجل ، فكان العريس إذا ذهب ينخطب فتاة ، أجلسوها وراء ستار . وأخرجوا قدميها من القالب الحديدي ويمسك العريس قدمها في كفه . وهي عبارة عن كتلة مشوهة من اللحم والظامان المتداخلة .

فإذا أعجبته دغدغها قليلاً . فتضحك العروس وأمها والأسرة وتعيد الفتاة قدميها إلى القالب الحديدي . ويتم الزواج .

والفتاة - عادة - لا تكون قادرة على الحركة . وانعدام الحركة دليل على الرفاهية . فالحركة عند بنات النبات : ترف . ولكن الحركة ضرورة حياة عند العاملة والفلاحة .

والرأس ..

وقد حرصت القبائل البدائية وكل الحضارات القديمة على تشكيله بما يتفق مع مقاييس الجمال ، والسلم الاجتماعي . يجعلونه مستديراً ومربعاً ومستطيلاً ومدبباً . وكل شكل له معنى .

١
ورأس الملك توت - عنخ - أمون وضع هو الآخر في الأقمصة والأربطة ليتخد هذا الشكل البيضاوي . وكان ذلك هو الشكل الذي يليق بالملوك والتبلاء . أما الإنسان الذي يترك رأسه كما ولد به ، فهو الذي لا يملك حولاً ولا قوة . لأنه يتقبل كل شيء كما هودون أن يملك القدرة على تغييره أو التدخل في مساره !

وقد تحدثت الأستاذة مرجريت ميد عن قبائل في المحيط الهادئ ،

تشد رأس الطفل إلى الوراء منذ ولادته . ويكتنف مشدود الرأس ، شاخص العينين إلى السماء . إذن فلقد اختارت أمه وأبسوه ليكون كاهناً أو ساحراً . ولذلك جاءت نظرته السامية المتعالية على الناس والأشياء !
والنهدان ..

هذا ضرورة الأمة ومعالم الجمال والألوان والإثارة . وفتاة بلا نهددين مثل سرير بلا مخدات . والمرأة في كل التاريخ ، ترى أن ضمور النهددين عيب خلق . وأن تضخمها أيضاً ولذلك فهي حريصة على استدارتها وحيويتها . وكانت الملابس القديمة تخفيها تماماً . وقد حدثنا رفاعة الطهطاوي عن المرأة الفرنسية كيف أنها تضع عوداً من الحديد في صدرها ليرفعه إلى أعلى وإلى الأمام .. واستخدمت المرأة السوتيان الجاف ، ثم السوتيان المطاط الذي يجعل النهددين يتبرجحان ، ويعلوان ويبيطان .. واستخدمت المرأة « الكورسيه » في نفس الوقت ليختنق خصرها ، ويزيل نهدديها وردهفيها أيضاً ..

ولم يفلح الأطباء في إقناع المرأة بأن الكعب العالي ضار بالعمود الفقري والمخ ، وأن الكورسيه ضار بالمعدة والأمعاء . وأن السوتيان ضار بالرئتين . ولكن المرأة اختارت الرشاقة والجمال مهما كان الثمن - والثمن من مال زوجها ومن صحتها .

وفي الأساطير الإغريقية أن النساء ثرن على الأنوثة وضعفها . ولذلك قطعت النساء أنداءهن - بنات الأمازون - حتى لا يحملن ولا يرضعن ولا يلدن .. ويتفرعن لقتال الرجال !

ومنذ سنوات سارت المظاهرات في نيويورك . ومشت المرأة عارية

الندين، احتجاجاً على ظلم الرجل الذي يعطيها حقوقاً أقل، لأنها امرأة. فكشت المرأة صدرها بما معناه: إذا كان الصدر هو الذي تريده، فإليك عارياً في متناول أي أحد.. لأنه لم يعد يهم المرأة. فالمرأة لا تعيش بثديها، ولكن تريد أن تعيش بإنسانيتها بكرامتها بمساواتها بالرجل!

ومن عشرين عاماً اتجهت العيون إلى صدر الممثلة «جين رسل» الذي أمنت بملائين على جماله وشبابه.. ومنذ ذلك الحين، والكاميرات حائرة في التقاط الزوايا والظلال لأكبر وأجمل الصدور: جينا لولو بريجيدا وسيلفانا مانجانو وصوفيا لورين.. أما بريجيت باردو فقد رأت الأدبية الوجودية سيمون دو بفوار أن حب الناس لها دليل على فساد ذوق الرجال، وعلى شذوذهم الجنسي أيضاً. فهذه الفتاة تشبه «غلاماً» ولا تشبه الأنثى. ولذلك فجتون الرجال بها دليل على انحرافهم الجنسي.. فهي طفلة الوجه، ساذجة الفم، تلميذة الشعر، مختصرة الصدر، غلام بعد ذلك!

والأديب الفرنسي جوستاف فلوبير عندما كان في قنا في نهاية القرن الماضي رأى الفلاحة المصرية تملأ البلاص من النيل ثم تقف مشلودة القوام، بارزة الصدر فقال: لو لم يكن هنا نيل خلقته المرأة المصرية. فهو يعطيها فرصة نادرة لكي ترفع رأسها وتشد عنقها. وتبرز صدرها - وهو ما لم تعرفه الفرنسيات اللاتي يعشن على ضفاف نهر السين!

* * *

والذي تفعله القبائل القدية، بأساليب بدائية، ما زلنا نعمله ولكن بأجهزة حديثة متطرفة. فكل عمليات التجميل للوجه والأنف والعينين

والنهدين والرددفين والفحذين ، تتم بعناية فائقة . بينما مثل هذه العمليات كانت تؤدي إلى الوفاة . فالطهارة مثلاً ، والتي بدأت عند الفراعنة ، ثم عند اليهود وفي الجاهلية قبل الإسلام ، كانت من علامات الشجاعة . فقد كانت مؤلة ، ثم إنها كانت تؤدي إلى الوفاة . بسبب استخدام سكاكين غير «معقمة» وأجدادنا الفراعنة كانوا يرون في الطهارة نوعاً من النظافة الصحية ، واليهود رأوها وفاء بالعهد الذي قطعوه على ربهم ، بتضحية بجزء من جسم الإنسان نيابة عن بقية الجسم . . وكانت القبائل القديمة تزيل كثيراً وعميقاً عند طهارة المرأة

* * *

وعلى الرغم من براعة الجراحين في تدوير النهدين وتکوير الردفين وسحب الفخذين ، فإن هذه العمليات ما تزال خطرة . . كما أن إدخال بعض المواد تحت الثدي ليبرز أكبر قد أدت إلى الإصابة بالسرطان - فلينة أحد مثلاً - وأخریات شفاهن الله .

والتخسيس الذي هو «نحت» للجسم الإنساني لازالة الشحوم واللحم يفرض على الرجل والمرأة الجموع والحركة العنيفة وتعاطي ما يسد الشهية ويقلل النوم ويفرز العرق ويدر البول ، وهو مجهد شاق عنيف وخطير أيضاً .

ومادة «الأمفيتامين» المستخدمة في كل حبوب وأقراص التخسيس ، خطط على القلب وعلى الجهاز العصبي وعلى المخ . . ولكن أحدها لن يتوقف عن إعادة تشكيل جسمه ليكون قريباً من «الصورة» التي يتخيلها لنفسه وخاصة المرأة . فالمرأة تفضل أن تموت غزاً ، على أن تعيش فيلاً

زمن الألف قناع لكل وجه !

أنت ذو وجهين - آسف وأنا اعتذر عن أن لك وجهين فقط فالإنسان له ألف وجه . لأن الميت هو الذي له وجه واحد أو ملامح ثابتة كأنها قناع على وجهه . وهذا هو الفارق بين البحيرة الراكدة والنهر المضطرب الأمواج والأسماك وانكسارات الضوء . وقد يمأأ قال فلاسفة الإغريق : إنك لا تنزل النهر مرتين .. أي إذا نزلته في المرة الثانية فهو قد تغير عما كان عليه في المرة الأولى كيف ذلك ؟ فأنت لك وجه وأنت تتحدث إلى ابنك وإلى والدك وإلى أمك وإلى زوجتك وإلى رئيسك وإلى خادمك .. وأنت فرحان وأنت غضبان وأنت زهقان قرفان وأنت شبعان وأنت في حالة أرق وقلق ، وأنت إذا ذهبت لتنام ، وأنت إذا نهضت لتنام .. فكل حالة لها ملامح على وجهك وها نفس الملامح على جسمك وغدبك ووظائف الجسم ..

وفي سنة ١٩٥٩ ذهبت لأقابل مارلين مونرو . وظلتني أول الأمر أن هذا شيء سهل . وهو بالفعل كذلك . جاء مدير أعمالها وسألني : ماذا تريد منها ؟ قلت : أراها . فسألني : وما الذي تريد أن تراه منها ؟ قلت : كلها .. سألني : وفي أية حالة ؟ قلت : لم أفهم .. قال أعرف أنك تريد أن تراها كلها .. بملابسها .. عارية .. نصف

عارية ؟؟
ولم تشجعني هجته الساخرة بصحفي صغير مثلني جاء من هاواي في

طريقه إلى أوروبا فتوقف في أمريكا لكي يرى مارلين مونرو التي لم أر كل أفلامها، والتي كانت منوعة في ذلك الوقت في مصر لأنها تزوجت الكاتب اليهودي الشيعي آرثر ميلر.. وعاد يسألني: تريد أن تراها في أية حالة؟ قلت: على أية حالة، فأجابني بصورة نهائية قاطعة: منع أن تصورها.. سوف نبعث لك بالصور التي تريدها.. فيما هي الصور التي تريدها.. هل تريدها تبكي.. تضحك.. ترقص.. تغنى.. تحب.. تكره.. لماذا تريدها.. بسرعة.. لا تصميم وقت..

فقلت بسرعة.. وهي تضحك لأنها وجهها جميل العينين والشفتين والأنف والجبهة والأذنين والعنق... .

فقطاعني مدير أعمالها وكأني طفل دخل قاعة العمليات خطأ في كلية الطب: تريدها تضحك.. هناك ألف نوع من الضحك.. تضحك.. لأنها قابلت صديقاً قدماً.. عشيقاً.. لأنها قابلت حماتها.. أمها.. لأنها كسبت مليون دولار.. لأنها كسبت دولاراً واحداً.. تضحك بصورة هستيرية لأنها خسرت كل ثروتها.. .

فكل حالة من حالات الضحك لها ملامح.. أي لها صفات ثابتة معروفة تظهر على الوجه، كأنها «فنان» من الحركات والألوان والظلال! فالحياة مسرح، ونحن جميعاً ممثلون على هذا المسرح وفي أدوار مختلفة، بعض هذه الأدوار مناسبة لنا، وبعضها فرضت علينا.. وقد نفشل في الأدوار المناسبة، ونجح في الأدوار غير المناسبة، وأناس يظهرون بسرعة. ويختفون أسرع.. وأناس يموتون على المسرح.

* * *

ولم يكن من السهل على الإنسان في تاريخ تطوره الطويل، أن يعبر عن كل هذه المعاني المتداخلة بدقة. ولذلك كان يضع على وجهه القناع المصنوع من الجلد أو الخشب أو السورق ليدل على هذه المعاني والوظائف. فالقاضي له قناع والساحر له قناع، واللص وشيخ القبيلة والسعيد والتعمس والمريض.. وقد رأينا هذه الأقنعة على جدران المعابد والكهوف من عشرات ألف السنين.. ولها ألوان مختلفة وأحجام أيضاً.

ولابد من البحث عن القبائل البدائية، أي التي لم تتغير عاداتها ولم تتطور بعد. ففي إحدى قبائل ساحل العاج نجد أن القناع له وجهان: واحد حزين وواحد سعيد.. فإذا دار الحوار بين اثنين وضع كل منهما قناعاً. فيكون رد الفعل بالقبول والرفض هو القناع. فإذا ظهر الرجء السعيد كان معناه الموافقة والقبول.. وإذا كان الرجاء الآخر، فالمعنى: لا..

وهي صورة بسيطة جداً لنوع الكلام وال الحوار الصرير: نعم.. لا.. فلم تعرف هذه العقول البدائية: الدرجات التي لا نهاية لها بين القبول والرفض.. لا يعرفون: ربما.. يجوز.. ممكن.. مستحيل.. إلى غد.. أعطني بعض الوقت لكي أستشير- لا شيء من ذلك. فالرفض جاهز، والقبول أيضاً

وفي القبائل البدائية في جزيرة إيريان الأندونيسية أن شيخ القبيلة الذي اتخذ قناعاً واحداً متوجهًا يدل على قوته وسطوته.. وإذا جلس بين زوجاته أو بين أولاده أو بين أفراد قبيلته، نجده يخلع القناع كأنه

جزمة.. وإذا ذهب إلى معشوقته، وللدلالة على أنه تحرر من أعباء الملك، فإنه يرقص كما ترقص النحلة عند مدخل الخلية.. تماماً كأنه «سي السيد» في روايات نجيب محفوظ.. فسي السيد جاف جاد مع زوجته وأولاده فإذا ذهب إلى أماكن الحظ والفرشة، فهو شاب مراهق، يرقص ويعني ويбоس القدم دون ندم، فإذا عاد إلى بيته، ارتد عن كل ذلك، ووضع على وجهه وعلى كل حركاته قناع وسلام سلسل شيخ القبيلة.

حتى الإغريق الذين هم أكثر تحضرًا وأعظم عمقةً، استخدمو القناع الخشبي أو الورقي أو الجلدي على الوجه للدلالة على أدوار الممثلين على المسرح.. فهناك قناع يبكي أي أن الممثل تراجيدي.. وهنالك قناع يضحك، أي أن الممثل كوميدي.. وأقنعة الشر وأقنعة الغضب وأقنعة القوة والسلطة.. وبذلك يستطيع المترجع من أول لحظة، أن يعرف ما هي الأدوار أو «الشخصيات» التي يمثلها هؤلاء الناس..

وكلمة «برسونا» الإغريقية معناها القناع، ومعناها الشخصية أيضاً.. لأن شخصية أي إنسان: هي مجموعة الصفات الثابتة. أن السلوك الواحد في المواقف المختلفة. فنقول: فلان كريم.. وفلان صبور.. شجاع.. رحيم.. عنيف.. سخيف.. أي أن هذه هي الصفات التي تغلب على سلوكه.. أو التي تتوقعها عند المواقف أو الظروف المتغيرة.. أما الإنسان الذي لا شخصية له، أي الذي لا نعرف له موقفاً واضحاً ثابتاً، فهو مرة بخيل وهو مرة كريم، وهو مرة لطيف وهو مرة عنيف.. ولذلك لا نشعر بالارتياح له أو معه لأنه لا يمكن التنبؤ بخطوه التالية!

وفي اللغة العربية تقول: الشخصية أي الذي يبدو من الإنسان عندما يكون بعيداً عنا.. أي المساحة القائمة من الجسم فلا تظهر منه إلا صفة واحدة.. إنه جسم وإنه ظلال..

و«الشخص» هو كل شيء نرى جثثاً منه من بعيد و«الشخص» معناها الذهاب من بلد إلى بلد.. وفلان له نظرة شاحبة: أي نظرة ثابتة دون أن يتحرك جفنه، تماماً كأنه ميت.. ويقال: شخص صوته: أي ارتفع ولم يعد قادراً على أن يجعله ينخفض أي أن صوته ظاهر، وإنه قد ثبت على هذه الطبقة العالية.

وقد بلغ من دقة المؤلف عند الإغريق، أنه كان يطلب إلى الممثل أن يقرأ الدور وأن يفهمه. وأن يحرص على أن يعرض على الناس كل هذه المعاني. والغريب أن الممثل كان يضع قناعاً على وجهه. أي أنه كان مطلوباً منه أن تكون لوجهه تعبيرات خاصة رغم أن القناع يخفي ذلك. أي أن المطلوب منه هو أن يندمج تماماً، بوجهه الذي لا نراه وبديهيه وذراعيه وحركاتها التي نراها.

وهو أصعب كثيراً مما يفعله الممثل في العصر الحديث. ومن الأمثلة التي يدرسها الطلبة في المسارح الإنجليزية ما الذي فعله الممثل الكبير سير لورانس أوليفييه عندما قام بدور «الإمام المهدي» البطل السوداني في فيلم «الخرطوم» يقولون إنه ذهب إلى السودان ومشى في شوارعها. وعايش الشعب السوداني. ولما لاحظ المخرج أن سير لورانس يتحرك بسرعة دق إحدى قدميه فأوجعه حتى ظل يعرج أياماً.. ثم دق قدمه الأخرى ليكون أبطأ في حركته. وجعله يرتدي حذاء ضيقاً.. ولف حول

ساقيه شريطاً من المطاط فتكون له خطوة قصيرة هادئة. ثم الصدق على جانب من وجهه قطعة من المطاط حتى لا تتحرك إحدى شفتيه أكثر من الأخرى.. ثم الصدق خبطاً من المطاط حول عنقه.. ولا التقطت له الصور: لم يسعد المخرج بها.. وطلب منه أن يسافر إلى الخرطوم، وأن يعيش أياماً تحت اسم مستعار.. ولما ثبتت كل صفات القناع على وجهه بدأ التصوير لدور رائع لهذا الممثل الكبيرا

وأذكر أنني شاهدت في هوليوود تصوير فيلم من بطولة «ناتالي وود».. المنظر: إنها ترقص مع آخرين.. وهي ترقص لمحث عشيقاً قدیماً، ولأنها كانت خمورة، فقد ألت نفسها عليه وراحت تقبله. وفجأة صرخ المخرج: يا حمار يا بنت الـ :

وتوقف الرقص وإذا المخرج يقول لها: لا تنسى أنك خمورة.. وأنك أقصر منه.. وأنه ليس من السهل أن تصلي إلى شفتيه إلا إذا وقفت على أطراف أصابعك.. ولأنك خمورة يمكنك أن تقبلي يديه أو حتى قدميه.. ولكنك وصلت إلى شفتيه بسرعة.. ثم إنه حمار. أيضاً لأنه نسي كل هذه المعاني وراح يقبلك.. لا تنسى أنه شخص كريه وأنه ابتر أموالك.. وأنه كان سبباً في إجهاضك.. وضياع ثروتك.. وأنه إنسان سافل لأنه قدمك عشرين مرة لأصدقائه مقابل دين في القمار.. أريد أن أرى هذه المعاني الحقيقة على وجهك الجميل!

وأعيد هذا المشهد عشر مرات، مع التغييرات المناسبة في الألفاظ! أما الغلط فهو أنها نسيت هذه المعاني كلها، أي نسيت ملامح القناع المطلوب، وارتجلت موقفاً عاطفياً جنسياً من عندها!

وربما كانت اليابان وكوريا، أكثر الدول حرصاً على استخدام الأقنعة حتى الآن.. ليس على المسارح فقط، وإنما في المناسبات الدينية والقومية. ففي المناسبات الدينية يرتدون أقنعة لتخويف العفاريت وطرد الشرور من البيت، من بيت الميت، من بيت العريس، ومن بيت الطالب الناجح والعضو الذي فاز في الانتخابات..

وكان الكهنة البوذيون يرتدون الأقنعة للدلالة على الزهد في الدنيا. ثم عدلوا عنها. فقد تكفلت وجوههم بذلك تماماً.. فالراهب البوذي يتدرج على الجلوس دون حركة، وعلى الوقوف إلى جوار شجرة كأنه شجرة. لا شيء يبدو على وجهه أو على عينيه أو شفتيه. لقد استطاع أن يتحكم في ملامعه وأن يثبتها تماماً. ثبات الملامح معناه أنه لا يبالي بما يدور ويجري حوله، كأن الدنيا ماتت مثله تماماً. وفي ذلك احتقارها ولا مبالاة بها.. وبعض المذاهب البوذية تطلب من الراهب أن يرفع ذراعه الأيمن أو الأيسر ممدوداً إلى جواره مدى الحياة.. وبذلك يغسل نصف نشاطه.. أو يترك أصابع يديه منفرجة، وبذلك يعجز عن أن يمسك بها أي شيء.. لأنه لا يريد من دنياه شيئاً.. وهكذا يتعود الراهب على اتخاذ السلوك الواحد، تأكيداً لشخصه الراهد.. فلا يكون الوجه فقط هو الثابت الملامح، وإنما كل الجسم أيضاً..

وفي هذه الأيام يرتدي الناس الأقنعة في المظاهرات، احتجاجاً على الدولة. وتكون الأقنعة لها شكل الموت.. احتجاجاً على استخدام الأسلحة النووية التي تهدد الإنسانية.. واحتجاجاً على الظلم السياسي والقهر الاجتماعي..

ومن الغريب أن قناع الموت هذا كانت به أسنان ذهبية، وكانت به عيون من الخرز وقد تعلقت منه السكاكين والسيوف وبعض الأدعيـة - أي إنها جيـعاً تحتمـي بهذا القناع المخيف.

ومن أشهر أساطير ساحل العاج أسطورة اسمها «نابليون القديـم» .. الأسطورة تحكـي قصة ملك جبار عنيـف لا يضحك أبداً شـد على وجهـه قناعـاً من الجلد المـتين. لم يره أحد يأكل أو يشرـب أو ينـام ولا حتى زوجـاته وأـولادـه. ولذلك اقـتنـع الناس في ذلك الـوقـت أنه يـشـرقـ في الصـباـحـ مع الشـمـسـ، ويـغـربـ معـهاـ.. أي يـعيشـ بـعـيدـاً عنـ هـذـاـ العـالـمـ لأنـهـ إـلـهـ.. وـكانـ هـذـاـ الـمـلـكـ إـخـوـةـ كـثـيـرـونـ. وـكانـ لـهـ سـلـوكـ غـرـيبـ معـهـمـ.. هـذـاـ يـضـرـبـهـ وـذـاكـ يـقـبـلـهـ.. وـالـثـالـثـ يـطـرـدـهـ وـالـرـابـعـ يـعـانـقـهـ وـالـخـامـسـ يـضـعـهـ تـحـتـ قـدـمـيهـ وـالـسـادـسـ يـأـمـرـ بـإـغـرـاقـهـ فـيـ المـاءـ وـإـخـرـاجـهـ بـعـدـ ذـلـكـ.. وـلـكـ وـاحـدـةـ مـنـ إـخـوـتـهـ هـيـ التـيـ كـانـ ضـعـيفـاًـ أـمـامـهـ. تـفـعـلـ ما تـشـاءـ وـلـيـكـ إـلـاـ طـاعـتـهـ.. وـمـاتـ الـمـلـكـ وـكـلـ إـخـوـتـهـ، وـبـقـيـتـ هـذـهـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـمـلـكـ وـأـخـتـهـ لـغـزاـ.. حـتـىـ تـكـرـرـ ذـلـكـ فـيـ الـقـرنـ التـاسـعـ عـشـرـ بـيـنـ الـأـمـبـاطـورـ نـابـلـيـونـ وـإـحدـىـ إـخـوـاتـهـ. كـانـ مـدـلـلـةـ مـنـ حلـةـ وـكـانـتـ عـشـيقـةـ لـكـلـ الـوزـراءـ وـكـلـ ضـبـاطـ الـقـصـرـ.. وـكـانـتـ عـشـيقـةـ جـاسـوسـةـ لـلـأـمـيرـ مـتـرـنـيـخـ وـزـيـرـ خـارـجـيـهـ النـمـساـ وـأـحـدـ أـبـطـالـ «ـالـوـفـاقـ»ـ بـيـنـ الـقـوـىـ الـمـتـصـارـعـةـ وـالـمـلـلـ الـأـعـلـىـ لـكـسـنـجـرـ بـعـدـ ذـلـكـ.. فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ سـمعـتـ أـخـتـ نـابـلـيـونـ أـنـ أـخـاـهـاـ سـوـفـ يـجـريـ تـعـدـيـلاـ وـزـارـيـاـ، وـأـنـ عـشـيقـهـاـ سـوـفـ يـخـرـجـ مـنـ الـوـزـارـةـ فـأـسـرـعـتـ إـلـىـ مـجـلسـ الـوـزـراءـ، وـاقـتـرـبـتـ مـنـ أـخـيـهـاـ وـعـانـقـتـهـ وـقـبـلـهـ فـقـالـ لـهـ غـاضـبـاـ: هـهـ.. وـمـاـذاـ تـرـيـدـيـنـ مـنـ الـيـوـمـ!

فـأـجـابـتـ: هـلـ هـنـاكـ تـعـدـيـلـ وـزـارـيـ؟

وكان رد نابليون صارخاً: وماذا يهمك.. سوف آتي لك بعشاق

جدد!

وفي قبيلة «تم تم» في تنزانيا لا يحق للملك أن يحرك القناع من فوق وجهه، ولذلك يقف إلى جواره شخصان يمسكان القناع.. لأن اهتزاز القناع مثل اهتزاز العرش من تحت الملك ، دليل على الضعف أو الخوف. ولذلك فالملك يأكل ويشرب في الظلام.. واللذان يحرسان القناع هما اللذان صنعاه.. فإذا سقط القناع لأي سبب ، كان يتأمر عليه هذان الإثنان ، لم يعد ملكاً. ويتقاتل الإثنان ، حتى يتخلص أحدهما من الآخر فيكون ملكاً. وإذا حدث أن تشاور هذان الإثنان ومزق أحدهما ملابس الآخر أو كسر ذراعه أو ساقه فالملك يجب أن يحكم القبيلة وهو على الهيئة التي انتصر بها.. فلا يعالج أحد ذراعه أو ساقه أو يضع عليه الملابس وإنما يبقى على ما هو عليه!

وقد سخر الكاتب السويسري ديرمان من هذه العادة القديمة، ورأى أنها في العصر الحديث لم نبعد كثيراً عنها.. ففي مسرحيته التي ترجمتها له بعنوان «سلطان زمانه» كان الملك يجلس على العرش ويوضع تحت قدميه الملك السابق ، وينص الدستور على أن هذه الهيئة يجب أن تكون ثابتة لا تتغير فإذا أكل الملك ويشرب وينام - إن استطاع - جالساً على العرش ورجله فوق رقبة سلفه العظيم.. ولذلك فالملك يسقط من فوق العرش ، من شدة التعب والأرق والجوع ، وينتصر الملك الذي كان تحت قدميه ليحكم وحده حراً بعد أن مات خصمه.

* * *

وعند قبائل «الطوارق» في الصحراء الغربية نجد الرجال هم الذين يضعون «البرقع» الأسود وقد دهنا وجههم باللون الأزرق.. ولذلك يسمونهم الرجال الزرق.. إما لأنهم يضعون هذه الصبغة، وإما لأن كلمتي الأزرق والأخضر تدلان على أنه ليس أسود تماماً وإنما فاتح اللون.. فهو أسود فاتح أو هو أسمراً أو هو أبيض داكن.. أما المرأة فهي مكشوفة الوجه.. أما لماذا ينفي الرجل فمه وأنفه ويكشف عينيه؟ فهناك اتجهادات كثيرة من بينها أن العينين لا تدلان على بقية الوجه، بينما الشفتان الأنف باللغة الدلالة. ومن بينها أن الرجل لا يتكلم عادة، وإنما زوجته التي تعمل وتشقى هي التي تقف إلى جواره تحجب عن كل الأسئلة التي يوجهها أحد إلى زوجها.. فالزوج يحرس الخيمة ويرعى الإبل ويتولى تربية الأطفال، أما الطعام فمن مهام الزوجة. فلا رأي ولا سلطان له!

. ومن التفسيرات أن الرجال قد سقطت أسنانهم وإنهم قد صبغوا شفاههم باللون الأزرق وأنوفهم باللون الأسود، وإنهم ينفون السكايين حول أنفائهم.. فهم في حالة تحفظ إذا جاء الخطير- صاحبة هذا التفسير هي السيدة جابر بيله كارمينو، أستاذة الدراسات الإنسانية في جامعة روما.. والتي أقامت بين الطوارق وتزوجت أحد شيوخها.

* * *

وعندما ذهب الأمير فيليب زوج ملكة بريطانيا إلى كينيا شاهد عرضاً مسرحياً تقام به إحدى القبائل. فضحك لمشهد واحد - كان هو والأطفال يضحكون. أما بقية المشاهدين، فقد شاركوه بمحاملاً له. ولم يكتف بذلك بل قال: ولكن هذا ما نفعله هذه الأيام.

أما المشهد الذي أضحكه فهو أن أحد رجال القبائل قد وضع القناع مشدوداً على وجهه، وراح يتحرك أمامهم في خط مستقيم، فكان يصطدم بالناس وبالمقاعد، فينهض شخص ويوجهه إلى ناحية أخرى فيمشي في خط مستقيم ويصطدم بالناس.. والأطفال والأمير يضحكون. فما الذي أضحكهم؟

هناك نظرية للفيلسوف الفرنسي برجسون تقول: إن الإنسان يضحك من السلوك الآلي.

تفسير هذه العبارة: إنك إذا كنت تمشي في الشارع ثم اصطدمت بطوبة. فسقطت على الأرض لأنك أنت الآخر طوبية أو لوح.. هذا السلوك «الآلي» أي سقوطك - يجعل الناس يضحكون.. لأنك لم تحاول أن تقاوم، وإنما استسلمت لأنك طوبية.. أي لأن طوبية أسقطت طوبية!

ونحن عندما نتفرج على الإنسان الآلي، تكون لدينا مشاعر متباعدة.. شعور بالقرف من هذا الإنسان الحديدي الذي لا عواطف ولا إحساس له.. ثم خوف من الأصوات التي تلمع في كل مكان من جسمه.. وخوف من ذراعه القوية ومن أصابعه الحديدية التي تشبه الأنياب والمخالب.. وشعور بالاشمئزاز أيضاً من أن يتحول الإنسان إلى «آلة» أي إلى سلبية مطلقة.

ثم شعور بالتعالي عليه. لأننا نملك من أمرنا أكثر، ولأننا أعظم حرية وأقدر على التصرف وعلى الإبداع.. وشعور بالسخرية منه لأنه يقلد الإنسان وليس إنساناً ورغم تطبيق عشرات النظريات الرياضية

والالكترونية، فإنه يتحرك كما لو كان أعمى، ويصطدم بالأشياء دون أذ يقدر على تفاديها..

والذين يتخذون مثل هذا السلوك يضحكوننا أيضاً.. أي الذين يتخذون سلوكاً واحداً لا يتغير في كل الظروف يضحكوننا لأنهم اتخذوا سلوكاً «آلياً» يدل على عجزهم عن التكيف، وعلى سوء تقديرهم: شارلي شابلن ونجيب الريحاني وعادل إمام. فشارلي شابلن هو إنسان صغير ضعيف مغلوب على أمره دائماً يحاول ولكن الهزيمة له في النهاية، وإذا نجا من الكارثة فهي الصدفة. ولكنه اتخذ ملامح واحدة. ووجهه كأنه قناع ثابت التصق بجلده.. وكذلك نجيب الريحاني، فهو أيضاً الإنسان المسحوق المضروب الذي لم نره يضحك قط وهذا يجعلنا نضحك.. فهو قد اتخاذ قناعاً واحداً، أو مجموعة من الصفات الثابتة على وجهه ووضع إطاراً حديدياً لسلوكه الاجتماعي. ولذلك نقول: إنه حكيم.. لأنه جعل من نفسه أعلى من الأحداث.. كأنه كان في استطاعته أن يقاوم، ولكنه لم يشاً. والحقيقة أنه عاجز عن ذلك، لأنه تجمد على وضع، هذا الوضع هو الذي يضحكنا.. والممثل عادل إمام هو ذلك الإنسان «القابل للكسر»، فهو هزيل ضعيف وهو يدخل في المواقف الصعبة، وكأنه قادر على كل شيء.. ونضحك لذلك فهو سيء التقدير، وهو حسن الظن بنفسه وبالناس. وما يلقاه من ضرب وهو ان دليل على أنه غير قادر على أن يواجه الظروف، ولا أن يقاومها.. وحتى عندما نراه يضرب ويقتل فإننا نرى في ذلك مبالغة سينائية، لا نصدقها.. ولكننا نضحك أيضاً، لأن المخرج بالغ في قوته وبالغ في ضعف الآخرين - أكذوبة مزدوجة!

والذين لا يكذبون هم : الموتى والأطفال والحيوانات والبدائيون.
ولكننا ، كلما تقدمنا تعلمنا كيف نخفي مشاعرنا ، وكيف نزيف الأقنعة.
فنحن لم نعد في حاجة إلى أن نضع الأقنعة على وجوهنا . فوجوهنا
مدربة على أن تفرزها . وإن تكون صناعة الأقنعة فنا عظيماً هو : «الكذب
الفني» و «الكذب الأبيض» و «الكذب البريء» - وكله كذب !

الدم والعرق والدموع وسوائل أخرى

الناس يروننا ونحن نضحك وعندما نبكي لا يحبون ذلك! الصابون ينطف الجسم ، والدموع تظل في النفس .

في جانب من الجنة يجلس أكثر الناس بكاء ، فقد عجزوا عن فعل أي شيء آخر!

هذا الخبر يجف أسرع من الدموع!

نحن نفرغ عذابنا من غيوبتنا!

الأرملة التي تبكي كثيراً تتزوج أسرع ، فأنسب وقت لشتل الأشجار عندما تنظر النساء!

من انحدار دموع المرأة تتولد أقوى طاقة في التاريخ!

في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية قال تشرشل في مجلس العلوم عبارته التاريخية : ليس لدينا ما نقدمه سوى الدم والعرق والدموع!

أمسكت دمعة واحدة وقلبتها وقرأت عليها هذه العبارة:
العقبيرية : ١٪ أرق و ٩٩٪ عرق.

وكل هذه السوائل التي تتدفق في الجسم الإنساني، وخارجه، ولا أحد يعرف بالضبط من أين تبدأ، لها معنى خاص عند كل الشعوب في كل العصور..

وقد علمنا ونحن صغارة لا نبكي «فالدموع» للنساء فقط، وهي غلطة تربوية، فلا عيب أن يبكي الرجال. ولذلك استطاعت المرأة أن تريح أعصابها أولاً بأول، بينما يظل الرجل يكتب ويضغط ويتحكم في أعصابه حتى يتفجر الدم في رأسه وحتى تنسد شرايين قلبه. ولو تعلم الرجال أن يبكون الفرجوا عن أنفسهم أولاً بأول. وفي الحضارة الأوروبية يعيبون على الرجل إذا بكى ويشجعون المرأة على أن تبكي وأن تذوب ويسجدون متعة في النظر إلى ذلك. وكان شعراء الجاهلية والرومانية العربية أكثر الناس بكاء، ولذلك لم يعرف مجانون ليل المرض إلا عندما امتنع عن الطعام فقط. أما سنوات البكاء فقد كان في صحة وعافية يرتاد الصحراء وينام في العراء ولا يصاب بزكام أو سعال.

أما شعراء «الطربوبيادون» في إسبانيا فلم يعرفوا البكاء. فقد كانوا يرون في ذلك عيباً وعاراً على الرجل أن يتوجع وأن يقول آه.. وإنما يجب أن يعرف شيئاً واحداً: أن يموت فداء للمحبوبة التي تركته تحت البلacone يوموت من البرد، بينما هي نامت وساحت غطاء ثقيلاً تحلم برجل آخر!

وعند الهندوس يحرمون على المرأة أن تبكي أثناء مرضها الشهري، فهم يخشون من دموعها على المولود الذي لم يأتي بعد!

وعند الهندوس أيضاً يجعلون العروس تعمل بعض الوقت في بيت حماتها امتحاناً لقدرتها على حبس دموعها أطول فترة ممكنة. وفي ذلك

دليل على الصبر على المكاره، واحتلال القرف - حماتها وزوجها وأولادها
بعد ذلك!

أما قبائل «الأندامان» في المحيط الهادئ فالدموع ممنوعة عند الفرح أو عند الحزن. والرجل الشجاع والمرأة الجريئة مثلها الأعلى: الصخور فالوجه يجب أن يكون جامداً جافاً لا يدل على شيء - حتى لا يعرف العدو أسرار القبيلة.

وعند قبائل الأزتك وفي أحد أعيادهم يذبحون الأطفال من أجل أن ترضي عنهم الآلهة. وكلما صرخت وبكت، كان ذلك مما يسعد الآلهة.. وكلما قامت الأمهات بذبح أطفالهن دون أن ي يكن، كان ذلك مما يسعد الأزواج ويجعل الواحد منهم يتلقى التهنئة على شجاعته زوجته!

وعند الفراعنة كانوا يأتون بالفتاة الصغيرة ويهملونها ويلقون بها في النيل الشاب فيفيض النيل فرحة بهذه العروس، أي أن النيل يشكراها ويتنفس لها بفيض من الماء. ولم يقل لنا الفراعنة شيئاً عن شعور هذه الفتاة، هل كانت تخاف؟ هل تبكي؟ هل يبكي أهلها؟ هل كانت لا تبكي؟ هل كان يقال لها إنها تموت شهيدة من أجل مصر، وإنها كل الشهداء سوف تستأنف حياة أسعد بعد ذلك؟

أما في حضارة «الأنكس» الأمريكية فإن الآلة التي وجدناها على الجدران ومقاييسها المبعثرة في المكسيك وفي جزر المحيط الهادئ كانت لر، وس ضخمة، وعيون واسعة، ومن الغريب أن في كل هذه العيون دموعاً. لماذا لا نعرف، ولكن لا بد أن هذه الدموع دليل على القوة - فتحن أمام عدد من الآلهة.

والفيلسوف الألماني كانت له نظرية في بكاء الطفل . فهو يرى أن الأطفال كانوا ي يكون أول الأمر ، فكانت الوحش تهجم عليهم وتفترسهم . ومضت مئات السنين كان الآباء يحرصون على منع الأطفال من البكاء ، حتى اعتاد الطفل ألا يبكي فلا تسمعه الوحش ، ولذلك عاش وعاشت الإنسانية . . ولكن عاد الطفل إلى البكاء عندما لم يكن هناك خوف على حياته ، فلا كهوف ولا وحوش . فبكاء الطفل دليل على شعور والديه بالأمان .

والطبيب النفسي يطلب إلى المريض أن يبكي ويبيكي : ففي ذلك راحة له . بل إن بعض مدارس اليوغا - وهي مدارس الرياضة النفسية عن طريق التحكم في حركات الجسم - تتصحّ بـأن يبكي الإنسان كلما استطاع ذلك . . وسوف يكون بعد البكاء أحسن حالاً . .

لا تخجل جرب ذلك !

* * *

أما «العرق» فهو نتيجة المجهود الذي تبذله ، أو هو من مظاهر الضعف ، ولكن من معاني العرق : أن صاحبه يعمل ويتعب . فهو عامل شريف . ولذلك كان العرق من صفات الشرفاء . .

وإعلانات التليفزيون تتحدث عن مزيارات العرق ذات رائحة الورد والليمون والياسمين . . وإعلانات أخرى عن الصابون وعن العطور وكلها دليل على أن هناك من يعرق ، وإن رائحة العرق غير مستحبة . .

وقد ظهرت الحمامات في الحضارات القديمة كلها. وجعلت للحمام معنى خاصاً. ويكون الماء ساخناً. ويكون معطراً. وتكون الإقامة فيه ساعة وأحياناً أياماً.. و «حمام الثلاثاء» المشهور في تاريخ القاهرة من مئات السنين له طقوس وله تقاليد. حمام الرجال وحمام السيدات. وهو من مظاهر النعمة والثراء أيضاً.

وعندما نقلت القبائل البدائية من شمال أستراليا إلى بعض المدن الحديثة. طالب شيوخ القبائل بشيء واحد: حمام بخار. وكان من عاداتهم أن يقضوا أياماً طويلة في هذا الحمام يأكلون ويشربون وينامون أيضاً. وبعد ذلك يشعرون بالراحة والسعادة وعدم الرغبة في الزواج. ولذلك انقرضت هذه القبائل. فكان هذا الحمام يرهق أجسادهم، ويقطع أنفاسهم، ويسد شهيتم تماماً لا خبر ولا جنس!

«والدم» الذي سيل من الجسم الإنساني، مرضًا أو على أثر إصابة قتال أو حرب.. هو أقوى السوائل، وأغزرها دلالة على الحب والكره والموت والانتقام والنجاسة والقداسة.

فححن نقول: فلان شرب من دم فلان.. أي إنه انتقم منه، ولم يكتف بذلك بل حاول أن يتلعله، ولكنه اكتفى بأن شرب بعضاً من دمه! ولكن «شرب الدم» هذا له معنى آخر عند كثير من القبائل البدائية في كل القرارات الخمس، معناه أن هناك تحالفًا دموياً بين اثنين من الناس أو بين قبيلتين أو عائلتين فدم هذا يجري في عروق ذاك.

وهناك الكتابة بالدم. ولا تزال مستخدمة حتى اليوم. فأصحاب الشكاوى يبعثون للحاكم بعرائض مكتوبة بالدم أي إنهم لا يستخدمون

الخبر، وإنما الدم دليلاً على عمق مشاعرهم. وتكون هذه العرائض عادة للشكك أو الامتنان أو التأمين..

وبعض قبائل الماساي في كينيا، عندما يجيء إليهم ضيف فإنهم ينذرون دمًا فرحاً بقدومه. فيجيء شيخ القبيلة ويمسك سكيناً ويقطع شرياناً في ذراعه أو ساقه.. أو يمر بالسكين على عنق واحد من أطفاله - بعض القبائل تفضل أن تذبح الزوجات. أكبر الزوجات سنا، وهذه حيلة لكي يتزوج شيخ القبيلة فتاة صغيرة تلد له أطفالاً بعد أن توقفت زوجته القدية عن الإنجاب !

وعند العرب في الجاهلية كانوا يذبحون أطفالهم، إكراماً للضيف. وكان الرجل يذبح كل ما لديه من إبل وأغنام، ويقدم زوجته للضيف أيضاً. وعند قبائل الأسكيمو لا يكاد يجيء الضيف حتى يترك صاحب البيت زوجته وأولاده وقد ينام في العراء وقد يخرج ولا يعود بحثاً عن دب أو ثعلب أو ذئب أو غزال يقدمه للضيف.. وقد يذبح زوجته.

ولابد أن الإنسان كان يجد منظر الدم بشعاً، ولذلك حرص على أن يوقف التزييف. ولذلك عاشت الإنسانية..

ومن الغريب: أن نخاف من منظر الدم مع أنه يجري في عروقنا.

أما أظهر السوائل في جسم الإنسان. فهو: اللبن.. لبن صدر الأم.. أكثر السوائل بياضاً وهو مصدر الحياة للطفل.. وهو الرابطة القوية بين الإثنين.. ومن هذا اللبن، وبسيبه، امتدت الحياة، وبسبب اللبن والرضاعة تحدد النسل أيضاً.. فأثناء رضاعة الطفل لا تحمل الأم.. والإنسان هو صاحب أطول فترة طفولة بين كل الحيوانات..

وفي العصور القديمة بقي الطفل يرضع عشر سنوات وأحياناً عشرين سنة .. وأحياناً لا يكف عن الرضاعة حتى يتزوج . إن المؤرخ هيرودوت يقول لنا إنه وجد في مصر طفلاً يجلس على حجر أمه ويرضع وأدهشه أنه وجد هذا الذي يرضع شاباً!

وكان لبن الأم مانعاً من زواج الإخوة .. فالذين يرضعون من ثدي واحد لا يتزوجون .. وكذلك الذين يولدون من رحم واحد - دم واحد - لا يتزوجون .

وقد أدت الحياة الحديثة ، واحتياج المرأة وضرورة أن تتحرك بسرعة ، وأن تكون لذلك رشيقه تقفز من المترو لتركب الأتوبيس ويكون من السهل عليها أن تشتري الملابس الجاهزة ، كل ذلك جعلها لا ترضع طفلها حتى لا يترهل صدرها .. وإنما راحت تقدم له اللبن الصناعي أو تتركه للخادمة . ولذلك فأبناء العصر الحديث ، هم أبناء الأمهات المستعارات ، والحنان المزيف ، واللبن الصناعي - فهم يتامى ، فليس اليتيم من مات أبوه وأمه ، وإنما هو الذي يعيش كما لو كان ميت الأب والأم . والخدامة هي «بدل فاقد» . والضحية: الطفل . فقد ثبت علمياً أن لبن الأم يعطي للطفل مناعة ضد كثير من الأمراض . أما حنان الأم وحضن الأم ، فهما «كيمياء» سحرية لا يمكن تعويضها .

والطفل اليتيم هو يتييم الأم ، وليس الأب - أي الذي حر من لبن الأم وصدر الأم وحنان الأم .

وعندما ظهر «ألفيس برسلي» بمسيقاه الروك - أند - رول - والتف حوله مئات الملايين من الشباب والأطفال . وحار العلماء في تفسير ذلك .

ولكن تفسيراً واحداً كان سيد هذه التفسيرات: إن هؤلاء الشباب جيئاً يت ami فقد حرموا وهم أطفال من سماع دقات قلب الأم. فالجذين وهو في بطن أمه ينام على دقات قلب أمها. وعندما يخرج من بطنهما، ينام على دقات القلب أيضاً.. وكل موسيقى قريبة من هذه الدقات فإنها تجعله ينام.. ودقات الروك - آند - رول هي عودة بهؤلاء المحرمون إلى دقات قلب الأم. فكانوا يرقصون ويتساقطون وينامون على هذه الطبول - كيف؟

إن هذه الطبول ليست إلا ملايين من قلوب الأمهات احتشدت في مكان واحد!

* * *

«والبول» - وهي كلمة لا نستخدمها عادة إلا إذا أدت الضرورة إلى ذلك. ولكن كيف تتحدث عن خطورة ذلك. دون ذكر لهذا الاسم.

وعندما خرجت السفينة رع ٢ من ميناء صافى المغربية متوجهة إلى أمريكا، لكي يثبت الرحالة النرويجي تور هايرداال أن الفراعنة اكتشفوا أمريكا مستخدمين سفناً من أوراق البردي، أصبح البحارة جيئاً بتسللخات شديدة بسبب ملوحة ماء البحر وأشعة الشمس وكان معهم طبيب روسي وأشار الطبيب بأن الخل الوحيد هو أن يتبولوا جيئاً بعضهم على بعض!

وكان ذلك علاجاً شافياً.

وعند ظهر رئيس وزراء الهند موراجي دساي في برنامج تليفزيوني اسمه «ستون دقيقة» وتفرج عليه الملايين. ولم يكدر ينتهي البرنامج حتى

دقّت ألوف التليفونات في مكتب وبيت صاحب البرنامج يلعنونه ويشتمونه. أما رد صاحب البرنامج فكان: كيف أمنع رئيس وزراء من أن يقول إنه يشرب كوبًا من البول كل صباح.

وفي البلاد التي تقدس الحيوانات كالأبقار والجحوميس والقردة، يقدسون بول هذه الحيوانات ويغسلون به وجوههم وملابسهم، ويضعون الروث في شعورهم أيضًا.

أما «اللعل» فقد تعرض لخلافات كثيرة بين القبائل والشعوب والعلماء أيضًا فنحن نعلم الطفل أن ينفخ في لعابه. لأنه لم يعد صغيراً ولذلك كان حريصاً على أن يطبق شفتيه، وإن كان كبيراً أن يخرج منديله وينفخ ذلك. ونصف الذي ما يزال طفلاً عبيطاً بأنه «أبو ريلا».

وحيث يكثر استخدام الأشياء التي تسيل اللعاب، نجد البصق على الأرض ليس ممنوعاً ففي الهند وباسكستان بسبب استخدام نوع من اللبان والأعشاب الدموية اللون بعد الطعام، نجد الناس يقصقون في الشوارع.. وكذلك الشعوب التي تتعاطى نبات «القات» وتكونه وتكرره في جانب من الفم ثم تستحلبه، يقصقونه على الأرض.

ويكون بصق اللعاب إهانة إذا فعلنا ذلك، أو إذا قلنا إننا سوف نفعل، وإن كانت بعض قبائل تنزانيا ترى في البصق على وجه الضيف، أعظم تحية له.

فإذا جاء الضيف اصطف الناس تحية له. وانهالوا عليه.

وعلى الرغم من المحاولات اليائسة لكل الأطباء في كل العصور

بخطورة القبلات ، فإن أحداً لن يتوقف عن ذلك ، بل إن بعض العلماء أثبت أن اللعب عند التقبيل يكون قاتلاً للمicroبات .. وإلا كيف تؤدي هذه القبلات إلى الراحة النفسية وإلى السعادة العاطفية وإلى شفاء كثير من الأوجاع الجسمية والنفسية؟

وعالم النفس فرويد الذي أجريت له عشرون عملية في شفتيه بسبب الإصبابات بالسرطان كان يقول : قبلة واحدة وبعدها أموت .. ولكن من التي ترضى بذلك؟

ويمدحنا الشيخ رفاعة الطهطاوي أن الباخرة عندما توقفت في مرسيليا أدهشه جداً أن الفرنسيين لا يأكلون من طبق واحد .. كل واحد له طبق ولعلقة وشوكة وسكينة . وأغرب من ذلك أنهم لا يشربون من كوب واحد.

أي إنهم يتحاشون التقاء اللعب باللعلاب ، بينما نحن في مصر لا نجد في ذلك حرجاً ولا ضرراً.

وعندما كان أحد عرابي باشاً في منفاه في جزيرة سيلان «سري لانكا» لاحظ أن بعض الأمهات في مدينة شاندي يشربن أولًا ثم ينقلن الماء إلى أفواه الأطفال تماماً كما تفعل بعض الطيور .. وأدهشه أكثر أن العروس تفعل ذلك مع عريسها .. وفي ذلك اليوم لم ينس . وسألته إحدى زوجاته : ماذا جرى لك . إنك تبصق على الأرض طول الوقت؟

وبعض «الرافعية» في الريف المصري أي الذين لا يلدغهم الشعban ، وإذا لدغهم فإنه لا يكون قاتلاً ، يبصقون في الماء ويطلبون من الناس أن يشربوا فإذا فعلوا ، فلن يضرهم الشعban - وهذه حقيقة معروفة .

وعند الفراعنة إن الملك توت قد بصر في عيني حورس إله الشمس
فأبصر.. وفي إنجيل مرقس (الإصحاح الثامن والأيات من ٢٣ إلى ٢٥)
نجد أن السيد المسيح عليه السلام قد «تغل» في عيني رجل أعمى
فأبصر..

والكهنة البوذيون يصقون في أفواه الأطفال لتحصل لهم البركة،
ويتكبروا ويتناسلوا ويتکاثروا..

وفي اليابان وتايلاند نجد الكهنة يعالجون المرضى بأن يقدّفوا الماء من
أفواههم على وجوه الآخرين.

وعندما ظهرت الممثلة المعروفة هيدي لامار في أحد الأفلام الهندية
خطفها شيخ القبيلة وقدّمها عارية تماماً لشباب القبيلة متباهياً بقدرته على
الصيد. كان لابد أن يحييها الجميع بالبصق في وجهها. رفضت الممثلة
الأمريكية النمساوية الأصل إلا إذا كانت أفواههم قد امتلأت بالعطر
الذي تحبه..

وقد أعيد هذا المشهد عشرين مرة.. فاستهلقت بذلك عشرين لترًا
من عطر «الشنشيلا».

التاريخ شعر طويل وقصير لماذا؟!

من ثلاثة قرناً في مدينة غزة، نهضت سيدة من فراشها تبكي وتتجه إلى الله. فظهر لها أحد الملائكة قائلاً: استجاب الله لدعائك، وسوف يهلك طفلاً جيلاً قوياً بشرط ألا تشرب الخمر، وألا تلقي شعر رأسه مدى الحياة، وولد الطفل وأصبح رجلاً قوياً طويلاً عريضاً جداً. إذا غضب كان صوت حنجرته مثل أحجام الكنائس، وإذا سعل اهتزت البيوت، وإذا غضب أمسك بيده اليمنى جيلاً وباليسرى جيلاً وضرب الواحد بالآخر. كما نفعل بالبيض، فإذا هي عاصفة ملية.

وحاول أعداؤه أن يعرفوا مصدر هذه القوة. وكان يقتل المئات والألاف من أعدائه. ولما حاصروه أطلق عليهم مئات الشعالب التي أشعل فيها النار وتركها تحرق كل حقول القمح. هذا الرجل اسمه شمشون - أو ابن الشمس - وتزوج «دليلة» التي حاولت أن تعرف مصدر قوته.. وجعلته يشرب ويشرب فتال إن قوته في شعره.. وجاء أعداؤه وحلقوا رأسه ثم قادوه مربوطاً بالحبال بعد أن فقاوا عينيه. وفي إحدى الليالي طال شعره فجأة. واستعاد قوته وهدم عليهم المعبد وقتلهم.

وظهرت هذه الأسطورة في مئات الأعمال الموسيقية والمسرحية. ورأى

فيها كل فنان صورة للقوة الخارقة تخل في الإنسان. ورأوا فيها أيضاً صورة القوة الغاشمة، التي لا فائدة منها لأحد.. فيما قيمة أن يحيط إنسان الجبال ويهدى المعابد ويخلع ببوابات المدن وينقلها بعيداً عشرات الأميال؟

الموسيقار هايدن جعل منها أوبرا..

والفيلسوف فلولتير كتب أوبرا من خمسة فصول، لم تظهر على المسرح. بل إن المسرح قد سقط بأحد أبطاله فانكسرت ساقه. وقيل إنها لعنة شمشون الجبار..

وأجمل الأفلام التي ظهرت في الأربعينيات هو «شمشون ودليلة» قام بدور شمشون الممثل الضخم «ماتيور كنج» وبدور دليلة «هيدي لاما» بأنفها الدقيق وشعرها الأسود المجعد وكانت تجلس له على أسطح البيوت تأكل التفاح، وتلقى عليه بالقشر، لينظر إلى حيث تعرت صدرأ وساقاً ثم تصفع عسل النحل على شفتيها وكتفيها، فيجيء النحل يضيف عسلاً إلى هذا العسل!

وفي حضارات قديمة وقبائل بدائية منعزلة تماماً، كانوا ينظرون إلى الشعر الطويل على أنه جمال وقوة. والجمال قوة.

فقد عثرت بعثة أمريكية في حوض نهر الأمازون على قبيلة شعرها طويلا يصل إلى الكتفين عند الرجال وإلى الخصر عند النساء. ولهن أغنية جماعية يستقبلون بها الضيوف تقول: أعطوني قليلاً من شعرك!

وليس بين هذه القبيلة والتوراة التي جاءت بها قصة شمشون أية صلة.. وحتى السيد المسيح عليه السلام، تظهر صوره الخيالية وله شعر

طويل. لقد كان هذا الشعر من علامات الرجلة والزهد في الحياة..
وكذلك فعل كثير من الرهبان والمخاخمات أطالوا شعر الرأس واللحية،
أو أطالوا اللحية فقط .

والرومانيون عندما دخلوا أرض فلسطين ، كانوا يقطعون رقاب اليهود،
ويحملون جاجهم ذات الشعر الطويل الأسود إلى روما.

وفي كثير من القبائل البدائية في وسط أفريقيا يطيلون شعورهم في
الحرب ، ويحلقوها في السلام . أو إذا قامت حرب فإنهم يجمعون الشعور
ويشدونها إلى الوراء . فإذا انتهت الحرب ، نكشوا الشعر وتركوه في كل
اتجاه . فربط الشعر وتكتيفه قوة ، وفي إطلاقه نوع من الاسترخاء ..

وعندما ذهب الهولنديون إلى أندونيسيا ، أدخلوا رياضة سباق
الخيول . وكان الهولنديون يجدون شعر الخيول مسروقاً في الليل . فقد
كانت قبيلة «الأوراجي» الشهيرة تخطف شعر الخيل أملأً في أن يطيل شعر
الرجال الصليع ، وأملأً في أن تكون لهم قوة هذه الخيول !

وقد عثرت السيدة مرجريت ميد أستاذة الدراسات البشرية في جزيرة
فيجي بالمحيط الهادئ ، على نقوش قديمة تدل على أن ساحر القبيلة كان
يستخدم «الشعرة الطويلة» في قتل الأعداء . . كان يبحث عن صاحبة
أطول ضفائر في الجزيرة . وينزع منها شعرة واحدة . هذه الشعرة يقيم لها
طقوساً من الطبول والنيران في الليالي القمرية . ثم يأخذ هذه الشعرة
ويلقي بها بالقرب من معسكر الأعداء لعلها تقضي عليهم !

ولا يزال شيء من ذلك مستخدماً في العصر الحديث . ففي الشرق
الأوسط يلجن الساحر إلى قراءة التعاوين حول شعرة أو خصلة مأخوذة من

رأس شخص لا نحبه. ولذلك نريد أن نلحق به أذى بالغاً حين تحل به لعنة الشياطين - وهذا ما نسميه «بالعمل» - أي بالعمل الشرير ضد شخص نكرهه!

ومن عادات كثيرة من الشعوب الحديثة أيضاً أن تحفظ بخصلة شعر لشخص عزيز عليها.. فالإمبراطور نابليون عندما تناه الإنجليز عن جزيرة سانت هيلانة بالحيط الأطلسي بقي هناك حتى مات. ومن تحليل خصلة الشعر هذه، عرفنا أنه مات مسماً. فقد كان الطبيب الإنجلزي يضع له الزرنيخ في طعامه يوماً بعد يوم..

وحين لا يكون الشعر كثيفاً عند الرجال فإنهم يضعون شرعاً مستعاراً: الملك والقاضي والقائد. وعندما انتشرت الحشرات في الشعر، حلق الرجال ره وسهم تماماً. وأصبح من الضروري أن يستخدموا الباروكة التي يضعون فيها البوترة والعطور..

وكانت الملكة حتشبسوت أول امرأة استخدمت الباروكة فكان شعرها مستعاراً ولحيتها أيضاً. وكانت تضع في هذه اللحية لمسات أنوثية، وذلك بأن تلفها بخيوط من الذهب والخرز معاً. فعل الرغم من أن الشعر يعطيها هذا الشكل المهيء، فهي لا تريد أن تكون رجلاً مخيفاً، وإنما أن تكون مخيفة وأنثية أيضاً - أي أنثى قوية..

وفي الجيوش والكتائب لا بد من الانضباط. ومن مظاهر الانضباط توحيد الزي والمظهر. فيكون الشعر قصيراً. وقد لوحظ في أعقاب الحروب عدم التشدد في ذلك. كنوع من التخفف أو الاسترخاء أو اليأس - وقد لوحظ أن الجنود في مصر بعد النكسة العسكرية سنة ١٩٦٧

قد أطالوا شعورهم عدة سنتيمترات مما يعتبر إخلالاً شديداً بالضبط والربط. ولكن لأن الضبط والربط يسفر عن نصر عسكري ، فقد كان الخروج عليه نوعاً من الانتقام!

وقد لوحظ أيضاً أن الشعوب التي تسكن على ضفاف الأنهار، وتحمل نساؤها أواني لنقل الماء ، تطيل شعرها ، ليستقر الإناء على الشعر المرفوع إلى أعلى أو الشعر المعقوص فوق الرأس - فلاحات مصر كذلك.

ومن مظاهر الحزن عند كثير من الشعوب القديمة أن يحلق الرجال والنساء شعورهم . بينما في العصر الحديث يكون ترك اللحية أو إطالتها، دليلاً على الحزن - أي أن الشخص الحزين لم تعد لديه رغبة في أن يبدو نظيفاً أو أنيقاً بعد وفاة إنسان عزيز عليه ، فقد تغيرت الدنيا ، ولم تعد تساوي شيئاً .. أن يهتم بها أحد ..

وفي الخمسينات ظهرت في أوروبا جماعات «الخنافس» - وهم الشبان الذين أطالوا شعورهم مع أن الخنافس حشرات ليس لها شعر إطلاقاً.

ولكن ظهرت هذه الكلمة ترجمة خاطئة لكلمة إنجلizerie ليس لها هذا المعنى وجاءت دليلاً على احتقارنا لـأطالة الشعر ، حين يبدو الشباب غير مهم بظهوره . وانتشرت فرقة الخنافس الموسيقية والغنائية وكان نجاحها عظيماً . وكان ذلك ترداً على أمريكا التي سيطرت على الغناء والرقص في العالم . فكان الشبان الفلاحون الإنجليز أول تمرد غنائي ضد الاحتكارات الأمريكية لكل أشكال الغناء . ثم انتقل هؤلاء الشبان إلى أمريكا واكتسحوها أيضاً.

وطالت شعور الرجال إعجاباً بالختافس ولا تزال. أما الفتيات فقد قصرن شعورهن تماماً، كما كان يفعل الشبان من قبل. ولنفس السبب: الاحتجاج والتمرد على العادات والتقاليد والاشكال المألوفة لشعر الرجل وشعر المرأة. وقصرت أكمام القمصان عند الأولاد، وقصر ذيل الفستان عند الفتيات.. وتعلقت السلاسل في أعنق الأولاد.. وتعلقت السلاسل في خصور الفتيات.. ورسم الفتيات شوارب من الكحل، ووضع الشبان أحمر الشفاه مع الأقراط والأساور.. وصبغت الفتيات شعورهن أحمر وأصفر وأزرق وكذلك الوجه.. ثم التقى البنات والبنون في زي موحد، فارتدى الشبان الفساتين، وارتدىت الفتيات البنطلونات.. وتبادل الجنسان نفس الزي ونفس الأكسسوارات - وكان ذلك استمراً في الغضب والسخط على جمود التقاليد الاجتماعية..

وظهر في الأدب الإنجليزي اتجاه من الأدباء والشعراء أطلقوا على أنفسهم: الأدباء الساخطين.. أو بين الأدباء الغاضبين وقد اخذوا لأنفسهم شعاراً: انظر وراءك في غضب..

وفي أمريكا ظهر الأدباء الصاخبون - أي الذين يدقون الأبواب بعنف.. أو يتركونها وراءهم بعنف.. والذين يفضلون الحياة بعنف، على اتباع النظام والسير في الطابور والوقوف على الخط أمام علامات المرور وفي الخدمة العسكرية والتمرد على أن يكون للإنسان رقم أو نمرة أو أن يكون عضواً في إحدى النقابات أو أحد الأندية.. وأن تكون له بطاقة هوية.. وأن يكون زواجه شرعاً ودينياً.. وأن يكون في حضن أبيه حتى الموت.. وبدلأً من الحياة في المدن، عاشوا عند أطرافها،

وبدلًا من الحياة في ضوء النهار، ناموا نهاراً، وسهروا الليل، واختاروا
الحظائر بيوتاً، والروائح الكريهة عطراً يومياً. فلا يستحمون ولا يغيرون
ملابسهم، ولا يشربون ماء بلا لون ولا طعم ولا رائحة، وإنما يختارون
أرداً أنواع الخمور والخسيش، حتى الموت موتهم جيئاً، وموت آبائهم
نفسياً، وموت المجتمع حضارياً!

وفي إحدى القبائل «البنياك» في نيوزيلندا عشر العلماء على طقوس
غريبة في إطالة وتقصير الشعر. فالشعر عند أفراد القبيلة يجب أن يكون في
طول شعر شيخ القبيلة. والزائر لا يعرف ذلك. وإنما عندما يقترب من
بيت شيخ القبيلة، يظهر رجل معه مقص طويل .. فإذا كان شعر
الضيف أطول من شعر شيخ القبيلة قص الشعرات الزائدة.

وعندما جرح شيخ القبيلة في إحدى المعارك ولم يعد الشعر ينبع في
الجانب الأيسر من رأسه، حلق أفراد القبيلة الجانب الأيسر من الرأس.
وكذلك الضيوف والعلماء والسياح الذين يزورون هذه القبيلة. ثم
يجيء حامل المقص ويعمل على تقصير أكمام البدل وذيل البنطلون -
احتراماً لشيخ القبيلة. وهي حكمة بلغة عميقة!

أما رجال الدين فقد أطلقوا الشعر ثم عادوا فقصوه.. . وعندما
دخلت المسيحية بلاد التيوتون والكلت وهي قبائل تطيل شعر اللحية
والشارب حلق المسيحيون والرهبان شعورهم - تماماً كرهبان وكهنة
الفراعنة والسوبريين والبوذيين .

والمرأة اليهودية القديمة كانت تخلق رأسها تماماً، مثل الراهبات

المسيحيات ومعنى ذلك أنها لا ت يريد أن تكون جحيلة فتلتفت إليها العيون، وهي زاهدة في الجمال وفي الذين يبحثون عنه.

والمتدينات المحجبات ، لا يخلقن شعورهن وإنما يخفين شعورهن -
كأنهن بلا شعر أسود أو أصفر، طويل أو قصير ..

وكان الصينيون واليابانيون إذا دخلوا الحرب حلقوا شعورهم ، حتى لا يتمكن منهم العدو فيربط شعورهم بالمحب واليبرهم وراء القوات المنتصرة.. أو حتى لا يخلق شعورهم إذلاً لهم . وكذلك كانت تفعل القوات الإغريقية في زحفها وراء الإسكندر الأكبر إلى مجاهل آسيا..

وديانة المسيح الهندية تختتم أن يظل شعر الإنسان سليماً لا يسقط منه شعرة واحدة حتى الموت . ولذلك فالرجال يلفون لحاهم بشبكة ويضعون مشطاً صغيراً على جانب من الوجه .. وتعس أبناء المسيح : الأصلع .. لا يظهر للناس نهاراً أو ينتحر فلم يشا الله أن يجعله إنساناً كامل الرجولة !

وقد احتاج المؤرخون الألمان إلى جهود ضخمة لكي يفسروا للشعب الألماني كيف أن شعر هتلر ناعم هكذا ويتهلل على جبهته ثم على جانبي الوجه .. ونشروا صوراً لنابليون الذي كان أصلع فيها عدا خصلة خفيفة تتدلى على جبهته العريضة المهيبة فليس مألوفاً أن يكون للجندي الألماني شعر ناعم كالحرير .. بل لابد أن يكون حليقاً تماماً وإذا ظهر له شعر، فليكن ذلك كثيفاً متساماً .. أما أن يتطاير هذا الشعر ويتدل على جبهة «الزعيم» فذلك شيء غير مألوف .. ولكن مع فصاحة هتلر وعظمة المانيا العسكرية وانتصاراتها السياسية الساحقة ، لم يعد أحد يرى هتلر إلا

زعياً أو نصف إله، أو مبعث العناية الإلهية وما دامت النساء قد اختارته هكذا لإنقاذ الشعوب الجرمانية فهذه هي بعض علامات العبرية أن يكون شعره من أي لون ومن أي حجم وعلى أي نحو!

وهناك نظرية في الأنقة والموضة تقول: كلما زاد التغيير والتبدل استقرت الخطوط أكثر. وتفسير هذه العبارة: إن الخالقين ومصممي الأزياء مهما غيروا في خطوط الموضة، فهذا التغيير محدود.. لأنه عادة يتناول خطوط الرقبة والوسط والذيل والأكمام.. طالعة نازلة، ضيقة واسعة.. ولذلك فالتغيير المستمر، يجعل الموضات ترجع إلى ما كانت عليه قبل ذلك. فنجد موضات العشرينات ونحن في السبعينيات، وموضات الثلاثينيات وننحن في السبعينيات وموضات الأربعينيات وننحن في الثمانينيات وهكذا.. ولذلك وننحن نتفرج على الأفلام القديمة نلاحظ أن خطوط الموضة شبيهة بالموضات الحديثة وكذلك تسميات الشعر.

وقد اعتاد الأميركيان - مثلاً - على أن تكون شعور الرجال قصيرة ثم طالت، وشعور النساء طويلة، ثم قصرت.. وتناوب الرجال والنساء طول وحجم ولون وشكل الشعر، جيلاً بعد جيل.

فالمهاجرون الأوروبيون عندما وصلوا أمريكا كان شعرهم قصيراً جداً وأخجلهم ذلك فقد وجدوا الشعور الأمريكية طويلة في القرن السادس عشر. ولذلك بسرعة أطاح المهاجرون شعورهم حتى لا يكونوا أضحوكة الدول المضيفة.

وفي الخمسينات عندما ظهر على الشاشة الأمريكية «جيمس دين» الذي أصبح موضة عالمية بشعره القصير وحجمه الصغير. لقد كان

نمودجاً للإنسان المهزوم الضعيف الذي يثير شفقة كل الناس.. وبذلك أصبح الرجل الذي يثير الإعجاب والشفقة والحب أيضاً هو كل «جيمس دين» كل «عبد الحليم حافظ» كل «كلود فرنسو» ومات جيمس دين في حادث سيارة .. كما ماتت ابنتا الأديب الفرنسي أندريله مالرو ، وكما مات الفيلسوف الفرنسي «البير كامي» وكان جيمس دين قصیر الشعر مثل جون ترافولتا . الذي هو صورة جديدة للتمرد على موضة الخنافس في طول الشعر، وفي الغناء الرومانسي الهادئ .. لأنه يرقص أكثر، ويعني أقل .. وتحولت كل فرق الغناء العالمية الآن، إلى لوحات راقصة معظم الوقت ، تغنى بعض الوقت .. بينما كان الخنافس يغنوون كل الوقت ، ولا يرقصون إلا قليلاً ..

وعندما ظهر الممثل الأمريكي الروسي الأصل «بول بريز» أصلع تماماً انتشرت هذه الموضة . وحاول بعض الأطباء أن يؤكدوا أن الصلع الطبيعي من دلائل القوة والفحولة الجنسية ولكن لم يفضل الرجال أن يفعلوا ذلك وإن كانت بعض النساء قد سايرن هذه الموضة .. وظل الشعر تاجاً على رأس الرجال والنساء معاً . وظل الحلاق ، الذي تتحبني له كل الرقاب ، يرسم بالمقص والششور أشكالاً وأحجاماً وألواناً للشعر . وأكثر الرءوس طاعة له ، رعوس الفتيات الصغيرات .. أما الأمهات وأمهاتهن ، فلهن تسميات لا يخرجن عنها .. فيقال هذه تسمية ماما .. وهذه تسمية تيتا .. وهذه تسمية العروس .. وتسمية الحامل .. وعلى الرغم من أن الجلوس عند الحلاق ليس متعة طول الوقت ، لأنه يستخدم الحديد والنار في تطوير الشعر ، وكسر رقاب طالبات الدلال والجمال ، فسوف يبقى الحلاق هو الطاغية الذي يحكم المرأة التي تحكم الرجل لأنه

يعلقها من شعورها ساعات كل أسبوع دون أن تفتح فمها بكلمة واحدة، حتى معظم الحلاقين لا يتكلمون. كأنه لا يريد أن تكون بينه وبين رعاياه ما يدل على أنها علاقة إنسانية!

انتهى زمن الأمومة بدأ عصر الأنوثة !

الشاعر القديم الذي نظم هذين البيتين قد نفذ بجلده ، ولو كان حيا لاعدهم أصحاب مصانع مواد التجميل ولقطعوا جسمه مائة مليون قطعة بعد الجنيهات التي يكسبونها كل سنة . قال الشاعر يصف زوجته العجوز التي انكسر ظهرها وتلاشى اللحم من جنبيها :

عجز ترجى أن تكون فتية
وقد لحب الجنبان واحد ودب الظهر
تدس إلى العطار سلعة بيتها

وهل يصلح العطار ما أفسدته الدهر!
ثم جاء شاعر أكثر شجاعة منه فوصف عروسه وكيف أنها خدعته:

وما غرني إلا خضاب بكفها
وكحل بعينيها وأنواعها الصفر
وجاءوا بها قبل المحاق بليلة
فكان محاقاً كلـه ذلك الشهرا

ويقال إن عروسه راحت تصرخ وتلطم خديها حتى تجمعت

جاراتها ورحن يضربنه حتى مات - مع أنه لم يقل إلا الحقيقة. فالملاكياج «أكذوبة» قد اتفقنا عليها. فالمرأة تضع ما تشاء من الألوان، وترتدي ما تشاء من الفساتين والمايوهات، ونحن نعجب بذلك. وشركات التجميل ودور الأزياء تبيع لنا ونشتري. وقبل دور الأزياء كان العطار و«الدلالة» والساخر وشيخ القبيلة هم الذين يحولون العجوز إلى شابة والشابة إلى عروس والعروس إلى ساحرة للرجل الذي يحبها ويتزوجها وتأتي له بالأولاد.

* * *

ومنذ أيام صدر في إيطاليا كتاب بعنوان «انتهى عصر اللبن الطبيعي» للباحثة فرانكا دالبini وهو يستحق اهتماماً خاصاً، ولذلك يجب أن يكون له مكان في هذه السلسلة. وموضوع هذا الكتاب أن الرجل أصبح مجنوناً بصدر المرأة. وأن المرأة قد ساعدته على أن يظل كذلك. فهو يحب أن يرى صدر المرأة متوسط الحجم مستديراً مشدوداً.. «ولهذا السبب فإن المرأة لا ترضع أطفالها» - وهذه عبارة قصيرة جداً ولكن أثراها كان عميقاً في حياة المرأة، وفي حياة الأطفال والشبان والمجتمع بعد ذلك.

وفي الصفحة الأولى من الكتاب هذه العبارة لـإحدى ممثلات هوليوود: لو كان صدري أكبر قليلاً لحكمت العالم

ولا بد أنها تشير إلى كيف تسلطت ممثلات من مثل: جين رسل الأمريكية وجينا لولو بريجيدا الإيطالية على الشاشة بسبب أن لهن صدوراً ضخمة فخمة - ولم تترجع عيون الرجال عن صدر المرأة، إلا

عندما اخترعت مصممة أزياء إنجليزية في العشرين من عمرها اسمها «ماري كوان» موضة «الميني جيب» أي الفستان الذي يعلو الركبة بمسافة طويلة فاتجهت العيون إلى ساقي المرأة، ولم تتحرك عنها منذ ثلاثين عاماً. هل بقيت العيون عند ساقي المرأة لأن الرجال يفضلون ذلك، أو لأن المرأة أيضاً؟ أو لأن الرجال والنساء قد اتفقا على هذا اللقاء عند هذا المكان من جسم الفتيات الصغيرات بصفة خاصة.

تقول الباحثة الإيطالية : إن نظرة الرجل إلى صدر المرأة حديثة جداً - أي باعتباره عضواً جميلاً. وقبل ذلك كان الرجل يرى أن الأنوثة هي صدر ترضع به المرأة أطفالها. ولذلك تداورت الصدور وتضخت. وإذا عدنا إلى التماثيل القديمة في كل الحضارات - فيما عدا الحضارة الفرعونية - فإننا نجد تمثيل المرأة بغير ملامح . فالقدماء لا يصنعون تمثالاً لامرأة بالذات - ملكة أو نبيلة أو كاهنة - وإنما للمرأة عموماً . أي للأنوثة . ولذلك نجد أن الوجه ليست له ملامح ولا الجسم .. فقط صدر كبير «متهل» بما يدل على أن صاحبته ترضع أطفالاً كثيرين .. وهي ليست أما لأحد بالذات . وإنما هي «الأم» .. التي ترضع الأطفال .. أو الطفل .. أو التي تمد الحياة - فهي الأنوثة وهي الحياة أيضاً.

وفي سنة ١٩١٥ عندما ذهب الأثري البريطاني آرثر إيفانز مدير متحف أكسفورد إلى جزيرة كريت لاحظ أن المرأة تعلق في صدرها أحجاراً وعلى هذه الأحجار كلمات قديمة . ولما حاول أن يشتري بعض هذه الأحجار رفضت المرأة . واحتدى بعد ذلك إلى أن هذه الأحجار

تضعها المرأة لكي تدر اللبن. ولما اتجه إلى بلاد أخرى، وجد أنواعاً مماثلة من الأحجار. وهو يؤكد أن أحجار المغطيس التي استخدمها الفراعنة، كانت من بين هذه الأحجار التي تنشط «الغدد» اللبنية، من أجل أن يبقى الطفل حيا. أما إذا جف لبن الأم، مات الطفل. فلم تعرف القبائل البدائية نظام «المرضعة». فإذا ماتت الأم أثناء الولادة، دفنتها طفلها معها. فلا امرأة أخرى ترخص الطفل اليتيم.. ولذلك ظهرت في الحضارات القديمة أسطورة أن طفلاً مات أمه ، فأرضعته غزالة أو رضعته ذئبة .

وفي الفلسفة الإسلامية قصة «حي بن يقطان» للفيلسوف الأندلسي ابن طفيل وهي قصة الطفل الذي أرضعته غزالة، فعاش غزالاً بين الغزلان. ومن أربعين عاماً ظهر في صحراء الأردن وفي الهند أطفال أرضعتهم الغزلان والذئاب.. وظهرت أساطير أخرى بأن الجن أرضعوا طفلاً، حتى كبر فكان يجمع بين صفات الجن والإنسان. وهذه الأساطير تدل على رغبة الأمهات في أن يعيش الطفل بعد وفاة أمه. ولم تهتد هذه المجتمعات إلى حل هذه المشكلة، إلا بعد ظهور المرضعة وإلا بعد ظهور اللبن الصناعي. وفي قصة موسى عليه السلام أن أمه ألقته في النيل ، فسارت أخته تربقه من بعيد حتى عرفت مكانه. فلما التقته ابنة فرعون ، تعلقت به. وعرضت عليه عدداً من الأمهات يرضعنه فرفض ، لكي تجيء أخته وتعرض عليه سيدة تعرفها قادرة على إرضاعه ، وكانت هذه السيدة هي أمه. والقرآن الكريم يقول «فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن».. وكانت هذه أول إشارة إلى أن مصر الفرعونية من ٣٢ قرناً هي أول من عرف «المرضعة» - أي التي تقوم

بدور الأم عند وفاتها أو مرضها أو جفاف لبنيها..

وفنانو العصور الوسطى في أوروبا قد رسموا صورة للسيدة مريم العذراء وهي ترضع طفلها المسيح عليه السلام - رمزاً على الأمومة وعلى الحنان والحب والرحمة . وكل ذلك يتمثل في صدر الأم وفي ارتباط الطفل بها ..

وقد أمضت الإنسانية عشرات الألوف من السنين لا تعرف لماذا تحمل المرأة . أو ما هي علاقة الرجل بأن تحمل امرأته .. ففي غينيا الجديدة مثلاً ما يزالون يعتقدون أن عصافوراً يجيء بين حين وحين ويقف على باب العروسين . ويكون ذلك دليلاً على أنها سوف تلد لأن يختفي العصفور في بطنها أثناء النوم . وإذا حملت المرأة دون أن يظهر العصفور ، فليس لأنه لم يجيء ، ولكن لأنه جاء دون أن تدري - كأن يتسلل إليها أثناء النوم أو أثناء المرض ..

وفي دراسة أمير الشعراء الإنجليز «روبرت جريفز» للأساطير الإغريقية اهتدى إلى أن الإغريق كانوا يؤمنون بأن المرأة تحمل إذا دخلتها «روح» .. ولا شيء يدل على طبيعة الروح هذه ، إلا ما يكون عليه الطفل من صحة ومرض وجمال وقبع بعد ذلك .

وبعض القبائل في تنزانيا تعتقد أن «القمر» هو الذي يجعل المرأة تحمل وخاصة إذا نامت في العراء .

وقد نسبت هذه القبائل إلى القمر كل أمراض المرأة . وإلى الشمس كل أمراض الرجل .

وفي اللغات الأوروبية نجد أن كلمة مجنون مشتقة من القمر - أي
جنون القمر، أو الذي أصيب بضرر قمر.

وفي العشرين عاماً الماضية اكتشف علماء «العلاج بالمنطيس»
أن جاذبية القمر للأرض لها أثر كبير على المجالات المغناطيسية في
الجسم الإنساني، وخاصة عند المرأة. وأحد علماء اليابان يرى أن
جاذبية الأرض قد أخذت في التناقص، وهذا يحتم على الإنسان أن
يضيف إلى جسمه كمية مستمرة من المغناطيس - تماماً كما أن بعض
المدن الأوروبية والأمريكية ينقصها الأوكسجين مثل: بون وبرن
ومكسيكو فيحتاج الإنسان إلى مزيد من الأوكسجين .. فالناس هناك
يصابون بالصداع والإرهاق بسبب أي مجهد قليل يبذلونه. ولذلك
يجب أن يهربوا من هذه المدن أو يتبعوا جرعات كبيرة من الأوكسجين
كل يوم .. وكل المدن قد تلوثت الآن حين تصافع فيها الهواء
الفاسد، ولذلك أصيب الناس بالدوخة وتمزق الأعصاب فاحتاجنا إلى
المهدئات والمسكنات والمخدرات، وفي نفس الوقت إلى كميات
هائلة من المنبهات: القهوة والشاي والأفيون!

وقد عرف القدماء أحجار المغناطيس لعلاج الصداع وجفاف اللبن -
دون أن تكون لديهم معلومات علمية مؤكدة عن أثر المغناطيس في الخلايا
أو الغدد وإنما فقط لهم تجارب ومارسات صحيحة.

وتقول السيدة فرانكا داليبني إن الإنسان عندما كان في مرحلة رعي
الماشية، أي قبل أن ينتقل إلى مرحلة زراعة الأرض وإقامة البيوت، كان
محدود النسل. أما السبب فهو أن طعام المرأة في ذلك الوقت من مئات

ألف السنين كان لا يساعدها على أن تكون مهيئة للحمل والولادة. صحيح كان الطعام غنياً بالبروتين والألياف، ولكن تقصصه الحبوب واللبن والدهون.

وهذا النقص الحيوي يؤجل الدورة الشهرية ويعوق إخصاب البويضة. وهكذا لا يكون حمل، أو لا يكون حمل سريع. والطب الحديث يؤكد لنا اليوم أن «الرجيم» الذي تتبعه المرأة يفسد دورة الحمل والولادة.

وربما كانت حياة الرعاعة من مكان إلى مكان هي التي أدت أيضاً إلى جفاف لبن المرأة فنقص عدد الأطفال، فكانت القبائل أخف حركة في سعيها وراء العشب والماء والظل.

والأندون الحمر، قبل اكتشاف أمريكا سنة ١٤٩٢، كانوا يعتقدون أن طيوراً تهبط من السماء، تحمل المرأة بعيداً. ثم تعيدها وقد حملت.

وقد تطورت حكاية الطائر الذي ينقذ المرأة. أو ينقذ الحياة التي هي المرأة، بأن يحملها بعيداً، إلى حكاية الطوفان الذي أغرق الأرض وجاء أناس من السماء وأنقذوا ما تبقى من أفراد الإنسانية فنقلوهم إلى مكان آخر. هذه القصة معروفة في حضارة التبت.

وفي «ملحمة قلقامش» البابلية.. وبعد ذلك في الكتب المقدسة جاءت قصة نوح عليه السلام، الذي ألممه الله أن يصنع سفينته على الأرض فيسخر منه الناس.. وأوحى إليه أن ينقل إلى السفينة الحيوانات «من كل زوجين اثنين» ثم تمطر السماء، وترتفع السفينة على صدر الماء،

ليكون نوح عليه السلام هو «آدم الثاني» الذي أنقذ البشرية ، واستأنف بها ومعها الحياة من جديد .

ونساء قبائل الطوارق في المغرب العربي ، التي تعيش في جفاف الصحراء ، تعلق أحجاراً من أندائها للتتدلى ، ولتمتلئ بعد ذلك باللبن . هذه الأحجار شبيهة بأحجار كريت ومصر الفرعونية واسمها أيضاً «أحجار اللبن» .

وبسائل جزيرة .. بسماانيا ، إذا ولدت عندهم المرأة ، فإنهم يطردون الزوج ويتكفلون بحراسة الأم ، ولذلك نجد أن الرجال الذين يقيمون وحدهم في أطراف الغابة هم الذين ولدت زوجاتهم ، أما لماذا يطردون الزوج ؟ فهناك تفسيرات كثيرة . منها أن الزوج لا علاقة له بما حدث أي بحمل ولادة زوجته . وأن الزوج قد لا يعجبه منظر الطفل ، فيلقي به للوحوش .. ولذلك كان من الضروري طرده من البيت . وكثيراً ما خرج الزوج ، ولا يعود ، إما لأنه قتل نفسه ، أو أكلته الغابة .. والحياة لم تخسر شيئاً فقد مات الأب وعاش الإبن انتهى دور الزوج ، وبدأ دور طفل سوف يكون زوجاً من جديد !

ويقال إن هذه القبائل أيقنت بغيريتها السليمة أن بعض الوحش تأكل صغارها لولا أن الأم تحول دون ذلك . فقد تعلمت القبائل من الحيوانات حكمة استمرار الحياة فقتلتهم الأنثى الذكر بعد عملية اللقاح - العناكب تفعل ذلك وبعض القطط والأسود .. وبعض التاسع تصاب بهياج فتحطم البيض الذي وضعته الأنثى على الشاطئ . وفي العصر الحديث نجد أن الأب يشعر بالغيرة لظهور الأطفال في

الأسرة . فهو يرى أن الاهتمام قد تركز حول الكائنات الجديدة . وأن الأم قد انصرفت عنه تماماً .. إذن هذه الغيرة ليست إلا الرغبة القديمة في قتل الأطفال ، وقد تطورت وتحورت فأصبحت مجرد الضيق بذلك ..

وفي كتابها القيم يقول السيدة فرانكا دالبيني إن المرأة المثالية الآن هي «جين فوند» وإنها معنى الإقبال الشديد على كتبها الرياضية وعلى أفلام الرشاقة والكاستات التي تبعها وتكتسب من ورائها مئات الملايين؟!

فما الذي تقوله جين فوند؟ لا شيء أكثر من أن جسم المرأة أو الرجل - ليس قضاء وقدراً بل إنه يمكن تهذيبه وتجميده وتغييره وتبديله كما تشاء .. وتقول إنها شخصياً قد زارت أحد السجون في أمريكا فوجدت صورها قد تعلقت على الجدران . بل إنها سمعت من مدير السجن أن أحد النزلاء قد أصر على الزواج من صورة جين فوند ، وإن زملاءه قد زفوه إليها بالموسيقى والشمبانيا . أي إنه من الممكن أن يصبح الجسم الإنساني الذي هو سجن لصاحبـه ، حديقة أو قصراً مليئاً بالخيالات السعيدة ، حتى لو كان بيـتاً مهدـم الأبواب مخلـخل الأعمـدة ، «حتـى عـاد كالـعـرجـون الـقـديـم» كما يقول القرآن الكريم .. أي أن الإنسان يستطيع أن يخفـف من أوزـانـه الثـقـيلة وأن يكون أـرشـق وأـسـع وأن يكون أـصـح ، وأن يـزـداد إـعـجاـباً بـنـفـسـه ، وبـقـدرـته عـلـى أن يكون كـمـا يـشـاء - إنـها إذـن إـرادـتـه وإـصـرـارـه عـلـى ذـلـك.

وتقول جين فوند العشرات الملايين من نساء العالم . ما من عضلة في الجسم الإنساني لا يمكن تحريكـها وإنـعاشـها . وما من ساقـين أو نـهـدين أو

ردين لا يمكن شدهما وتلبيسها بعض الألعاب الرياضية وبعض النظم
في الأكل والشرب والنوم والاقتصاد في الحب، والاقتصاد في الكرامة
والغضب أيضاً

وعندما عرضوا على ليدي سمبسون قصة وحوار الفيلم الذي ظهر
عنها وعن زوجها لم تطلب إلا شيئاً واحداً هو أن يكون صدرها أكبر
قليلًا؟!

* * *

ولكي تحفظ المرأة بصدرها، كما يحب الشعراء والفنانون، فإنها
قررت لا تحمل وإذا حملت لا تربيع، وإذا أرضعت بعض الوقت..
والباقي من البذرة التي امتلأت بالبن الصناعي.. ولذلك يرى كثير من
علماء النفس أن الرجل الذي حرم من صدر أمه كثيراً، ما يزال يحن إلى
الرضاعة، أو يرضع. فالسيجارة واللبان والشرب من الزجاجة التي لها
فتحة تشبه حلمة ثدي الأم، كل ذلك يدل على أن الرجل طفل كبير. أو
على أن الطفل الذي هو في داخل الرجل، لم يفطم بعد وأنه لا يريد..
أو على أن المرأة تحب أن تظل أماً لأولادها ولزوجها.

والمرأة المتسلطة على الزوج والأولاد، هي أم أرادت لا يبعد واحد
من أطفالها عن حضنها وصدرها، وعن اعتقادهم عليها.. فامرأة لا تريد
لأحد منهم أن يكبر، وهي لا تريد أن تتوقف عن دور الأمومة والحضانة
والرضاعة لكل أطفالها وزوجها، أو لكل الناس!

وظاهرة «مص الأصابع»، أو قضم الأظافر بالأسنان أو مضخ
الدخان في أمريكا و«القات» في اليمن، ليست إلا استمراراً لحرص

الطفل في داخلنا على الرضاعة أو دليلاً على شقائه لأنه ابتعد كثيراً عن صدر الأم والاعتداد الكامل عليها.

وفي الفصل الأخير من هذا الكتاب وعنوانه «الجريمة والبن» - تتحدث الباحثة الإيطالية عن لبن الأم .. وتقول إن دراسة طفولة عدد من الزعماء وال مجرمين المعروفين ، تؤكد إما أنهم يتأمّل أو لقطاء أو عاشوا على اللبن الصناعي كأنهم بلا أمهات .. وتضرب مثلاً لذلك : هتلر الذي هو ابن غير شرعي والذي تناوبته جارات لأمهه يرضعنه يوماً بعد يوم . فقد كانت أمه تعمل في أحد البيوت واحتضرت أصحاب البيت الأُثاثي بابنها أثناء ساعات العمل .

وكذلك الإمبراطور الجنون نيرون الذي يقال إن ذئبة أرضعته ، فقد أحسّ أمه وهو في بطنه أنها سوف يكون سفاحاً .

وعندما قام الممثل والكاتب الساخر بيتر أوستينوف بدور نيرون في فيلم «كوفادييس» قال إن هذا الدور مناسب له تماماً، فهو لم يرضع لبن أمه .. فقد ماتت عند ولادته . ولذلك لم يعرف إن كانت قد تنبأ له بأن يكون ذلك الجنون على الشاشة

ثم قائمة طويلة من المجرمين والسفاحين في القارات الخمس في العصر الحديث وفي عصور قديمة .

* * *

ولو عرفت المرأة ما معنى أن ترضع طفلها، لأضافت سنة أخرى إلى ثمرة الرضاعة . فالرضاعة تجعل طفلها في صحة جسمية ونفسية جيدة

وتجعلها هي أقل تعرضاً للمرض . كأن الطبيعة تكافئها على ذلك : وكل الانحرافات التي تصيب الشبان سببها أنهم حرموا طويلاً من أمهاتهم وصدورهن وأحضانهن . غير أن المرأة تعلمت في سنوات التطور السريع العنيف ، أنها لا تستطيع أن تقوم فقط بدور الزوجة ، ولا بدور الأم ، وأن تصحى بحياتها من أجله لأنها هي الأخرى مطالبة بأن تعمل وأن تعتمد على نفسها ، فلا الزوج مضمون ولا الآباء طبعاً ولذلك ذبحت مشاعرها وجففت صدرها وكورته دورته من أجل أن تبدو شابة قادرة على العمل ..

ويقال إن المثلة القديمة «جريتا جاربو» ظلت ترضع حتى الخامسة عشرة من عمرها وسبب ذلك أن تبنتها إحدى قريباتها وهي صغيرة ولم ترزق قريبتها بأطفال .. وأن قريبة ثانية مجنة غنية حرصت على العناية بها فظلت ترغمها على الرضاعة من حين إلى حين .. وتعترف جريتا جاربو أنها هي أيضاً قد حرصت على أن تكون خادمتها من الأمهات ليرضعنها أو يقدمن لها ليناً دافئاً تشربه من حين إلى حين .. وأن هذا هو سر جمالها الدائم !

* * *

إن قانون النساء قد أعطى المرأة الكثير من القوة ، فكان من العدل أن يعطيها قانون الأرض قليلاً من ذلك !

التجويع

من أجل الصحة

والجمال والنصر !

أطباق كثيرة! أمراض كثيرة أدوية كثيرة: شفاء قليل! من مزايا الفقر أنك لا تعرف الطبيب، ولذلك فجر وحلك تلتئم بسرعة! كان الماء أحسن المشروبات من عشرين عاماً!

السرير في المستشفى مثل «تاكسي» توقف، ولكن «العداد» لم يتوقف! إذا جاء الجسم شبت الروح! إن الحيوانات لا تقتل بعضها لأنها مجرمة، الجوع هو المجرم! قال تعالى: «يحسهم الجاهل أغنياء من التغفف».

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يأكل لأنه ليس جائعاً. ويشرب لأنه ليس عطشان. والذي ليست عنده مواعيد لرغباته الجنسية. ونحن عادة نقول عن الإنسان المسرف في الشراب والطعام والجنس بأنه: حيوان. وهذه إهانة للحيوان. لأن الحيوان معقول في الطعام والشراب.. أما الجنس عنده فله مواسم.

ولكن الإنسان أيضاً قادر على أن يعف عن الطعام والشراب والجنس، أي يتوقف عن كل ذلك مع أنه راغب فيه. أو يمتنع تماماً. ونحن لا نصف الفقير بأنه زاهد لأن الزاهد هو الذي يمتنع عن الذي يجده، ولكن الذي لا يجد، كيف يكون عفيفاً زاهداً؟

فمن الممكن أن يعيش راهب في صومعة ويخرج على دينه، بينما يطيع الله من يعيش وسط ملايين الناس. إنها إذن «إرادة» العفة و«إرادة» الرهد و«فرضية» الصوم عن الحلال والحرام.

* * *

وفي التاريخ القديم تجد القبائل البدائية قد وضعوا للزهد قواعد.. إما لأنها لا تملك إلا أن تزهد في المواسم التي تسبق الحصاد.. وإنما لأن لها معتقدات تحرم عليها ذلك.. ففي كثير من قبائل أفريقيا وأمريكا اللاتينية يحرمون على أنفسهم أن تمتد أيديهم إلى الفواكه قبل أن تنضج.. ولا يصيدون الأسماك الصغيرة، قبل أن تكبر.

بل إن الرحالة الدنماركي رامسوسني الذي هو من أبناء الأسكيمو الأقزام قد شاهد محاكمة عنيفة لسيدة لسمت بأنفها أدوات الصيد التي كان يستخدمها الزوج، واستحقت أن يطردها خارج الكوخ المصنوع من الجليد.. وظيفي أن تموت. ولكن إذا كان الزوج يحب زوجته، فإنه يحفر قبراً عند قدميها، فإذا ماتت سقطت في هذا القبر أي أنه لم يلقها خارج الكوخ تخلصاً منها أو احتقاراً لشأنها، وإنما هو فعل ذلك على الرغم منه وخوفاً من غضب الآلهة!

ومن الخطايا الكبرى عند الأسكيمو- وهي قبائل تعيش في المناطق الجليدية عند القطب الشمالي - أن يصيد أحد بعض الحيوانات الصغيرة قبل أن تكبر.. كما أنه حرام في القبائل الاستوائية أن تقطف الثمار قبل أن تنضج.. وقد شاهد الرحالة المعروف ليفنجستون أن قبيلة قد اجتمعت تشعل النار والدخان وتدق الطبول. وفجأة أتوا برجل طويل عريض وأجلسوه وسطهم وراحوا يملأون فمه بحوب الذرة حتى

مات.. ولم يفهم الرحالة ما هذا الذي حدث، ولكن عرفنا فيما بعد أنهم ضبطوه يأكل لحم ذئب صغير - حتى الحيوانات المفترسة الصغيرة حرام صيدها أو أكلها!

وفي بعض القبائل يقبلون «التوبة».. وتكون نوعاً من الاعتدار بمسح الرأس في الأرض أو تلطيخ الجسد بالطين أو روث البهائم أو أن يقلع الإنسان عينه أو يقطع بيده يده الأخرى.. أو يمسك سكيناً ويقطع أنفأ أو أذنأ أو شفة أو أي عضو آخر.. أو ينفي نفسه بعيداً عن القبيلة.

أما «الجنس» والتعفف عنه والزهد فيه، والامتناع، فقد شغل البشرية ألف السنين، حتى جاءت الأديان السماوية وغير السماوية ووضعت القواعد الصحيحة والجمالية.

فالحيوانات لها ظروف معروفة للاقتراب من الأنثى والابتعاد عنها.. أنثى واحدة، أو أكثر.

وعند القبائل البدائية أساطير تبعث على الدهشة، فالزوج لا يقرب من زوجته الحامل. ولا يقرب من زوجته التي ترضع طفلها ولا يقرب من الزوجة التي تنزف دمأ.. وفي غابات الأمازون في أمريكا اللاتينية عثر الرحالة د. بوجارد على قبيلة ضاحكة - وهي القبيلة الوحيدة التي لا يكف أفرادها على الضحك، لا لأنهم يحبون ذلك، ولكن لأنهم يدمتون أنواعاً من الأعشاب تصيبهم بالضحك حتى يموتوا، وحتى مات أكثرهم.. في هذه القبيلة وجد رجلاً قد تزوج أربعاً. وبني لكل واحدة كوخا. وإلى جوار الكوخ شجرة.. وعلى الشجرة خطوط بيضاء

وحراء.. الحمراء تشير إلى الليالي التي يحق لها أن يقترب من الزوجة. ولم يعرف د. بوجارد القاعدة الحسابية التي التزمها الزوج..

ووُجِدَ في قبيلة أخرى أن الزوج لا يقرب من زوجته بعد ابنتها الأولى وإنما يتزوج غيرها.. وقبائل أخرى ترى ضرورة الابتعاد عن الزوجة سبع سنوات..

وفي كل القبائل القديمة وفي الكتب الجنسية القديمة مثل الكتاب الهندي «كاما سوترا» أو «الروضة العطرة» العربي و«سالكا أمريكا» الأيسلندي و«العلاقات الخطيرة» الفرنسي، نجد صفات طويلة عن «شهر العسل».

ففي قبائل الأمازون يسمونه «لحظات العسل» وذلك عندما يطلب العريس إلى عروسه أن تصعد إحدى الأشجار وتأتي بشووع من الصمغ وتلتصق هذا الصمغ بشفتيها وشفتيه.. ويظل العروسان في قبلة تنخلع لها الشفاه.. فهذا الصمغ ليس إلا المطاط!

وفي كتاب «كاما سوترا» الهندي أن الهندود القدامى والصينيين أيضاً كانوا يعرفون شهر العسل. وهو الشهر الذي يسبق الزواج. فيأكل العريس - لا العروس - ويشرب ويلعب كما يشاء مرة واحدة وبعدها يتوب إلى آخر العمر.

وفي قبائل تسمانيا في جنوب المحيط الهادئ أن شهر العسل هو الذي يسبق الزواج، فالعروسان ينفصلان أحدهما عن الآخر شهراً، يعيش كل منهما على هواه وي Shirley من الدنيا إن كان قد فاته ذلك، ثم يستقيم على الزوج الواحد والبيت الواحداً

وفي المعابد القديمة كانوا يمارسون الجنس بأن يقوم الرهبان والكهنة بذلك ، فيكون الكاهن هو الذي يسبق العريس في معاشرة زوجته علينا أو وراء ستار ..

وحكايات «سميراميس» ملكة بابل معروفة . فقد كانت تركب حصاناً وتمشي في الأسواق تخترأ أجمل الشبان وأقواهم وتذهب بهم إلى المعبد ، وعلى مرأى من الكهنة . كانت تستسلم لواحد كل يوم . ويقوم حراسها بقتل هذا الشاب . وفي آخر أيامها كانت تخترأ الفتیات ، وتتركهن بعد ذلك للكهنة .

والمؤرخ الإغريقي هيرودوت هو الذي قال لنا إن الفراعنة كانوا أول الشعوب القديمة التي حرمت ممارسة الجنس في المعابد ..

ويقول لنا هيرودوت أيضاً: إن المصري القديم كان معقولاً في الطعام والشراب والجنس ..

وفي «كتاب الموتى» الفرعوني نجد نصائح الأم لابنتها عندما تذهب إلى العالم الآخر . وهي من أبدع ما عرفنا عن أجدادنا: لا تナمي كثيراً إلى جوار زوجك .. فلا شيء يجعل الزوج يكره البيت مثل ذلك .. إن الشمس تفارق الأرض نصف يوم ، والقمر كذلك .. والأرض كلها ليست غارقة في الماء .. فالماء بعيد عن الأرض ..

وتقول الأم لابنتها أيضاً حتى تنعم بالسعادة في العالم الآخر: لقد كرهني أبوك بسرعة .. فقد كان يريدني أن أعامله كطفل . وكتنم سبعه من الإخوة . ولم أكن في حاجة إلى ثامن .. فابتعدنا .. والحب

كالبذور نلقاها في الأرض .. لا على وجه الأرض فتلذوها الرياح ، ولا في جوف الأرض فيدفها التراب .. اعتدل يا ابني !

وفي القرن العشرين دخلت العلوم الحديثة تفرض علينا الجوع .. النظام في الأكل وتقدم لنا كشفاً باحتياجاتها من البروتين والدهنيات والنشويات والسكريات .. وتعرض علينا طعاماً يناسب الأمراض والطفولة والشيخوخة .. أو يختصر كل ذلك في حبوب من الفيتامينات .. أو الحقن ولا يمكن حصر أنواع الحبوب التي يتعاطاها الإنسان لتسد نفسه عن الطعام والشراب والنوم ، لكي ينقص وزنه . وهو حريص على نقصان الوزن لأن الصحة في الرشاقة والمرض في البدانة .. والمرض والأطباء والمستشفيات : هو أن ترهق القلب والرئة والمعدة والكبد بالطعام . ولذلك قامت أعظم شركات المواد الكيماوية لتحقيق للإنسان هذا الأمل منها كانت النتائج ضارة بصحته !

وعند كثير من القبائل البدائية يمتنعون عن الشراب والجنس قبل بداية الحرب ويضعون أسلحتهم بعيدة عن العيون ، حتى لا يصيبها الحسد ، ويحرمون على أي أحد غير المقاتلين لمسها ، ولذلك فإن الذين يستعدون للقتال يقيمون في مخيمات بعيدة عن بيئتهم . ويأكلون وينامون ويتر بصون استعداداً للمعركة ،

والرياضية نوع من الحرب .. ولذلك نجد الرياضيين في العصر الحديث يستريحون ويعتدلون في الطعام والشراب ويمتنعون عن الخمور والجنس استعداداً لمنافسة الفرق الرياضية الأخرى ..

ومحمد علي كلاي هو الذي قال لنا في قصة حياته : إن الضربات التي

يلقاهما أثناء التدريب أعنف مما يلقاه في حلبة الملاكمة . فائناء التدريب يتناوبه عدد كبير من المدربين يضر بونه في كل مكان وفي وقت واحد .. وهو يتوجع ولكنه لا يستطيع أن يتوقف !

ولما سألوا محمد علي كلاي يوم أصبح بطل أبطال العالم لأول مرة : ما الذي تمناه الآن؟ قال : جردن آيس كرييم !

فقد كان محرباً عليه حتى لا يزداد وزنه !

ولم نكن نعرف كيف كان يتدرّب «بيليه» ساحر الكرة البرازيلي حتى أعلنت زوجته ذلك فحياة أبطال الكرة سر من الأسرار ، ولكن لا بد من التدريب الشاق ولا بد من الامتناع عن كل ما يرهقه ويشتت تفكيره - وفي مقدمة ذلك : الجنس . قالت زوجته : إنهم يعلقونه من رجليه في الهواءطلق .. ويتركونه كذلك شداً لعضلاته وتوزيعاً للدم وتدعى لقدميه .

أما طبيب بيليه فهو الذي قال للعالم إنه رأى ذلك المنظر في «إحدى قبائل الأمازون» فهم يعلقون العريس قبل زفافه بأسبوع ، وقد أكد أطباء كثيرون أن ذلك يقوّي القلب وينشط المعدة ويملاً الرأس بالدم .. الخ .

وفي قصة حياة السباح العالمي «شبتيس» أنه لم يكن يسبح ليلاً ونهاراً فقط . أو يصوم عن أمتع وأجمل ما في الدنيا . بل إنه أيضاً لم يكن يعرف النوم المريح .. فقد علمه المدرب أن ينام في أسطوانة من المطاط .. وهذه الأسطوانة كانت تندحرج ببطء ، وتعلم أن يستغرق في النوم . وأهمية هذه الأسطوانة أن جاذبية الأرض لم تكن مرکزة على مكان واحد وإنما

على كل الجسم. كما أن حركة الأسطوانة تضغط على كل عضلات جسمه وتقويها وتلينها.. فليست هذه الأسطوانة إلا سجناً أو صومعة متحركة!

وأديب إيطاليا «البرتو مورافيا» في رواية له عن «الحياة الزوجية» يروي قصة فنان عظيم ولكنه لا يجد القدرة على الكتابة إلا إذا كان غارقاً في الجنس.. فكان الجنس يرهقه. وكانت الأفكار تواتيه وتحطط على رأسه كالطيوير المهاجرة، ولكنه لم يكن قادراً على أن يمسك قلماً..

ومورافيا هو الذي قال إن الفنان، مثل المرأة، له دورة شهرية للإبداع الفني.. ولكن الفنان الذي أعطاه الله النار المقدسة، يجب أن يعيش على هذه النار في داخله وفي خارجه..

والمثل الأعلى للإبداع هو «النحل». فالنحل الذي يفرز العسل ليس ذكرًا ولا أنثى. إنه بلا جنس.. لقد خرج النحل من عيني الإله «رع» كما يقول الفراعنة..

فدموع الإله «رع» تحول إلى نحل.. ولكن الأساطير الفرعونية لم تقل لنا: ولماذا كان يبكي الإله «رع»؟ لا بد أنه كان يبكي لحرمان النحل من لذة الحياة فهو يفرز كل هذا الرحيق اللذيد ولا لذة له ولا متعة له..

وكذلك الفنان الذي يفرز كل هذا الرحيق ليس إلا «حشرة» مقدسة إذا لم يكن عنده ما يحبه وما يكرهه وما يشتهيه، وما يهرب منه وما يهرب إليه..

وقد ابتدع اليابانيون حاسبات إلكترونية اسمها «بيو - رزم» أي الإيقاع الحيوي.. أو جدول إيقاع الحياة اليومية.. يحسب لك

أحسن الأوقات لأعصابك أو رغباتك الجنسية... والدورة الشهرية المناسبة لأن تقبل على هذا أو تمتنع عن ذاك..

وهو في نفس الوقت مثل «حظك اليوم» يحدثك عن أنساب الأوقات للعمل والمغامرة والحب.

* * *

وليست كل الأطعمة مقبولة عند الإنسان، فاليهود والمسلمون لا يأكلون الخنزير ولا اللحم الميت..

وكثيراً من البوذيين من لا يأكلون اللحوم. والفراعنة - غالباً - كانوا نباتيين واليهود لا يأكلون الكائنات البحرية التي ليست لها قشور: القراميط وثعابين البحر والجمبري.

والقبائل القديمة كانوا لا يأكلون من طبق واحد إلا إذا كانوا أسرة واحدة أو من طبقة اجتماعية واحدة أو من دين واحد. وعندما جاء إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر دعاهم إلى غذاء وأكل هو من طبق وأكل إخوته من طبق آخر.. فقد كان محظياً على المصريين أن يأكلوا مع اليهود في طبق واحد - وفي ذلك الوقت لم يشاً يوسف أن يكشف عن حقيقته لإخوته!

ثم إن اليهود لا يضعون اللبن والجبن واللحم في وعاء واحد.. أو حتى في مكان واحد. وأشهر الحوادث على ذلك عندما ذهب الرئيس السادات إلى حيفا. وقبل تناول الغذاء خرج جميع الطهاة من الفنق احتجاجاً على أن الرئيس السادات قد أتى بلحام وجبن من القاهرة ولم بعد الطهاة اليهود إلا بعد أن توسل إليهم رئيس الوزراء ووزير الداخلية

وزير الدفاع وإلا بعد أن خرج الطاهي المصري ومعه الجبن والبن
الذي أتى من القاهرة وكان لا بد من غسل المطبخ وجميع الأطباق والشوك
والسكاكين !!

* * *

ولم يحدث في التاريخ إلا مرة واحدة: تحرير عسل النحل ..
وذلك عندما عاد القائد الإغريقي نيارخوس من معاركه إلى جانب
الاسكندر . فقد اكتشف عود القصب في بلاد الهند . وقال إن الأرض
تخرج العسل من دون حاجة إلى النحل .

وأصدر قراراً بتحرير عسل النحل لأن واحدة من النحل قد لدغته
وهو يستحم وظل متورم الظهر شهوراً، ولما مات عاد الناس إلى العسل
واستخدموه في علاج لساعات النحل أيضاً .

والفراعنة استخدموا عسل النحل في شفاء الجروح ..

ولكن عندما استخدمت الملكة كليوباترة السابقة عسل النحل في
دهان بشرتها عند النوم لم تكن هذه عادة فرعونية وإنما هي عادة
إغريقية .. فقد كان الإغريق أول من استخدم عسل النحل في التجميل .
أما كليوباترة التي استخدمت العسل في دهان ساقيها ثم غسلها بعد
ذلك باللبن فهي كليوباترة الرابعة ، فقد حكمت مصر سبع ملكات
 وكل واحدة منهن اسمها كليوباترة .

وكان الفراعنة أيضاً يضعون على عسل النحل الملح والفلفل
والليمون ليجعلوه اللذ طعمًا . وأطباء الروماتيزم يستخدمون عسل النحل
ويضعون عليه الخل وهو شفاء معروف لأوجاع الروماتيزم . وكانت

السيدة أم كلثوم تفعل ذلك .. وقالت لي : إن هذه الوصفة قد خففت
الكثير من أوجاع ساقيها ..

* * *

وقد اختلفت كل القبائل القديمة والقبائل الحديثة على كل أنواع
الأطعمة ولكنهم اتفقوا على أن عسل النحل يعني عن كل الأطعمة ..
والقرآن الكريم يقول : **«فيه شفاء للناس»**.

* * *

وهناك فرق كبير بين التجويع والجوع ، فالتجويع عمل إرادي ..
أنت تفعله ، أو غيرك يعرضه عليك ..

أما الجوع : فهو ألا يجد الإنسان ما يأكله ..

وقصة الجوع عظيمة القدر في التاريخ ، فالجوع هو أبو كل حركات
التحرير في التاريخ ، لأن الجائع ليس حرا .. ولأنه يريد الخبز فهو يطلب
الحرية .

والنarrative هو قصة الإنسان يبحث عن الحرية ومزيد منها : الحرية
من الجوع والظلم والجهل .. والمعدة الجائعة ليست لها آذان
والشعوب الجائعة إلى الرغيف وإلى الحرية هي وحدها القادرة على
خلق سلسلة لا تنتهي من الطفاة ..

دَعْوَةُ اللَّهِ يَأْخُذُهَا قَرِيبًا

شاب صغير في العاشرة من عمره سأله: كيف أرى الله؟ فقيل له: أن تجوع.. وسأل: وكيف أسمعه؟ فقيل له: أن تعطش.. وسأل: وكيف أتحدث إليه؟ فقيل له: أن تبعد عن الناس؟ ثم سأله: وكيف يمدهني؟ فقيل له: أن ترتفع فوق الناس!

وكان يأكل مرة كل أسبوع. ويشرب مرة كل شهر.. وبين لنفسه عموداً من الحجارة وراح يرفعه يوماً بعد يوم ثم ظل واقفاً عليه نهاراً وليلأً أربعين عاماً حتى مات. وكان يرتدي الصوف ويلف حول وسطه حزاماً من سعف التحليل - ذلك هو القديس سيمون «العمودي» الذي عاش ومات في سوريا!

أما هي فكانت تمارس الغناء والرقص. وكانت تعرف أن لها جسماً جميلاً، وأن العيون تلفها وتحسستها ويسعدها ذلك.. وجاءة تاب الله عليها فخلعت الحرير وارتدت الثياب الخشنة. وهجرت النوم على السرير، وارتمت على الأرض. وأغلقت بابها في وجه الناس. وشباكها في وجه النور. وانفردت به وحدها - ولم يكن الذي انفرد بها سوى حبيبتها الواحد الأحد.. إنه الله.. وإنها «رابعة العدوية» عاشت في

مدينة البصرة بالعراق وقيل دفنت بالقدس وقيل في القاهرة لقد تمنى مدن
كثيرة أن تحتوي رابعة .

وتقول في حبيها:

وحبًا لأنك أهل لذاك
فتشغلي بذكرك عن سواك
فكشفك للحجب حتى أراكا
ولكن لك الحمد في ذا وذاك
أحبك حبين: حب الهوى
فأما الذي هو حب الهوى
وأما الذي أنت أهل له
فلا الحمد في ذا، ولا ذاك لي

وقد وصفوها بأنها «السيدة الولية» ذات المقامات العالية والأحوال
السنوية، فما هذا الذي يفعله مثل هؤلاء الناس الطيبين؟

إنهم يدعبون أنفسهم طمعاً في نعيم الله ويتصورون جوعاً ملائفي
أن يشعروا من راحة الضمير. ويعطشون حتى يرويهم الإيمان.

إذن، فالسعادة ليست فقط في أن يتخفف الإنسان من آلام ولكن
هناك سعادة أخرى: أن يتغلب الإنسان وهو راضٍ، وأن يتألم وهو
مستريح. وليس السعادة أن يملأ الإنسان عينيه بالنوم. ولكن أن يملأ
السهر والأرق ، وهو يذكر الله والقرآن الكريم . يقول : « تتجاذب
جنوبهم عن المضاجع » .

وقد عرفوا في الديانة المسيحية باسم الرهبان أي الذين يرهبون الله
ويخافون معصيته ويرهبون أن تشغلهم الدنيا عن ذكر الله ..
والملتصقون المسلمين: رهبان أيضاً .

وأول من أطلق عليه اسم «صوفي» أو متصوف هو عالم عراقي اسمه جابر بن حيان . . وهو صوفي لأنه كان يرتدي الملابس الصوفية الخشنة التي تؤديه إذا جلس ، وتوجعه إذا نام . . والصوفي هو أيضاً الذي يجد الشوك في الشراب ، فلا يذوقه في الطعام فلا يأكله وفي رمous عيون الناس فيبعد عنهم . .

وهناك حديث يقول : لا رهبانية في الإسلام . هذا الحديث ليس صحيحاً . وإنما نسبوه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . ففي الإسلام أناس صالحون كثيرون اختاروا هذه الرهبانية ، أي الزهد في الحياة والقناعة بالقليل من كل شيء .

وعندما نفذ حكم الإعدام في القديس «توماس بيكت» اكتشفوا أنه كان يرتدي تحت مسوجه الدينية الأنيقة قميصاً من الصوف لم يخلعه مدى الحياة . وقد امتلأ هذا القميص بالحشرات ثم إن هذا القميص قد ترك آثاراً دموية غائرة في لحمه - وبكتوا عليه بعد أن شنقوه !!
وغيرهم كثيرون في الديانات الأخرى .

* * *

لقد رأيت في كاندي بجزيرة سري لانكا - وهي المدينة التي ما يزال بها بيت الزعيم أحمد عرابي - عدداً من الرهبان يمشون حفاة على النار . دعني أقترب منهم لأصفهم لك : النار كتل من الفحم والخشب قد أقوا عليها كثيراً من الزيت ، فارتقت درجة الحرارة وتراجعنا إلى الوراء . وجاء عدد من الرهبان عراة إلا ما يسترهم . أما أقدامهم فليست مغطاة بطبقة من الشحم ولا أية مادة عازلة . . واقتربوا من النار . ثم ساروا

فوقها على مهل . شيء عجيب لم تحرق أقدامهم ، ولا ظهر للاحتراق دخان . ولا على وجوههم ألم أو فرع أو أنهم يحملون هذا الألم .. وسار الواحد بعد الآخر .. ولا شيء في الأقدام ولا على الوجه .. عشرة وعشرون وثلاثون .. وطلب إليهم بعض السياح أن يكشفوا عن أقدامهم ليصوروها .. لا شيء إلا أحمرار قليل !

لقد بلغوا في السيطرة على أجسادهم ومشاعرهم أعلى الدرجات ، إنها السيطرة الكاملة على أعصابهم وعضلاتهم ، إنها القدرة الهائلة على إعدام الألم ! كيف ؟ بعض العلماء يقولون إنهم يتأهلون نفسيا إلى ذلك .. فهم قبل السير على النار يكونون في حالة تنويم ذاتي .. أي إنهم يمشون على النار وكأنهم نائم ، لا يدركون بما يحدث لهم .

إذن لقد اختاروا الألم الجسدي راحة للنفس ، وعذاب الدنيا طمعاً في نعيم الآخرة ..

ويعدب الإنسان نفسه ندماً على ما فعل هو أو ما فعله غيره .

ففي الريف المصري كنا نرى جماعة من الناس نسميهم ونحن أطفال «الرافعية» أي أتباع سيدى أحد الرفاعي . هؤلاء الناس لم يكونوا سوى جماعة من الشيوخ أو المتصوفين ، أو أدعية ذلك : يضربون أنفسهم بالسيوف حتى يسيل دمهم ، ويضعون المسامير في أفواههم وفي بطونهم ويلطمون ويصرخون أسفًا وحزناً على مقتل علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده .

ورأيت مثل ذلك في مدينة بغداد وفي مدینتي الكوفة وكربالاء .

ورأيت مهرجانات يوم عاشوراء في ولاية كيرلا بالهند أثناء
الانتخابات التي فاز بها الحزب الشيوعي .

ورأيت هؤلاء الشيعة الهندود وقد شوهوا وجوههم وأجسادهم
يلطخوها بالطين والدم وراحوا يطاردون الناس ثم يلقون بأنفسهم في
لبحر بعد ذلك .

* * *

وفي حياتنا العادمة نقول مثلاً ونحن إلى جوار فراش الآباء المريض أو
الأم المريضة: يا رب خذ عيني .. خذ حياتي ولا يموت هو .. ولا ثموت
هي!

أي إننا «نذر» الألم والعذاب ، فداء للذين نحبهم .
أو إننا نقول: سوف أمتنع عن الشرب ..

* * *

أو كما قالت السيدة مريم العذراء وهي تواجه الشك فيها والغمز
واللمز من أهلها: «إني نذرت للرحم صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً».

وفي الديانة البوذية نجد الراهب يطبق أصابع يديه حتى تطول
أظافرها وتتغزز في لحمه - لعل فلاناً يشفى من مرضه .

وعند البوذيين أيضاً نجد الواحد يمد ذراعه إلى الأمام مدى الحياة فقد
نذر الله أن يفعل ذلك إذا شفي ابنه المريض .
أو يحبس نفسه في البيت شهراً أو ثلاثة .

وعند الزواج البوذى تعلن الزوجة إنه إذا مات عنها زوجها فسوف
تفرق نفسها حزناً عليه حتى لا تكون لرجل آخر.
أو يذبح الواحد كل ما لديه من ماشية لعل الآلهة تشفى ولده أو أمه
أو زوجته.. أو ترفع غضبها عن القبيلة أو تسقط الأمطار أو تخصب
التربة.

* * *

وقد شاهد الرحالة لفنجستون في أوغندا قبيلة تأكل رجالاً مريضاً ولم
يمد تفسيراً لذلك وعرفنا فيما بعد أنهم أكلوه حتى لا يتذنب. أو أنهم
دفنوه في أعماقهم ضنا به على التراب أو على أن تأكله الحيوانات
الأخرى.. فهم قد أكلوه وتعذبوا وهم يبكون ويلطمون حباً شديداً
لهم.

والكابتن كوك عندما اكتشف جزر هاواي كان يجد متعدة كبرى في أن
يجلس إلى القبائل وهي ترقص وتغنى ثم تختار واحداً يقتلونه ويحملونه
بعيداً ثم لا يعودون بعد ذلك.. ولم يعرف أنهم يفتحون بطنه وينحرجون
قلبه.. ويلطخون به وجوههم وصدورهم.. ويرقصون ويبكون
ويتساقطون على الأرض.. ثم يتقاسمون قلبه وهم سعادة بذلك حباً
وإعزازاً للفقيد

* * *

ومن أيام الفراعنة ومظاهر الحزن على الفقيد لم تتغير كثيراً في
بلادنا.. فالحزن الطويل والأربعين والستونية وملابس الحداد.. ولقد
رأيت في ريف الدقهلية وأنا طفل كيف ترتدي السيدات السواد وكيف
يصبغن وجوههن بالنيلة الزرقاء وكيف يلطمون ويرقصون في حلقات

ساعة وساعتين وتتساقط النساء من الحزن والتعب وتحل محلها فتيات صغيرات أكثر نشاطاً وحيوية ثم الأطفال، وبعض هؤلاء النساء يتمرغن على الأرض، ويضعن التراب على رءوسهن وكذلك الطين - ما زلت أذكر ذلك بوضوح شديد: فقد رأيت قريباتي يفعلن ما هو أوجع وأبغض!

وكل شيء قد أصبح الآن رمزاً. الحزن عابر، فالرجال يضعون كرافات سوداء والنساء يرتدين الفستان الأسود الذي يصبح رمادياً ثم تظهر بقعة بيضاء.. ثم بقع أخرى كثيرة ثم يتلون الثوب والوجه.. وبعد ذلك تلمع الدموع في العيون من حين إلى حين وكل من عليها فان.. ولا دائم إلا وجه الله والذي مات أراح واستراح.. الخ.

وقد اشتربت في جنازة صينية في هونج كونج فوجدت عجباً. الميت حلوه في سيارة ووراءه سيارة أخرى بها ميكروفونات مدوية.. سألت ما الذي تذيعه الميكروفونات؟ فقيل: لا شيء إنها مجرد أصوات.. إنها شرائط تسجيل تدور بسرعة جداً.. فما المعنى؟ المعنى: إطلاق أصوات مزعجة لطرد الأرواح الشريرة والعفاريت من الالتفاف حول جسد الميت، فإذا انتقل إلى السماء كان نظيفاً طاهراً!

* * *

وكان الألم والعقاب المبرح وسيلة للعلاج والشفاء.. فقد كان الأطباء في أوروبا في العصور الوسطى يضربون المجنون بالكرياج حتى تخرج الأرواح الشريرة من جسده. وكان أهل الريض يتبارون في ذلك: أمه وأبوه والذين يحبونه يسرفون في استخدام السياطحة.. ثم يكون على عذابه، ويتمنون له الشفاء.

سمعت أخيراً من طبيب مصرى مشهور أن مريضه جاءته من إمبابة ،
ولما كشف عن صدرها وكفى بها وجد بها التهابات وقروها .
وعرف منها أن زوجها هو الذى ضربها بالعصا وأنه كاد يقطع ذراعها
بسكين عندما قالت له: إن العفاريت قد خرجت من جسمها كله
واستقرت في ذراعها فراح يضرب ذراعها . فأوجعها أكثر . . وكاد يقطع
ذراعها تخلصاً من العفاريت .

والطبيب لم يجد هذه المريضة تشكو من زوجها فهي ترى أن زوجها
حاول ولكن الله لم يشا شفاءها . وكان الرومان يحبسون الشاب في
شوال من النمل والنحل إمتحاناً لشجاعته وكانتوا يتربكون الطفل يبيت في
العراء ليكون قوياً شجاعاً - وأكثرهم مات !

ولذلك لم يكن غريباً أن نجد رجال الدين يهاجمون الأدوية التي
تخفف الألم . ففي رواية عمال البحر للأديب الكبير فيكتور هيجو نجد
رجال الدين يلعنون السفن البخارية ولا يكادون يرونها حتى يطلبوا من
النساء إغراقها وإحرافها . لماذا؟ لأن الله قد فصل بين الماء والنار فكيف
نجمع الإثنين في مكان واحد؟ ثم راحوا يلعنون الأطباء الذين اكتشفوا
البنج لتخدير المريض فلا يشعر بالعمليات الجراحية لماذا لأن الله قد خلق
ال الألم وقد جعل الثواب العظيم من يتحمله . . ولأن المسيح عليه السلام
قد تعذب على الصليب فداء للبشرية فكيف نلغي الألم

* * *

وأحياناً يكون العذاب - مهراً للعروس .

ففي إحدى قبائل «النرولو» الأفريقية شاهد الرحالة «لودرماك» في

نهاية القرن الماضي عند زيارته لشيخ القبيلة شابا طويلاً عريضاً قد وضع إحدى قدميه على قطعة من الخشب والتف حوله عدد من الراقصين والنار وراءهم ووراء النار طبول.. ووراء الطبول فتيات يرقصن.. أما هذا الشاب فكانوا يقطعون أصابع قدمه اليسرى بالسكين وكان يهتز فقط دون أن يتالم.. ولما اقترب الرحالة منه وجده مخموراً أو مسحوراً.. وبعد ذلك حملوه على أعناقهم.. ثم أدخلوا الرحالة على شيخ القبيلة.. وعرف أن هذا الشاب قد خطب ابنة شيخ القبيلة وكان لا بد أن يقدم الشبكة - والشبكة هي كل أصابع قدميه.

وكثيراً ما أضاف طالب الزواج تضحيات أخرى من عنده كأصابع يده اليسرى أو إحدى أذنيه، دليلاً على حبه الشديد لابنة شيخ القبيلة!

وفي أوروبا عرفنا شعراء «الطروبيادور» وكذلك الشعراء «العلريون» أو الرومانسيون في تاريخ الشعر العربي الذين كانوا يتذمرون من أجل المحبوبة.. فالطروبيادور كانوا ينامون تحت شباك المحبوبة في الثلوج أو كانوا يسعلون بعنف حتى تتلطف المحبوبة وتتكلف خاطرها وتنظر من البلاكونة لتجد الأرض قد تغطت بالدماء الرثوية دليلاً على أن العاشق يبذل نفسه من أجلها فلا هو يشكو من العذاب ولا هي ترجمه من المرض فهناك اتفاق غير مكتوب بينهما أن يتذمّر ليفوز بها في النهاية - كثيرون ماتوا قبل ذلك!

ومن يتذكر ما قاله آخر الشعراء الرومانسيين في مصر «أحمد رامي» وأغانيات أم كلثوم فلن يجد إلا العذاب والذل والهوان في الحب.
وتقول أم كلثوم ويقول أحمد رامي: عزة جمالك فين من غير «دليل»

يهواك؟! . وفي أغاني محمد عبد الوهاب أيضاً: تخاصلني برضه
أحبك.. تعذبني برضه أحبك.. تنساني أحبك.. لا تخبني أحبك
الخ. وكذلك معظم الأغاني الشرقية القديمة هي نسيج من بهلة المحبين
ومسع الأرض بدموعهم التي لا تهتم بها المحبوبة فالرجال في غاية الهوان
والنساء في غاية الوحشية أو الرجال يطحون الدم - والنساء لا يرضين بما
دون ذلك.. أو العكس كل ذلك حتى يكون العذاب عنيفاً وهو
المطلوب من الجميع للجميع.

فالحب: قاتل وقاتل.

فهل من الممكن أن يؤدي الحب إلى القتل؟ نعم. فالإنسان من
الممكن أن يقتل نفسه من شدة الحب.. فهو يتذمّر ويظل كذلك حتى
يموت.. ومن الممكن أن يقتل من يحب حتى لا يكون من نصيب أحد
غيره.. أو لعله يريد راحة المحبوب من عذاب الحب.

لم أعرف أرق وأظرف وأصدق من أبيات لشاعر قديم أراد أن ينقد
ابنته من ويلات الحياة الزوجية فقرر قتلها.. أو تمنى لها ذلك يقول
الشاعر:

أحب بنיתי فوددت أني
فإما أن أزوجها غنياً
وإما أن أزوجها فقيراً
وإما أن أزوجها سفيهاً
دعوت الله يأخذها قريباً

دفت بنيتها في جوف لحد
فأبقى عنده في ثوب عبد
فتبقى عنده وأهتم عندي
فيلعن والدي ويسب جدي
فقد كانت أعز الناس عندي

السعادة الوهمية

حشيش

وأعشاب أخرى

قالوا لنا إن أكبر أديب أمريكي موجود في الفندق. وهو يريد أن يرانا ويسمع منا شيئاً عن الفكر العربي وأشياء عن الأدب المصري. ولا بد أن يكون كلامنا في ضخامة الأهرام التي يراها من نافذته، وأن يكون أجمل من الفتيات اللاتي يتمددن على حافة حمام ميناهاوس.. وكان من الصعب أن يجد الواحد منا كلاماً بهذه المواصفات، ولكن المهم أن ترى الأديب الكبير «وليم فولكنز» الفائز بجائزة نوبيل في الأدب سنة ١٩٤٩ لا ذكر كيف كانت هيئته. ولكن كل الذي أعرفه أنه كان يقيم في الغرفة التي كان ينام فيها تشرشل أثناء الحرب العالمية الثانية. وأن الغرفة تطل على الطريق الصاعد إلى المرم.

وأدخلوني إليه.. لا بد أنه كان مريضاً مرهقاً تماماً، فلم يكدر يراني حتى أنزل ساقه من فوق الكرسي.. ووجد صعوبة في أن يرفع عينيه عن الذي أمامه. ومد يده.. ومددت يدي وجلست. أما الذي أمامه فهو زجاجة من الخمر وأكواب. ونظر ناحيتي ونظرت إليه.. ولا أعرف إن كان قد قال شيئاً. أطنه لم يقل.

أما أنا فقد قلت كلاماً كثيراً وكأنني لم أفتح فمي، فهو لم يسمع

شيئاً. وكان من المناسب جداً، كما دخلت أن أخرج وخرجت. ولكنه أكبر أدباء أمريكا الذي استحق جائزة نوبل «بسبب حيويته الفنية الرائعة، وقدرته الفذة على تشكيل وتطوير الرواية الأمريكية الحديثة ولأنه حضر بالعمق والجمال كل معالم المراة والغضب بين السود والبيض على صفي니 نهر المسيسيبي».

نص ما جاء في قرار الجائزة.

إذن هذه هي الحالة النفسية التي تلائم مثل هذا الإبداع الفني العظيم. والتي لا يستطيع أن يتحققها لنفسه وفنه، إلا إذا شرب هذه الكمية الهائلة من الخمر.. وقالوا: إنها الزجاجة الثانية في ذلك الصباح.. وقالوا أيضاً: بل إنها الزجاجة الرابعة في الأربع والعشرين ساعة الماضية!

ومثله في الدنيا كثيرون. فنانون وغيرهم.. ولكن أول إنسان أراه قد حصل على جائزة نوبل، وأول أديب عالمي أراه عن قريب!

والخمر عمرها على الأرض ألف السنين. والإنسان اخترعها ليجعل لدنياه لوناً وطعماً وليحرر نفسه من قيود العقل. إن «التوراة» تقول لنا في سفر «التكوين» إن نوحأً عليه السلام هو أول من صنع النبيذ وإنه شرب حتى سكر وتعرى في خيمته؟!

وكان ذلك كان نوعاً من طلب الراحة والبهجة بعد عذاب الطوفان. وفي كل الحضارات القديمة ظهرت الخمور: خير التفاح والعنب والشمير ونباتات أخرى كثيرة. وقد خلطوها بالسكر وبالعسل. وعصروا منها

الكحول وشربوا خالصاً بغير ماء وبغير طعام.. واعتادوا على ذلك ثم
أدموا الشراب..

وبعد الخمور ظهرت كل أنواع الأعشاب والثمار التي تحصل الإنسان
أهداً، أو أكثر مرحاً. ظهرت المهدئات والمنومات والمضحكات.. ولكن
لا أحد يعرف بالضبط متى اهتدى إليها الإنسان. ولكن وجدنا ذلك في
كل وقت.

فالمؤرخ الإغريقي هيرودوت يحدثنا عن الناس الذين يأكلون بعض
الأعشاب ثم يضحكون.. وقال إنه وجد ذلك في مصر، وإن لم يكن
المصريون هم الذين استخدموه ذلك.. وقبائل الهنود الحمر عرفت هذه
الأعشاب وكانوا يستخدمونها قبل الرقص. ويؤدي الرقص والحركات
العنيفة إلى تنشيط المعدة وتفاعل هذه الأعشاب داخلها حتى يكون لها
الأثر المطلوب. وقد أحصى العلماء أربعين عشاً مع دماء بعض
الحيوانات والاحشرات، تؤدي إلى النشوة، عند قبائل الأفاخو والأباش.
ولم تكن هذه القبائل تستخدم هذه الأعشاب إلا لعلاج المرضي. ومن
المؤكد أنها لم تكن تشفى المرضى وإنما كانت تخفف الألم، أو تقلل
إحساس به.. وقد لاحظ الآثريون أن كثيراً من المرضى كانوا يسقطون
على الأرض بلا إحساس، ويظلون هكذا حتى يموتاً

حتى الطلاق - الدخان - استخدمه الهنود الحمر للطعام. فكانوا
يطبخونه كالملوخية ثم يشربونه بعد ذلك. ثم استخدموه كنوع من
البخور يحرقونه في البيت، لتكون له هذه الرائحة القوية.. ثم جعلوه
على شكل لفائف وأشعلوه وملأوا به صدورهم.. وعندما اكتشف
كولومبوس أمريكا عاد بهذه اللفافات إلى البلاط الملكي الأسباني.. ثم

إلى أوروبا كلها والعالم.. لقد بدأت أشجار الدخان تدخل أوروبا للزينة، وبعد ذلك حدث ما نعرفه جميعاً. وأشجار القطن عندما دخلت مصر، كانت للزينة.. وكذلك نبات «ورد النيل».. ثم كان القطن حباتنا التي يحاول «ورد النيل» أن يقضي عليها!

وقد أدت الطقوس الدينية إلى انتشار المخدرات والمنبهات والمهدبات أيضاً. فالهند الحمر وغيرهم يتعاطون بعض الأعشاب مثل عش الغراب وغيره من النباتات التي تؤدي إلى نوع من الملوسة البصرية والسمعية والشممية.. فهذه الأعشاب تؤدي إلى أن تمتليء الدنيا في عيني وأذني وأنف من يتعاطاها بما لا نهاية له من الطيور والزهور والحيوانات والكائنات الخرافية.. ويؤدي إدمان هذه الأعشاب إلى أن يعتاد الإنسان على هذه الدنيا الزائفة ويفضل أن يعيشها بعيداً عن الواقع.

وفيلسوف الألماني شوبنهاور يدعوا إلى ذلك. لماذا؟ لأن أسمى مشاعر الإنسان هو أن يتأمل. وإذا تأمل تعطلت الإرادة الإنسانية ليفرغ الإنسان إلى ما هو أسمى من الرغبات.. إلى أن يتأمل نفسه والكون حوله.

ويقول الفيلسوف الألماني نيتше داعياً إلى مثل هذه «الحالة الزائفة» إنه لا سبيل إلى أن يتحد الإنسان بالكون ويلغى فرديته تماماً، إلا بأن تزول هذه الفوارق بينه وبين الوجود.. فيكون هو والوجود شيئاً واحداً - إنها بعض النشوئ الرفيعة!

والديانة الهندية تصفها بأنها حالة «الترفانا» - أي حالة البركة.. السعادة بالابتعاد عن كل شيء.. وعدم الرغبة في أي شيء.. فقط أن يشعر الإنسان بأنه أسمى الكائنات!

وعرف الإنسان الحشيش واستخرج الأفيون والهرويين والكوكايين.

واستخرج كيابيا كل المواد المنبهة من مثل : الأستركنين والنيكوتين والكافيين الموجود في القهوة والشاي والكوكايين الموجود في شجرة الكاكاو .. واستخرج الأمفيتامين وهو المادة التي يفضلها السائقون والطلبة والرياضيون لأنها منشطة وتزيل التعب . ولكنها في نفس الوقت تجعل الإنسان غير قادر على التركيز والربط بين الأشياء كما إنها تصيبه بزوجان في العين وارتجاف في الأصابع وبالأرق والإمساك .. وهذه المادة الخطيرة موجودة في كل حبوب التخسيس وهي ترهق القلب وتتلف خلايا المخ .. فكأنها تحرق الإنسان لكي تضيء به وتضيء له .

وبعض الناس يتعاطى المنبهات فيكون كثيّاً ولديه رغبة في الانتحار أو القتل .. وبعض الناس يشعر بالخففة والمرح والرغبة في الضحك . ولكن إدمان هذه المواد هو الذي يجعل حياة الإنسان في خطر لأنه الخطوة التالية أن ينهار بعضه فوق بعض : عقله في جسمه .. أو تتعطل كل وظائفه .. ويصبح جسمه مقبرة لإنسان كان حيا ثم اختار أن يموت بيديه !

ولم يحدث في تاريخ الإنسان أن أقبلت الملايين على تعاطي كل هذه الكميات من المهدئات والمنومات والمخدرات والمنبهات والمهلوسات والمثيرات جنسيا ، كما حدث في أعقاب الحرب العالمية الثانية .. وفي أعقاب هزيمة أمريكا في حرب فيتنام . فقد أقبل الشباب على إدمان كل شيء . وهرروا من بيوتهم إلى الحانات ، ومن الحانات إلى الكهوف ومنها إلى الغابات .. وهرروا من أمريكا الشهالية ليموتو بالمائات معاً في أمريكا الجنوبية ، وهم سعداء بذلك .

فقد كان الإدمان ديناً جديداً. ولم يكتف الشباب بتعاطي هذه المواد على شكل حبوب وإنما أخذوها في الدم - حقنا لتكون أسرع في نقاهم من هذا العالم إلى العالم الأخرى التي يفضلونها على الواقع الأمريكي أو الأوروبي أو الآسيوي أو العربي.

وفي مصر انتشرت كل هذه المواد الطبيعية والكيمائية.

وأذكر أنني كتبت مقالاً سنة ١٩٧٠ أحذر من انتشار عقار الهملوسة «ل. س. د» وقلت إنني أعرف طلبة ومدرسين في الجامعة الأمريكية يتغاطونه. وجاءني رئيس الجامعة شديد القلق والفزع وسألني عن أسماء المدرسين والطلبة فقلت له: إنني متأكد من معلوماتي وإن طالباً قد جلس على مقعدك هذا قد أطلعني عليه. ولم أكن قد رأيته من قبل!

و«ل. س. د» اختصار لـ«سرجيوك أسين ديشيلامين» قد اخترعه طبيب سويسري من خمسين عاماً. وهذا العقار أكثر انتشاراً من أي شيء آخر. وهو أقوى مفعولاً وأطول أمراً من أية مادة كيماوية أخرى.. وهذا العقار مسئول عن كثير من جرائم العنف وكثير من الإصابة بانفصال الشخصية أو الانفصام في السلوك الاجتماعي والديني والسياسي.

ونحن نعرف جريمة قتل المطربة الأمريكية «شارون تيت» لقد أعلن القاتل في المحكمة أنه ملحد وأنه إذا كان لابد أن يختار له إلها قبل أن يموت فهو: «ل. س. د». القادر على كل شيء ١٩٤

ولقد قام الأديب الإنجليزي الدوس هكسلي بتجربة مشهورة سجلها في كتابه «مداخل الحس» فقد حقن نفسه بمادة «المسكالين» وراح يصف مشاعره أمام جهاز تسجيل.. وطلب إلى زوجته أن تراقب مبنتهى الدقة شكله، الخارججي.. وجهه.. عضلات عينيه وشفتيه ودرجة حرارته والعرق الذي يظهر على وجهه.. وما قاله

هكسلي في كتابه: إنه رأى الدنيا وقد امتلأت بالألوان والأشجار والطيور والفتيات الجميلات.. وإن الصور تحول إلى أشجار والأشجار تحول إلى رجال.. والرجال يصبحون حيوانات.. وإن كل شيء يدخل في الآخر ويذوب فيه ويتحول به وعن طريقه إلى شيء آخر.. وإن جسمه لم يعدل له وزن.. بل إنه لا يعرف إن كان له جسم أو إنه روح.. ولا يعرف إن كان الكلام يخرج من فمه.. أو يخرج بغير فم.. وعندما يسمع نفسه يتكلم فهو ليس على يقين إن كان هو الذي يتكلم أو كان هو الذي يسمع.

أما أمير الشعراء الإنجليز روبرت جريفز في دراسة للأساطير الإغريقية فقد رأى أن هذه الأساطير كلها قد جاءت بفعل المخدرات أو أعشاب الحلوسة، وقد عرفها الإغريق. ولذلك وجدنا في أساطير الإغريق رجالاً كالجبال، وطيوراً تحمل الرجال ووجدنا الأمواج أذرعاً وسيقاناً ووجدنا الحيوانات تحول إلى الآلهة، والآلهة إلى بشر، والكون كله يتداخل بعضه في بعض. وليس ذلك إلا بسائر أعشاب الحلوسة!

وقيل أيضاً إن المغامرات التي جاءت في «ألف ليلة وليلة» إنها أيضاً بفعل الحلوسة. ففيها طيور تحمل الرجال، وفيها حيتان في حجم الجزر، وفيها الإنسان يصبح عفريتاً، والعفرىت يصبح حيواناً، وكل ذلك من صنع الحشيش أو المخدرات الأخرى.

ولكن ظهرت نظرية جديدة تقول إن الذي جاء في أساطير الإغريق وفي «ألف ليلة» ليس بفعل الحشيش ولكنها الحقيقة. فقد هبطت من الكواكب الأخرى كائنات أكبر وأضخم ومعها حيوانات أعظم، ولها جميراً قدرات خارقة لا نعرفها.. ولأسباب غير مفهومة لدينا، اختفت

هذه الكائنات فعادت إلى السماء.. بل إن الجنة التي هبط منها آدم وحواء ليست إلا كوكباً آخر.

وعلى ذلك فلابد من تفسير ما وصفه النبي حزقيال في التوراة على نحو جديد.. فقد كان يمشي بالقرب من بغداد. وفجأة وجد مركبة نزلت من السماء، لها دوي وتخرج منها النيران.. ولها عجلات، وقد أثارت الغبار والعواصف في كل مكان.. وقال المفسرون القدامى إن النبي حزقيال قد تنبأ بالطائرات وسفن الفضاء. ولكن الحقيقة أن هذا هو ما حدث. فقد نزلت سفن فضاء وأطباق طائرة في أماكن كثيرة من العالم.. وقد شاهد هيرودوت الأطباق الطائرة في سماء مدينة منف عاصمة مصر القديمة، وكل ذلك يؤكد أن كائنات أخرى جاءت من حضارات أكثر تقدماً، ونزلت على الأرض، وسجلها الإنسان مبهوراً بها في أساطير الإغريق والهنود والفرس وفي ألف ليلة.

وكانت هذه المخدرات أو الملوسات آثار سياسية عنيفة.

فالصين قد اشتبت في حرب الأفيون، أي ضد الأفيون الذي كانت تبيعه الشركات الإنجليزية لشعب الصين في القرن التاسع عشر. وحاربت الصين هذا الوباء. وفشلـت. ثم حاربت الشركات البريطانية التي تحكر التجارة مع الصين، وتحكر نقل الأفيون من الهند. وانتصرت عليها. ولكن شركات فرنسية وأمريكية استأثرت هذه التجارة التي أبادت الشعب الصيني - عندما بدت طاقتـه وأمتـصـت حـيـاته وألقـت بمئـات الملايين من الدائـخـين في الحقول وفي البيـوت. ثم تمكـنت الصين في النهاية من تحريم الأفيـون. وكان ذلك أعظم انتصار لها على القوى الأجنبية المدمرة، وعلى نفسها أيضاً!

والقوات الأمريكية التي عادت من آسيا، لم تعد سالمة. فقد أدمت كل أنواع المخدرات ولا تزال. وأمريكا التي لم تحارب عدوا على أرضها، قد انفرد بها أعدى أعدائها: الملايين الخاشوشون من أبنائها.. فالخشيش وغيره له رائحة قوية في كل أمريكا فإن فاتك أن تشمها في رياض الأطفال، ففي استطاعتك أن تجدها في البيت الأبيض! وفي مصر تجدها في المدارس وفي الأندية الرياضية.

ولكن لماذا كل هذه العقاقير ولماذا بهذه الكثرة وبهذا الإسراف والإدمان؟ وإذا لم تكن هذه الأعشاب موجودة، لاختبر الإنسان بديلاً عنها. والذي يندهش لهذه «الدوخة» التي ينشدتها الإنسان لا يفهم طبيعة الإنسان. صحيح أن الإنسان هو الحيوان العاقل الوحيد الذي نعرفه - أي إنه يستخدم المنطق في أفكاره وأفعاله. ولكنه بسبب ذلك المنطق، يجب أن يتحلل منه وأن يتخفف وأن يسترخي.. تماماً كما تعود من عملك إلى بيتك فإنك تفك ياقة القميص والكرافطة والزرارير وتخلع الحذاء والجورب وتمشي عارياً أو بعض ملابسك.. وعندما تذهب إلى المصايف فإنك تتحلل من كل القيود التي يحتمها عليك عملك.

فالإنسان يتعاطى هذه المخدرات طلباً للراحة..

أو هرباً من الواقع الذي يعيشه. فهو يزيف لنفسه عالماً آخر.. هو الذي يسميه الشاعر الفرنسي بودلير «الفردوس المزيف» - وكان هو الآخر حشاشاً معروفاً. ثم يتسلل إلى هذا الفردوس المزيف. ويعتاد على ذلك. وتصبح الإقامة فيه جبرية - لقد «أدمن» ذلك!

أو هو نوع من الاحتجاج على الواقع الذي يحتم علينا اليقظة وأن يكون لنا دور. وأن نكون طرفاً فعالاً في كل الذي يجري أمامنا. ولكن

لأننا لا نريد هذا الواقع ولا نحب أن نشارك فيه ، فإننا نركب السحب الزرقاء أو نستسلم لحقن المذياني وندخل في ديانة أخرى ونستسلم لصاحب هذا الدين . ونرى في الاستسلام له راحة لنا من التفكير والإرادة . وأن غشي وراءه إلى الموت . فالموت معه خير من الحياة مع الأب والأم والمدرس ورجل الدين ورجال السياسة والإدارة والحكومة - ألوف الشبان الأميركيان والإنجليز والألمان فعلوا ذلك . لقد فضلوا الموت هناك ، على الحياة هنا ..

إنها مرة أخرى مأساة «شيخ الجبل» ذلك الرجل الشيعي الذي كان يطلب إلى أتباعه أن يقتلوا أو يسفكوا الدماء .. فإذا فعلوا فلهم مكافأة أن يدخلوا الجنة فكان يقدم لهم الحشيش مع الفتيات الجميلات .. وقبل أن يفيقوا يلقى بهم خارج القلعة التي كان يعيش فيها «حسن الصباح شيخ الجبل» وقد دخلت قاموس العنف والاغتيال السياسي كلمة «الحشاشون» .. أو الأساس - بمعنى القتلة بسبب الحشيش أو من أجله .. وكذلك كان يفعل الشبان الأميركيان ، ويفعل المدمنون في أي مكان .

أو يتعاطون بعض هذه المخدرات لأسباب غرامية أو جنسية . وقد شغلنا الجنس كثيراً وطويلاً منذ كانت الحياة على هذه الأرض ، ولذلك فهناك عقاقير للفحولة الجنسية ، وعقاقير لإثارة الخيال أو هكذا يتوهם الرجال من ألوف السنين ..

وفي فيلم إيطالي حديث ظهرت الممثلة «كانديس برجن» تتصح زوجها «جاك ليمون» بأن يكف عن تعاطي المخدرات .

فقال لها: أنت معجبة بكاري جرانت وأنا معجب بمارلين مونرو. فما رأيك!

قالت: لا أفهم ..

قال: إذا أنت وأنا تعاطينا هذه المخدرات فسوف أراك أجمل امرأة وترىيني أجمل رجل فما رأيك؟

وامتدت أيديهما معاً إلى أقراص الجنة الزائفة والسعادة المزورة!!

«أقراص السعادة» هذه تتكون من مواد كيماوية تطلق العقل من قيوده.. وتتدخل الحواس بعضها في بعض.. وقد تنافست الشركات الطبية في صنع مواد ضارة تماماً.. مع إضافة أعشاب «جنس» من كوريا وخلاصة غدد التمساح وقرن الغزال ورجل الصندع! ولأن الإنسان يريد ذلك ، فهو يصدقه. وأنه يصدقه فهو يدفع ألف الملايين. وكما أن الأطباء قد عجزوا عن إقناع الناس بالأضرار الصحية للقبلات، فسوف يعجزون إلى الأبد عن إغفال الأبواب والشبابيك والسراديب إلى الجنة الخرافية التي تتوهم أن الحياة فيها «هي الحياة» مع أننا نقتل أنفسنا من أجل أجسادنا.. بل وأجسادنا أيضاً!

يجب أن تقاومه وتقاومه وأنت فيه

في سنة ١٧٧٩ قررت قبائل جزر هاواي قتل الرحالة الإنجليزي كابتن كوك الذي اكتشف هذه الجزر. ومات كوك دون أن يعرف السبب.. فقد سرقت القبائل أحد زوارقه الصغيرة. فأطلق النار على رجالها ونسائها.. وكانت القبائل سعيدة بذلك.. فهم اعتقادوا أنه نصف إله.. أليس طويلاً أيضاً أحمر الشعر أزرق العينين.. قد جاءهم على سفينة ذات أجنحة بيضاء كأنها جزيرة عائمة - هكذا قالوا أساطيرهم.. ثم إنه عندما قتل رجالهم أطلق عليهم النار، تماماً كأنه أصابهم بالرعد والبرق.. فلم يموتوا غرقى ولا أصابتهم الرماح والسهام والنبل.. إذن لقد ماتوا أعظم ميتة.. فكيف لا يكونون سعداء بهذا الشرف.. ولكنهم قتلوا.

والمؤرخون بعد مائة عام عرفوا السبب. فقد أتى كابتن كوك بشيخ شيوخ القبائل ووضعه عارياً تحت الشمس مقيد اليدين والساقين فانحرأ عينيه في الشمس لعله يصاب بالعمى. ولكن هذا الشيخ لم يقل: آه.. ولا انطفأ نور عينيه. ولم يدم عذابه أكثر من يومين. وكان الكابتن كوك يدور حول الرجل ويركله بقدميه، وأحياناً يمسق على وجهه.. ثم شتمه. ولم يكن ذلك السبب أيضاً في أن القبائل تشجعت وأطلقت

السهام والنبال على الرحالة حتى مات. وإنما السبب هو أنه عندما كان يدور حوله، كان يدوس فوق «ظله».. وهم يعتقدون أنه إذا أراد أحد أن يقتل أحد داس على ظله. أما إذا أراد تعذيبه في العالم الآخر، فعل ذلك كثيراً.. وما دام هذا الرجل هو شيخ القبيلة، فمعنى ذلك أن تتعذب كل القبيلة بعد الموت.. لأنهم سوف يذهبون إلى حيث يذهب شيخهم.. وكان ذلك أكبر من أن يحتملوه.

وقبائل أخرى في المحيط الهادئ ترى أن الإنسان الحي، هو الإنسان الذي له ظل. وهو له ظل لأنه يتحرك في الشمس. أما الذي لا يتحرك فهو ميت. ولذلك ففي لغتهم يقولون: فلان ميت، أي في البيت.. أو نائم.. لأنه بلا ظل.

وفي قبيلة مارادوكا في البرازيل عندما يقررون قتل أحد من خصومهم، فإنهم يجعلونه يقف عند الشروق أو عند الغروب ليكون ظله أطول. ويجيء ساحر القبيلة ليدهم على كيفية قتله. فيمسك سهماً ويدقها على ظله.. على رأسه - مثلاً - أو عند بطنه أو عند ساقيه.. ويكون ذلك أمراً بتنفيذ القتل في المكان الذي اختاره من ظل العدو.

واعتقدت الإنسانية أن هذا الذي في داخل جسم الإنسان وليس شيئاً مادياً هو «النفس».. والنفس هي النفس - بفتح الفاء. إذن فالإنسان الحي هو الذي له نفس.. أي الذي يتنفس. فإذا سددنا أنه وفمه فإنه يموت.

وقد لاحظت الأخت فرانشيسكا الليجرا الراهبة التي عاشت بين قبائل «أنديجا» في البرازيل أنهم يدفنون الأطفال الصغار، رغم أن هؤلاء الأطفال أحياء.. ثم عرفت السبب. فالآم تجبره بالقرب من الطفل

المولود وتضع أذنها عند أنفه ، فإن سمعته يتنفس تركته ، وإن وجدت الطفل لا يتنفس اعتقدت أنه ميت .

أما من أين يجيء هذا «النفس» فهم يعتقدون أن طيوراً تحملها إلى المولود . أو أنها روح واحد آخر قد مات .. ولذلك فهم يفضلون أن تلد الأم في العراء .. أو بالقرب من بيت مات فيه أحد ، لكي تخل في طفلها روح الميت .

ولكن الديانات القدية السماوية وغير السماوية ، قالت إن هناك روحًا . هذه الروح هي التي تحرك الجسم الإنساني . وإذا اختفت مات . أي إذا استرجعت النساء هذه الروح ، استردت الأرض هذا الجسم أيضاً . وفي الروح تكمن كل إرادة النساء : الخير والعمل الصالح .. أما الشر فهو يكمن في النفس .. أي في داخل الجسم الإنساني : نفس شريرة وروح طيبة .. أو أن النفس والروح شيء واحد .. عندما تسلط النفس على الإنسان فهو شرير . وإذا انتصرت الروح كان طيباً خيراً .

والروح تنفصل عن الجسم عند النوم . وتنفصل عنه عند الموت . فالنوم موت قصير ، والموت هو النوم الأبدى .

والديانة الهندية وكذلك الديانة الفرعونية تؤمنان بأن الأرواح تخرج من الأجساد إلى أماكن أخرى ، وراء هذا العالم ، وفي هذا العالم تستأنف حياتها من جديد . ولذلك فالمilit يجب أن نضع له الطعام والشراب وكل احتياجاته في قبره . حتى إذا عادت إليه الروح استأنف حياته فوراً ..

وهناك اعتقاد عند الهندوسة أيضاً بأن روح الإنسان عندما تخرج من

جسمه ، فإنها تحل في أجسام حيوانات أو نباتات أو طيور أخرى . وتموت هذه الحيوانات فتنتقل الروح إلى أجساد أخرى ، إلى أن تنتهي تماماً . وبعد ذلك تنتقل إلى عالم الطهارة المطلقة .. تماماً كما تغسل يديك في الطين وبعد ذلك في الزيت وبعد ذلك في ماء النهر ثم في اللبن . وتظل تنظف يديك من سائل إلى سائل حتى تصبح اليدان طاهرتين تماماً .. وكذلك الروح . وقد لجأ بعض الرهبان إكراماً للقعيد الغالي إلى الإيتان بإنسان ميت إلى جوار الذي سوف يموت ، فإذا خرجت روح الميت وجدت جسماً ميتاً رحلت فيه . ويكون جسم الميت سجناً مؤقتاً للروح .. وبذلك لا تتعدب !

وهذا يفسر لنا لماذا يذبح الرهبان الحيوانات عند أقدام الموتى .. ولماذا يأتون بأغصان الشجر .

السبب : أن الذبائح حيوانات قد ماتت .. والأغصان أشجار ميتة ، فالروح إذا حلت بها فقد حللت بجسم ميت فلن تتعدب - لأن هذه الأشجار والحيوانات بلا حياة !

وفي ديانة كونفوشيوس يفسرون لماذا يكره بعض الناس القطط أو الكلاب .. ليس هناك إلا سبب واحد هو أنه دخلت في جسمك روح قط ، ولذلك فأنت تكره الكلاب ، وعكس ذلك صحيح .. أو لماذا تحب إنساناً من أول نظرة ؟ السبب أنك قد أحبيته قبل ذلك عندما كانت روحك في جسم آخر . ولماذا تكره إنساناً من أول نظرة ؟ السبب هو أن بينكما حسابات قديمة لم يتم تصفيتها بعد . هذه الحسابات عندما كانت لكما حياة سابقة .

وفي الديانة الزرادشتية مثل هذه العبارات التي كان يتغنى بها النبي

زرادشت: أوسع من السماء، أعمق من المحيطات: روحي وروحك.

ويقول: الروح ضيف أبيدي على مائدة حقيقة هي جسمك وجسمي.. ويقول: أرواحنا الواسعة محبوسة في صدورنا الضيقة.. ويقول: الروح وتر في قيثارة الله، تسجم مع موسيقى الكون كله.

وعندما ذهب الأستاذ لمبروز عالم السلالات البشرية إلى جزيرة تسمانيا لاحظ أنهم يعلقون قلباً ينزف دمأً على مدخل كل قرية.. وطن لأول وهلة أنه قلب مجرم أو لص.. أو قلب بعض الحيوانات التي ارتكبت جريمة.. وعندما اقترب من هذا القلب وجده من البلاستيك، ووجد أنهم يملأونه دمأً.. كل يوم. أما المعنى فهو أنهم يريدون أن يقولوا أن قلب القبيلة، وهو شيخها، حي في صحة جيدة.

وعرف منهم أنهم يعتقدون أن الإنسان له قلبان: قلب في صدره وقلب في رأسه. وأن الإنسان الحي هو الذي له قلب هنا وقلب هناك.. فالروح أو النفس هما هذان القلبان.

وعرف منهم أيضاً أن الإنسان يعيش مرتين: مرة في بطن أمه.. ومرة عندما يخرج منها.. وأنه يموت مرتين: مرة في بطن أمه عندما لا يكون له قلب، ومرة بعد أن يولد.

وحاول كثير من الباحثين أن يجدوا مصدر مثل هذه الأفكار المتطرفة. فليس في الإمكان أن تكون منقوله عن الحضارة الهندية أو الصينية.. فالمسافة بين هذه الجزر والصين واليابان ألف الأميال.. وآخر ما اهتمى إليه العلماء هو أنهم اكتشفوا أن هذه القبيلة واسمها «ماليكار لوكا» هي بقايا قبائل انقرضت من ألف السنين.. وأن هذه القبائل التي انقرضت

قد هاجرت قبل ذلك من أماكن غير معلومة تماماً.. وأنه ليس بعيداً أن تكون هذه القبائل قد هبطت إلى الأرض من كواكب أخرى.. خاصة أنهم وجدوا عندهم سلاسل من الذهب النقي جداً.. والذي لا يمكن أن يكون بهذه الصورة إلا إذا وضع في حرارة تصل إلى ألف درجة مئوية - فكيف يستطيعون ذلك؟ وأعجب من ذلك أنهم وجدوا لديهم نقوشاً في بعض الكهوف لحيوانات وطيور قد رسمت من عشرين ألف سنة!

فهذه القبائل إذن هي بقايا مجتمعات أكثر حضارة، عاشت وإنقرضت من وقت طويل، دون أن تترك آثاراً واضحة لحياتها السابقة.. أو أنها تركت آثاراً واحتفت تحت أمواج المحيط بسبب طوفان أو احترقت وغرقت.. وحتى الآن لا توجد آية أدلة قاطعة على كل ذلك.

وفي جميع المعتقدات البدائية والعقائد الدينية دعوة أن يسيطر الإنسان على جسمه.. يتحكم في رغباته وزوااته.. وأن يكون ذلك عن طريق النفس أو الروح أي عن طريق قوة أسمى وأرفع في داخله.. فإذا رأى الطعام وامتدت يده لخطفه، سحبته في قوة داخله بآلا يفعل ذلك.. وأن يعرف حدوده وحدود الآخرين.. وحتى لو كان هذا الطعام ملكاً له، إلا يسرف فيه. فذلك أصح لجسمه ونفسه.. وأسلم لكل الناس.

وكل الأديان، في كل الأوقات تدعو إلى الاعتدال والزهد وتطلب الروح على الجسد.. فالجسد أحاط، والروح أسمى.. والجسد من الأرض، أو هو الأرض، والروح من السماء أو من الله.. أو هي الله.. والقرآن الكريم يقول ﴿قل الروح من أمررب﴾.

ويقول الإمام الغزالى: إن الله سبحانه وتعالى لم يشاً أن يعرف

الروح أو يطلب إلى الإنسان ذلك، لأنه أمر صعب.. ولأن الروح ومشاكلها أكبر من أن يحيط بها الإنسان المؤمن البسيط. وإنما ترك الروح والمشاكل المعقّدة، للمفكرين وال فلاسفة، يفعلون ذلك بعيداً عن المسلمين البسطاء حتى لا يفسدوا عليهم نعمة الإيمان.. وحتى لا يفرقونهم في تسلّلات يطير لها النوم المادي والإيمان العميق.

وكل الديانات تفرق بين النفس وبين الروح.. فالنفس هي التي تأمر بالسوء.. والروح هي القرة النبيلة في الإنسان وهي التي تسيطر على نزعاته الشريرة.. وكلما أفلح الإنسان في السيطرة على جسمه، كان أعقل وأطهر وأنبل وكان طريقه إلى جنات النعيم أسرع وأوسع.

والقرآن الكريم يرى أن القلب هو النفس وهو الروح وهو العقل وهو الطاقة وهو الحياة. وهو معنى أقرب إلى فهم كل الناس. فبغير قلب لا حياة، والقلب يدق عالياً ومنخفضاً.. والقلب هو مصدر الحياة وبغيره لا حياة. والحياة هي الدم، وكل طعامنا في الدم، وكل الدم من القلب.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة لمحات المعاني:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تُطمِئِنُ الْقُلُوبُ - أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ -
الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ - وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةَ
وَرَحْمَةً - وَلَوْ كُنْتَ فَطَاماً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ - وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
يَهْدِ قَلْبَهُ - وَلَا تَحْمُلُ فِي قُلُوبِنَا غَلَاءً لِّلَّذِينَ آمَنُوا - وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ - فِي
قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ - وَلَا تَنْعَمُ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾.

فهناك جسم وقلب هو الذي يبعث فيه الحياة.

أما الاتجاهات العلمية المعملية، فهي ترى أنه لا يوجد شيء اسمه: نفس أو روح .. لأن هذه النفس لا يمكن رؤيتها ولا يمكن قياسها وزنها. فكل ما هو مادي هو حقيقي .. وكل ما يمكن حسابه في المعمل فهو الموجود. أما الروح والحياة والوجودان فتلك تعبيرات أدبية شعرية وromantic. ولكنها ليست مفردات علمية. وعلى ذلك فلا يوجد علم للنفس، وإنما علم وظائف الأعضاء .. أو علم السلوك الفردي والجماعي .. أو النشاط الجسماني الذي هو تفاعلات كيماوية حيوية .. ومن هذه التفاعلات تكون الحياة والموت .. الصحة والمرض .. الراحة والتعب .. السعادة والعذاب .. ولا توجد علوم الروح أو الروحانيات ولذلك فلا حياة بعد الموت ولا بعث ولا قيامة .. الخ.

ولكن العلوم الحديثة جدا تؤكد أن هناك طاقة .. هذه الطاقة تتولد من كل شيء مادي، ليست مادة وإنما هي أقرب إلى الروح .. فكل جسم يمكن تحويله إلى طاقة .. إلى حرارة إلى كهرباء إلى ضوء .. والضوء ليس ذرات من المادة .. وإنما هو نشاط غير مادي .. إنه روح .. فالعلم الحديث يدعو إلى الإيمان بالروح .. إلى الإيمان .. وإلى التواضع أمام أغاز الحياة الإنسانية والكون كله .. وكما أن هناك قوانين وقواعد تمسك الأشياء أيًا كان حجمها تحت الميكروسكوب أو في الفضاء. فالقانون هو الحكمة، والحكمة وراء كل ذلك هي الله .. والروح في كل جسم إنساني هي حرارة من شعلة مقدسة هي الله ..

وكل الأديان تدعو إلى الأخلاقيات العامة .. أي سيطرة الروح، التي هي من عند الله ، على الجسم من أجل صحة الفرد وسلامة المجتمع وانسجام الكون كله.

والروح لها برنامج عمل .. هذا البرنامج هو ما يدعوك إلى الدين.
وما يدعوك إلى الدين، هو ما يأمرنا به الله .. لصالحتنا نحن وسلامتنا
نحن .. وخيرنا نحن في هذه الدنيا وفي الآخرة!

إذن إذا كان الناس يتشابهون في أفكارهم وفي أقوالهم وفي
ملابسهم، فإنهم مختلفون في أجسامهم .. ورغم اختلاف الأجسام،
فإننا نتشابه في «سياسة» هذه الأجسام .. في ترويضها واستئناسها
وتذليلها وانقيادها .. وبذلك نرفع بأنفسنا عن الحيوانية والمادية.
والدين يدعو إلى ذلك ..

وننسى ذلك ونستمع إلى التمارين الرياضية .. وقواعد الرياضيين ..
من أجل الصحة والرشاقة والجمال .. ولو نظرت إلى وجوه المؤمنين وإلى
بشرتهم النضرة وهدوئهم العميق والسماحة والرضا، لوجدت أن كل
قواعد الرياضة والرشاقة موجودة في الصلاة والصوم وفي راحة الضمير -
فإن فعلت ذلك، فلست في حاجة إلى تعذيب جسمك بالرياضة
العنيفة، وتجويع نفسك بتعاطي المواد الكيماوية التي تسد النفس
وتتصيبك بالأرق وضغط الدم - فأنت بالدين تكسب دنياك وأخرتك معاً.
ولتكننا ننسى ، ننسى ..

وأنقل إليك صورة من تعاليم اليوجا، في لغتها الرمزية من كتاب
الأستاذ مرتبا بوهانابي الذي عنوانه «فقط من أجل سعادتك الشخصية».

سؤال : قل لي يا أستاذ .. ما الذي أستطيع أن أفعله في بيتي به ثلاثة
حجرات وليس به إلا مقعد واحد وسجين وطبق وليس له نوافذ؟

جواب : يدهشني أنك تسألني يا ولدي .. لا تسأل ولا تضيع وقتك

في التساؤل.. حرك يديك وساقيك وعينيك وافعل ما بدا لك.

سؤال: لا أفهم يا أستاذ فأنا حائر.. إذا كان الكرسي للجلوس فain
أنا؟ .. وإذا كان السكين لقطع الأخشاب فما الذي أضعه في الطبق؟

جواب: غريب أمرك يا ولدي.. ليس هناك أكثر مما لديك.. ولن
يكون.. وفي استطاعتك أن تجلس على المبعد أو تنام.. وفي استطاعتك
أن تفتح نافذة أو باباً في الحائط، فمن أجل ذلك كان السكين.. وفي
استطاعتك أن تخرج إلى الطريق والطريق في يدك تطلب من الناس أن
يعطوك.. في إمكانك أن تنام أمام البيت، إن ضاق عنك أو ضيق به..
وأن ترك البيت للكلاب والقطط.. اتركه حظيرة للبهائم.. اجعله
معبدًا.. اجعله مقبرة لك.. ما أكثر ما تستطيع عمله يا ولدي إذا
أردت.. انظر إلى ذلك الراهن.. الذي أغمد السكين في بطنه.. لقد
كان له أكثر من بيت، ولكنه قرر أن يستغني عنها جيغاً.

سؤال: ولكنني لا أفهم يا أستاذ.. إنني لا أسألك عن هذا البيت
الذي تراه هناك.. ولا عن السكين ولا عن الطبق.. أنا أسألك عن
شيء آخر..

أجاب الأستاذ ضاحكاً: ومن قال إنني أحديثك عن هذا البيت..
إنني أقصد هذا البيت (وراح يدق كرشه ورأسه).

يبقى بعد ذلك أن أنتقل إلى الحديث عن شيء آخر ليس هو جسمك
وليس هو جلدك ولا بشرتك أو شعرك أو أنفك أو شفتيك.

فالإنسان له ثوبان:

بشرته وملابسـه.. وكـما أن جـسمـه يـدلـ عـلـيهـ، أوـ هوـ يـجـاـولـ أنـ يـجـعـلـناـ

نعرفه من الذي يفعله بجسمه ، فإن ملابسه أيضاً أكثر دلالة على ذلك .
وتاريخ الملابس التي يصنعها الرجل والمرأة ، هو تاريخ القلق النفسي
والاقتصادي والديني والسياسي أيضاً .

تقول السيدة كوكو شانيل ، في كتابها «حياتي» وهي صاحبة دار
الأزياء والمضارع والعطور التي تحمل اسمها: الرجال الآن يدفعون ثمناً
فادحاً لغلوطة ارتكبواها مئات السنين .. فقد اتجهوا إلى قراءة التاريخ على
جدران المعابد وفي الكتب .. إن التاريخ ليس هناك .. إن أكثره مكتوب
بالحرير والقطن والصوف والجلد .. إنه منقوش ومطبوع على فساتينها ..
بعض الرجال وبفلوسه أيضاً

من أجل المساواة كانت «البهالة» : موضة !

يقال إن الملك سليمان صنع قصراً له أرض من الزجاج، وتحت الزجاج ماء وفي الماء سمك.. أما السقف فكان من المرايا.. وأما الهواء فقد كان بحراً من البخور والعطرور، حتى إذا جاءت بلقيس ملكة سبأ سقطت مبهورة، فانكشف ثوبها عن ساقيها فقد قيل للملك إن ساقيها تشبه أرجل الماعز جافة مليئة بالشعر.. وقيل أيضاً إن بلقيس كانت ترتدي ثواباً عديدة. ولذلك جعل الملك سليمان للقصر أبواباً ينفذ منها هواء عاصف ليطير بكل ملابسها. ولكن القرآن الكريم يقول إن الملك سليمان أراد أن يريها قدرته وعظمته وأنه نبي فقد أعطاه الله الكثير الذي يجعلها ترك دينها وتسلم لله.. قال تعالى: ﴿قيل لها ادخلِي الصرح، فلما رأته حسبته بجة وكشفت عن ساقيها. قال: إنه صرح عمرد من قوارير. قالت: رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾

إذن لقد كان من عادة المرأة على أيام بلقيس أن ترتدي ثواباً طويلاً كثيرة. فإذا تحففت من بعض ذلك، فهذا هو العيب الأخلاقي. وتقول الأساطير إنه كان لا بد من حيلة لتكشف المرأة عن بعض جسمها حتى لزوجها..

ويقال أيضاً إنه كانت المرأة الجميلة تبيع ذراعيها قطعة قطعة . فكانوا يضعونها في مكان مرتفع تحت خيمة . ويدخل الرجل يدفع ويدفع ليرى أكبر مساحة من ذراعيها وعنقها . أي أنه يرى ما لا يصح أن تكشفه المرأة الفاضلة . ولذلك كان يشتري ذلك من المرأة غير الفاضلة . إذن لقد كانت الذراعان عورة .

ولا تزال الذراع عورة في الهند الحديثة . فالمرأة تكشف بطنها ولكنها تغطي كتفيها .

وقصة «سالومي» التي جاءت في التوراة ، إنها ابنة زوجة الملك هيرود ، والملك هيرود قد تزوج أرملة أخيه ، بعد أن قتله . فكان الرسول «يوحنا المعمدان» يصرخ في الصحراء يتهم هيرود وزوجته بالسفالة والفحotor . ولكن زوجة هيرود ظلت تضغط على زوجها حتى قتل يوحنا المعمدان ووضع رأسه على طبق من الفضة وقدم ذلك لزوجته ، أما الثمن ، فهو أن ترقص ابنتها سالومي عارية . . فتخلع ثوباً بعد ثوب .. سبعة أثواب .. فقد كانت من عادة المرأة في ذلك الوقت أن تصعد أثواباً كثيرة . . أما المرأة الخليعة . فهي التي ترتدي أثواباً أقل عدداً ، فتشف بذلك عن مفاتنها . فالفضيلة أثواب كثيرة ، والرذيلة أثواب أقل أو لا أثواب . . ومن صفات المرأة الفاضلة في ذلك الوقت أن يقال عنها : تلك التي تحتاج إلى سكين تنزع ثوبها عن جلدتها !

أو تلك التي لا تخرج من بيتها .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً: المرأة عورة ، فإذا

خرجت من بيتها استشرفها الشيطان . وهي أقرب إلى الله عندما تقع في بيتها .

وهكذا ارتبطت الملابس بالأخلاق ..

فالملابس تخفي ما يجب إخفاؤه عن عيون الناس .

والملابس تبرز من جسم المرأة أكثر مما تخفي أيضاً فعندما تضيق الملابس على الصدر والردف وعندما يزتمها الحزام عند الخصر . فهي تكشف الجسم وتبرزه . ولذلك كانت الملابس الضيقة حيلة لكشف ما يجب إخفاؤه .

ونحن - عادة - نخفي ما يريد الإنسان أن يراه ، فكل ممنوع مرغوب أيضاً ، والمسافة بين الفضيلة والرذيلة ضيقة جداً .. إنها «كسرة» هنا و«كسرة» هناك ، فيكون الحال حراماً والممنوع مستباحاً .

وحادثة الأميرة ديانا البريطانية ما تزال واضحة تماماً .. فهي عندما ارتدت فستاناً واسعاً الصدر ، انقلب الرأي العام البريطاني المحافظ ضدّها .. إذ كيف تكشف ملكة المستقبل عن صدرها ما لا يجب أن يراه الناس .. وأعادوا نشر صورها ليروا إن كان هذا هو صدرها ، أو هي ظلال الثوب نفسه ...

ولكن الذين دافعوا عن الأميرة قالوا: بل هي شابة ومن حقها أن تكشف عن مفاتنها مثل كل اللاتي في مثل سنها ، ولا يهم إن كانت ملكرة .. ومن شهور ظهرت الأميرة في فستان يكشف عن ظهرها من أول العنق حتى خط الخصر .. وأعيد النقد لملكة بريطانيا القادمة ..

وأعيد الدفاع عنها بأنها شابة.. وأنها حرة وأن من حقها أن تتحلل من القيد الجامدة للأسرة المالكة. وأن هذا الذي تفعله لا يتنافى مع الأخلاق. وإنما يجعلها أقرب إلى الشباب وإلى الملاليين الذين يحبونها ويرون في حريتها، إنتصاراً لهم على جمود الآباء والأمهات ورجال الدين.. فهذه الأميرة قد قفزت بنفسها ووحدها بين عامة الشعب. وبذلك انتصرت المساواة بين الأميرة وبين أولاد الفلاحين والعمال في بريطانيا وفي كل مكان.

وعلى أيام الملكة فكتوريا نقلوا إليها أن إحدى الأميرات شوهدت في بيتها وقد شقت الثوب حول عنقها، فتنزل النبلاء بعنقها الجميل. وغضبت الملكة ولم يشفع لهذه الأميرة أنها فعلت ذلك بسبب دمل ظهر في جلدتها الرقيق نتيجة احتكاك القماش السميك.
ولكن شق الثوب عند الرقبة أصبحت موضة بعد ذلك. فكان انتقاماً شعبياً من تزرت الملكة!

وفي سفر (أشعياء) في التوراة نجد أن القيامة سوف تقوم بسبب انحلال المرأة. أما كيف يكون ذلك الانحلال ، فتقول التوراة: عندما تتشامخ النساء ، وتغمس بعضها للرجال ، وتمشي مددادات القامة وفي أرجلهن الخلاخيل .. وفي ذلك اليوم سوف يصيبيها الرب بالصلع وسوف يكشف عورتها ، وينزع من رأسها الضفائر ، ومن ساقيها الخلاخيل ومن أصابعها الخواتم ، ومن يديها الأساور ، والأقراط من أذنيها والسلالس من ذراعيها والعمائم من رأسها .. ويجردها من ملابسها المزخرفة ويخلع عنها القمصان وبدلأً من العطر يغطيها بالعفونة ثم يكويها بالنار في كل مكان!

ومن هذه النبوة نعرف ما الذي كانت ترتديه المرأة، وما الذي كانت تتجمل به، وما هي حدود الرذيلة والفضيلة. والرذيلة هي الإسراف والإغراء، والفضيلة هي الاعتدال والاحتشام ..

ويروى عن الرسول عليه السلام قوله لإحدى السيدات: يا هذه هل يسرك أن يحليك الله عز وجل يوم القيمة من حجر جهنم بسوارين وخواتم !؟

فقد رأها الرسول عليه السلام قد وضعت سوارين من الذهب وخاتمين من الماس. لقد أسرفت إذن في تجميلها واستعراض ذلك أمام الناس !

* * *

وفي كل العصور كانت الدعوة واسعة للاحتشام . حتى الإسكندر الأكبر وكان شاباً محباً للحياة ولملذاتها ينصح بنات وطنه بألا يقلدن المرأة الفارسية في ارتداء الحرير ووضع المجوهرات .. وله عبارة مشهورة: ضحية معطرة لكل متصررا

وهو يقصد بذلك: أن المرأة والعطور والخمور مكافأة للقائد المنتصر.. أما بقية الناس فليس لهم هذا الحق ..

ولكنه أيضاً حرم الملابس الحريرية على بقية النساء اللاتي لا دور لهن في إنعاش الروح العسكرية!

وهناك حادثة مشهورة لأستاذنا العظيم سقراط. فقد كان سقراط يمشي عاري الصدر والساقين والذراعين .. وفي إحدى المرات

أرغموه على أن يرتدي ثوباً أنيقاً، وكان من الضروري أن تمشي زوجته وراءه. وأن تحمل طرف الثوب. ولكنها لم تفعل. وكان سقراط يتوقع منها ذلك وقال: نسيت يا امرأة.. فانا أعرف أنك تخرجين إلى الشارع، لا لترى الشارع ولكن ليراك الشارع!

فقد وجدت زوجته إن هي رفعت ثوبه فلن يراها الناس، فتركـت زوجها، وسارت إلى جواره، ثم تقدمـته، حتى يراها ولا يراها الناس!

ويقال إن القديس الإيطالي سافونارولا الذي أحرقه الإيطاليون ، كان مشدداً في الدعوة إلى الحشمة. وكان يدعـو قومـه ألا يقلـدوا التـقالـيم الفـرنـسـية. فقد كانت المرأة الفـرنـسـية تـرتـدي تحت ملـبسـها قـميـصـاً أحـمـرـاً دائـماً ليـكونـ هذا القـميـصـ بـشرـتهاـ الثـانـيـةـ. وـدـعاـ القـديـسـ سـافـونـارـولاـ إـلـىـ ضـرـورـةـ أـنـ تـضـعـ المـرـأـةـ قـميـصـاً أسـودـ مـلـاصـقاً لـجـلـدـهـاـ. وـلـمـ تـفـعـلـ المـرـأـةـ بلـ أـنـهـاـ سـارـتـ فيـ جـنـازـهـ بـقـميـصـ أحـمـرـاـ وـثـوبـ أحـمـراـ

وهـنـاكـ دـائـماًـ الخـوفـ منـ الغـزوـ الأـجـنبـيـ، أوـ منـ الأـجـانـبـ.. فـفيـ تـارـيخـ الأـزـيـاءـ الفـرنـسـيـ، خـوفـ منـ المـوـضـةـ الـأـلـمـانـيـ، وـفـيـ تـارـيخـ الأـزـيـاءـ الـأـلـمـانـيـ خـوفـ منـ المـوـضـةـ الـإـنـجـلـيزـيـةـ.. أـيـ أـنـ الفـسـادـ يـجـيءـ عـادـةـ مـنـ وـرـاءـ الـحـدـودـ. أـيـ أـنـ الـمـوـاطـنـيـنـ، إـذـاـ تـرـكـواـ وـحـدـهـمـ وـوـرـاءـ أـبـوـاـبـهـمـ مـغـلـقـةـ، فـلنـ تـأـتـيـهـمـ الرـذـيلـةـ، فـالـرـذـيلـةـ دـخـيـلـةـ، وـالـفـضـيـلـةـ أـصـيـلـةـ!

وـفـيـ إـحـدىـ الـبـرـديـاتـ الـتـيـ عـثـرـواـ عـلـيـهـاـ فـيـ الإـسـكـنـدـرـيـةـ مـنـ تـسـعـينـ عـامـاًـ أـمـاـ نـصـحـتـ اـبـتـهـاـ الـتـيـ اـقـتـرـبـتـ مـنـ زـوـاجـ أـنـ تـكـشـفـ عـنـ جـمـالـهـاـ لـزـوـجـهـاـ فـقـطـ. وـأـلـاـ يـكـوـنـ ذـلـكـ فـيـ الـيـوـمـ الـأـوـلـ، وـإـنـماـ

بالتدریج ، حتى يجد الزوج شيئاً جديداً كل يوم ، ومن العجيب أن الأم نصحت ابنتها بأن تعجل بسد الثغرات في ثوبها - وبيدو أن الابنة قد فتحت ثغرات في ثوبها لكي تسفل العيون إلى ما وراء ذلك .

وكانت هذه أول إشارة إلى ما حصل في القرن العشرين .. ففي هذا القرن ، وفي سنة ١٩٦٩ بالتحديد ، أصبحت «البهلة» موضة .. فالملابس الممزقة عن عمد ، والملابس المرقعة عن قصد ، هي الموضة .. أي انعدام الموضة هو الموضة !

ومن أجمل ما كتبه الأديبة الوجودية سيمون دبوفوار عن «عصر المساواة» أنها شاهدت قبل دخولها أحد المسارح شابين في سيارة ، رأتهما يخلعان ملابسهما .. ويرتديان ملابس ممزقة .. القميص ممزق الذراعين والكتفين .. والبلوزة بلا زراري .. وأمسك الشاب مقاصاً وممزق البنطلون وممزق فستان صديقه .. ووقف الإثنان أمام السيارة وراح الشاب يصب من زجاجة نبيذ على ملابسهما لكي تبدو مبللة وبمقدمة .. وبعد أن تم بهلة كل منها اتجها إلى باب المسرح .. ثم تبادلا السلاسل والأساور والأقراط .. فما معنى هذا الذي حدث ؟

معناه أن الموضة لم تعد تلك التي تنشرها دور الأزياء العالمية ، وتضع لها قيوداً وشروطًا ، وتفرض طولاً وعرضًا وألواناً .. يونيفرم .. مثل ملابس الجنود ومرضى المستشفيات ونزلاء السجون .. وهكذا يفقد الإنسان حريته في كل الدنيا . لا شيء إلا لأن هذه هي الموضة .

ولكن أغلبية الناس لا يستطيعون أن يسايروا هذه الموضة ..

ولذلك كانت المساواة ضرورية بين الذين لا يستطيعون من العمل وال فلاحين والطلبة والمرضى والسجناء: فالشبان يشترون الملابس الجديدة، ويصدقون بها الرقق والباقع .. وهم أيضاً يتداولون الأشكال: فيكون للشاب شكل الفتاة، ويكون للفتاة شكل الشاب .. فهو يطيل شعره وهي تقصره .. وهو يرتدي الجيب وهي البنطلون، وهي تضع السلالسل الغليظة وهو يضع الأقراط والأساور .. وهي تصبغ شعرها بالأحمر والأخضر والأزرق، وهو يصبغ شفتيه وجنتيه.

وهذه مرحلة أخرى من المساواة .. فالمساواة الأولى كانت بين كل العاجزين عن مسايرة الموضة ، والمساواة الثانية كانت بين الجنسين .. ثم ظهرت موضة «النظرة النافذة» أي جعل ثقوب للفستان والبلوزة .. هذه الثقوب ضيقة وواسعة ، وفي أماكن مختلفة من الجسم .. وهي ما كانت تفعله الفتاة الفرعونية من ألوف السنين !

ثم ظهرت موضة أن يكون الفستان كله كأنه ثقب واسع جداً يكشف كل الجسم ، فكانت الملابس الشفافة .. والملابس البلاستيك .. والملابس الزجاجية .. ثم انعدمت هذه الملابس الشفافة .. وعرت المرأة صدرها على الشواطئ وف مستعمرات العراة .. ثم سارت المرأة بلا ملابس علوية في الشارع .. وكان ذلك خروجاً كريهاً، قاوته المرأة .. فهي لا تحب أن تكون هكذا «مبذولة» مفضوحة .. مستباحة .. يجدها الرجل عارية دون أن يحاول ذلك ، فيتجه بعيداً عنها بحشاً عن المرأة التي تخفي جمالها ليحاول أن يحصل منها على القليل ثم الكثير .. وفي ذلك إثبات لحب الرجل للمغامرة ، والبحث عن المجهول والفوز به في النهاية .. وتلك هي غريزة الصيد عند

الرجل . فالذين يقطعون ألف الأمال بحثاً عن السمك والبط ، ليس سبب ذلك أنهم لا يجدونهما بسهولة . إنما سببه أنهم ينشدون المتعة في السعي والبحث والمطاردة والفوز في النهاية بالطيور والأسماك التي لا يأكلونها بعد ذلك .

وانتشار موضة «البلوجينز» أحدث ثورة في صناعة الأزياء ، وفي تحقيق المساواة بين الطبقات ، وبين الشرق والغرب .. وهذه الموضة ، هي أطول موضة استخدمها الإنسان في كل تاريخه .

فمن المعروف في كل الشعوب الجبلية في أوروبا وغيرها ، أنهم يصنعون ملابسهم من جلد الحيوانات .. في التنسا وألمانيا مثلاً ، وخاصة البنطلون ، وميزة هذا البنطلون أنه طويل العمر .. وأن الإنسان يستطيع أن يمسح يديه فيه دون حاجة إلى أن يغسل يديه .. وكلما مسح يديه المتتسخين بالزبد والدهن ، أدى إلى لمعانه وإلى ليونته .. إذن فالبنطلون طويل العمر ، ويناسب كل الأوقات ، ثم إنه يدعوك إلى أن تبقى جالساً بعد الطعام دون أن تنهض لغسل يديك ..

ولكن الرجل الأمريكي اليهودي ليفي اشتراوس ، هو الذي اخترع البلوجينز بعد أن نقله عن أوروبا وطوره عن بنطلونات رعاة البقر في أمريكا .. ثم إنه استطاع أن يحل مشكلة الأقمشة في العالم كله .. فالبنطلون مصنوع من قماش ابتكره الفرنسيون اسمه «دنيم» أي من مدينة «نيم» الفرنسية .. ولكنه نشره على أوسع نطاق .. فأصبح موضة كل الناس من كل الطبقات : العامل وصاحب العمل ورئيس الجمهورية أيضاً .. وهو يناسب كل الأوقات وكل الأعمار وكل البلاد وكل فصول السنة ..

وهاجمته الدول الاشتراكية باعتباره من مظاهر الانحلال لأنه ضيق يكشف جسم الرجل والمرأة.. ولأنه يساوي بينها وبين الرجل «مساواة زائفة».. ولأن الدول الاشتراكية ترى في دخوله إليها تسللاً رأسمالياً رجعياً. ولذلك قاومته بشدة.

وأذكر أنني ذهبت إلى روسيا من عشر سنوات.. وكان يوم رأس السنة. ودعيني إلى فندق «روسيا» الشهير. وكانت المرافقة حريصة على أن تذهب بنا إلى قاعة الرقص.. فماذا رأينا هناك؟ أو ما الذي حرصت على أن نراه دليلاً على ذوبان الجليد بين الغرب والشرق، أو على التحرر السوفيتي؟ لقد رأينا عدداً من الشبان يرقصون «الروك أند رول» الأمريكية جداً.. وأهم من ذلك أن هؤلاء الشبان كانوا يرتدون «البلوجينز». أما تعليق الروس الجالسين حولي فكان على هذا البطلون أكثر من الموسيقى والرقص.

وكما ذكرت في هذا المكان من قبل فقد رأى مؤرخو الأزياء أن معرض «توت عنخ آمون» في العاصم الأوروبية كان حدثاً فريداً.. فقد وجد الشبان الذين يتفرجون عليه صورة لأنفسهم. فالملك الشاب لا هو رجل ولا هو فتاة. وإنما هو وسطيين الجنسين.. أو هو «الجنس الثالث» أي الذي لا هو رجل ولا هو امرأة، ولكنهما معاً..

ورأى الشبان أن هذا الملك الشاب قد قتل لأنه كان سابقاً لعصره.. وأن ما يفعله الشبان الآن ليس إلا استثنافاً لحياة وسلوك وأزياء الملك توت.

وفي نفس الوقت هو تأكيد للعبارة التي جاءت في التوراة بأنه «لا

جديد تحت الشمس»، فتوحيد الجنسين أو الجنس الموحد أو الجنس الثالث، قد تحقق في حياة وموت وأزياء توت عنخ آمون من ألواف السنتين.

* * *

أما ما يقوله العالم النمساوي الكبير فرويد فهو أن كل المحرمات تختفي تحتها كل الرغبات القوية، فنحن نحرّم الخمر، لأن الناس يحبونها، ونحرّم الرذيلة، لأن الناس حرّيصون عليها، ونغضي جسم المرأة وجسم الرجل، لأن الإنسان بدوافعه الحيوانية يريد عارياً..

وفي أحداث التاريخ النفسي والاجتماعي السياسي كثير من مثل ذلك

جميلات محمد علي وفضائح أخرى

في سنة ١٩٥٠ كنت محرراً بجريدة الأهرام، وكان من المفروض أن أترجم المقالات الفرنسية عن الأزياء. وتشاء الصدفة أن تكون الموضة في ذلك الوقت هي «نيولوك» من تصميم كريستيان ديور.. وهي الفستان الطويل الذي يصل إلى متصف الساق. وكان من المفروض أيضاً أن أعرض ما أكتبه على واحد اسمه أحمد العسكري، كان مصمماً وليس شيخاً، ويذهب هو ويعرض ذلك على رئيس التحرير عزيز ميرزا الذي له كل أخلاقيات الرهبان وليس راهباً. وترجمت عبارة «نيولوك» بالنظرية الجديدة.. وأصلاحها الشيخ العسكري فجعلها: «الطلعة البهية».. وعدلها رئيس التحرير فجعلها: «الرؤبة القشيبة». ولم ينتشر واحد من هذه التعبيرات. فقد اخترعها من لا يفهم في الأزياء وعدلها من لا يكتب ويدلها من لا يقرأ!!

وهي لم تنتشر لأنها سارت في عكس الاتجاه الذي تمشي فيه الموضة عادة فالموضة تبدأ من فوق لتحت. والصحافة ليست فوق - انظر لنفسك وأنت تقرأ هذه الصحيفة، تجد أنك أنت الذي فوق . أي أن الناس هم الذين يفرضونها: فالذين يفرضون الموضة هم الناس الذين فوق: الأغنياء والبلاء والأسرة المالكة.

والأغنياء في ذلك الوقت لا يتكلمون العربية. وإذا تكلموها أضافوا إليها الكثير من المفردات الفرنسية والإنجليزية. ولذلك كانت أماكن الموضة في مصر في ذلك الوقت هي الحفلات الكبرى والأعياد القومية والولائم الضخمة ودار الأوبرا وفي نادي الجزيرة..

والموضة تبدأ من فوق ، فيقللها الذين تحت - تقللها الطبقة الوسطى التي تتطلع إلى الطبقة الأرستقراطية وتحلم . وبعد ذلك تنتقل إلى بقية السلم الاجتماعي .

والموضة : معناها التغيير الذي يطرأ على الأزياء لفترة قصيرة، فالموضة قصيرة العمر. ولكن الموضة لابد أن تكون مفاجئة. أي ظهرت فجأة وصدمت الذوق العام. لأنها جاءت مختلفة لما كان مألوفاً قبل ذلك. ثم تنتشر. وبعد أن تنتشر يعتاد الناس عليها. فإذا اعتادوا عليها، لم تعد العين تفضل أن ترى غيرها: طول الفساتين وألوانها وقياسها.

ولابد أن يكون الناس قد زهقوا من الموضة السابقة. وأصبحوا مهيبين بشيء جديد .. والناس يحبون الجديد. ويستسلمون له تماماً دون مناقشة. ولولا هذا الاستعداد عند الناس ما انتشرت الموضة.

فال ihtilla - إذن - هي ذلك التغيير الإيجاري. أي إذا جاءت الموضة فالاستسلام لها ضروري حتمي. لا تخرج سيدة أن تخرج عليها.

والناس أمام الموضة يضحكون على نوعين من السيدات: التي تسارع باتباعها والتي تتأخر في ذلك.

والموضة قاهرة جباره. فهي تفرض نفسها على كل النساء والرجال، فالقصيرة ترتدي الفستان الطويل ، والسمينة ترتدي الفستان الضيق،

والنحيفة ترتدي الفستان الواسع .. والبيضاء ترتدي الأبيض ، والسماء ترتدي الأسود .. لا يهم إن كانت الألوان أو الأطوال أو الأحجام أو الأقمشة مناسبة . الموضة هكذا والطاعة مطلقة .

والموضة يجب أن تتوقف بعض الوقت .. أي يجب أن تعيش بعض الوقت . أن تتجمد . حتى يرتدية الناس جميعاً . وبذلك تصبح فساتين السيدات وبدل الرجال كأنها يونيورم - زي موحد . وهذا يصيب العين بالملل والنفوس بالزهق . فقد تشابهت الفساتين ، فساتين الأغنياء والفقراء .. السيدات والخدمات .. ويضيق الجميع بالجميع .

هنا فقط يجب أن يظهر شيء يقضي على الملل والقرف . شيء غير ما هو مألف ، يكون الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الناس من الناس .

ويجب أن تكون عند الناس هذه القدرة أو هذه الشجاعة على الخروج من الزي القديم ، والدخول في الزي الجديد . والتوافق بين الموضة القديمة والموضة الجديدة .

وعندما يشعر الناس بالأمان عندما يجدون أنفسهم قد ارتدوا نفس الملابس .. أي عندما شعروا بالمساواة الأنثقة ، ويسعون بأنفسهم فجأة في حاجة إلى تغيير . إلى أن يخرجوا من الصدف ، واللون والطول والعرض ، وأن يستأنفوا من جديد ارتداء ملابس الغرابة والشذوذ .. وفجأة تنتشر الموضة الجديدة ، ويعاود الناس الشعور بأنهم مثل كل الناس .. وإن الزي واحد .. وإن الجميع على الموضة .

وبعد الثورة في مصر ، كانت الأوبرا وليلي الرفاف وحفلات أم كلثوم ونادي الجزيرة ، هي الأماكن التي تظهر فيها الأنقة والشياكة .. وفي هذه

الأماكن وفي هذه المناسبات تجبيء آخر خطوط باريس وألوانها وعطرها ومجوهراتها.

ومن هذه الأماكن تنتقل إلى القاهرة، ومنها إلى العاصم الأخرى..
والأقليات أكثر الناس حرصاً على الأنقة.. فال أقليات بتكونيتها فلقة.
وهي تحاول أن ترتبط بما يعطيها الأمان.

وفي نفس الوقت تحاول أن تكون متميزة - أي أنها أقلية ممتازة. أو
أنها أقلية لأنها ممتازة. ولذلك وجدنا الأجانب أسرع في السير وراء
الموضة.

وهذا السبب أيضاً نجد أن دول العالم الثالث أسبق التقاطاً للأناقـة
الباريسية من أهل فرنسـا.

قالت لي الأديبة جرير عندما كانت في القاهرة: إنها فوجئت
بعد من الفتيات في نادي الجزيرة قد ارتدين أحـدث ما فـكر فيه مصممو
الأزياء الفرنسيـون - ارتـدين «فـكرة» لم يـطبقـها أحدـ بعدـ. بينماـ الفـرنـسيـونـ
سوف يـفكـرونـ بعضـ الـوقـتـ قبلـ السـيرـ وـراءـ المـوضـةـ.

وقالت لي أيضاً إنها ذهبت إلى الكويت فـرأـتـ في حـفلـةـ عـشـاءـ وـاحـدةـ
أربعـينـ فـسـتـانـاـ لمـ تـرـهاـ هيـ شـخـصـياـ إـلـاـ فـيـ المـجـلاـتـ..ـ وإنـ هـذـهـ الأـزـيـاءـ
مـنـاسـبـةـ طـوـلـاـ وـلـونـاـ لـلـمـرـأـةـ الـكـوـيـتـيـةـ التـيـ هـيـ مـنـ أـكـثـرـ نـسـاءـ الـعـالـمـ أـنـاقـةـ!

وقد أدهشتـهاـ هـذـهـ السـرـعـةـ فـيـ اـنـتـشـارـ المـوضـةـ الجـديـدةـ!

وقالت لي أيضاً إنه في محلـاتـ العـطـورـ والأـقـمشـةـ فـيـ كـلـ دـولـ الـخـلـيجـ
ترـنـدـيـ المـرـأـةـ الـعـرـبـيـةـ،ـ تـحـتـ الـعـبـاءـ،ـ آخـرـ ماـ اـهـتـدـىـ إـلـيـهـ مـصـمـمـوـ الأـزـيـاءـ!

ولكي تنشر الموضة لابد من عرضها أو لابد من الاستعراض، ولذلك أقيمت حفلات عروض الأزياء أمام كاميرات الصحف والتليفزيون. لكي تنتقل بعد ذلك إلى العالم كله.

وكانت عارضة الأزياء جحيلة جدا. جسمها وملامعها. وكان وزنها يصل إلى الستين كيلوجراماً. وفجأة انقلبت الموضة على عارضات الأزياء. فقد انشغل الرجال بالنظر إلى الأماكن التي لا تعطيها الأزياء - أي انصرفت العيون عن الفستان. ولذلك جلأت دور الأزياء إلى عارضات نحيفات جدا شقراء وصفراء وسمراء وسوداء.. مجرد عارضات... مجرد شعاعات متحركة. حتى لا تنشغل العين عن القماش واللون والأسلوب الذي استخدمه مصمم الأزياء في تطبيق شروط الموضة الجديدة.

واختيار السماء والسوداء والصفراء عارضة للأزياء، ليس جب في المساواة بين البيض والملوين أو حرصاً على حقوق الإنسان.. وإنما هو حرص على دول العالم الثالث - أكبر قوة شرائية على الأرض!

والموضة لها قوتها الذاتية بمعنى: إنها تفرض نفسها على الناس. فلا يقوى أحد أن يخرج عنها. وإذا حدث لقى عقابه فوراً من نظرات الناس واحتقارهم واندهاشهم لشذوذه.

ولكن هذا الحق، حق الخروج كان لزوجات رؤساء الدول فقط وخاصة زوجة الرئيس الفرنسي. فهي زوجة الرجل الذي يرأس إمبراطورية الأناقة والجمال والشياكة في العالم. وربما كانت زوجة الرئيس بومبيدو أشيك امرأة في القرن العشرين، وإن لم تكن أجمل امرأة، فملامعها حادة بارزة جافة.

ومن المعروف أن دور الأنقة الفرنسية تناوب حرم رئيس الدولة. وتعطيها أروع ما عندها لأنها نمذج رفيع للمرأة الفرنسية. ولأنها أعظم عارضة أزياء في العالم. ولأنها أينما ذهبت فهي تحرك باسم الجمال والذوق والصناعة الفرنسية.. ولذلك يجب أن تكون أكمل صورة ممكنة.

وفي استطاعتك أن ترى صور زوجات الرؤساء الفرنسيين قبل الوصول إلى الحكم ، وبعد ذلك .. سوف تجد الفارق هائلاً.

ويوم حاولت جاكلين كنيدي الفرنسية الأصل أن تفعل شيئاً مثل ذلك فضحوها في بلادها، اتهموها بالإسراف. مع أنها تمثل السيدة الأولى في بلادهم .. ولما حاولت زوجة ريجان أيضاً بذلكها الصحف حتى اعترفت السيدة ريجان: بأن فساتينها قد استأجرتها والمجوهرات على صدرها وحول عنقها وفي أذنيها وأصابعها «عهدة» سوف تردها إلى أشهر محل للمجوهرات الأمريكية!

حتى الأميرة الجميلة ديانا زوجة ولی عهد بريطانيا ، وهو أغنى أغنىاء الإنجلiz بسبب ما ورثه من عماته وخالتنه ، قد اتهموها بالإسراف في شراء الفساتين . ولكن اعترفت دور الأزياء أنها تقدم لها الفساتين سعيدة بهذا الإعلان الملكي المحبوب !

وفي مذكرات السيدة التركية عصمت أرطاؤن التي عنوانها «جميلات محمد علي» - أي جميلات أسرة محمد علي في مصر وفي تركيا كتبت تصف السيدتين هائم زادة.. ونسلي شاه وكيف كانت الأسرة المالكة المصرية أبيقة إلى أقصى درجة.. قالت إن خياطة فرنسية الأصل كانت تسافر إلى

باريس كل شهر. وتأتي بأحدث الخطوط والأقمشة. وكانت تساعدها ثلاثة فتيات ورجلان.

وكانوا يقيمون جيئاً في بيت خاص في القلعة يعملون ليلاً ونهاراً على تفصيل الفساتين المناسبة للأميرات. وكانوا يتقاضون أجوراً مزدوجة - أي يكفيهم شرفاً أن الفساتين التي يعملون فيها ليلاً ونهاراً قد ارتداها الأميرة نسل شاه وأعجب بها الملك والأميرة والباشا، وكيف أن الفستان قد أحرق قلب الأميرة فايزة والأميرة فوزية وشويكار.. إلى آخر سيدات الأسرة المالكة.

أما الفضيحة الكبرى التي أدت إلى طرد هذه الخياطة من مصر ليلاً، وموتها في إسطنبول بعد ذلك فترويها السيدة عصمت أرطاؤن فتقول إنه حدث في إحدى حفلات الأمير محمد علي بالمنيل أن ظهرت الأميرة هانم زادة بفستان بهر الحاضرين والحاضرات وكان بؤرة الاهتمام لدرجة أنهم طلبوا من الأميرة أن تدور حولهم وأن تجلس في الوسط حتى يراها الجميع. وكان ذلك أسعد يوم في حياتها. وقررت فيما بينها وبين نفسها أن تعطي للخياطة مكافأة عظيمة وأن تنقلها من القلعة لتقيم معها في القصر وأن تنفذ ما وعدتها به من إرسال ابنها لتعلم في جامعة تولوز.. بفرنسا على نفقتها.. لقد أحسست الأميرة كأنها زفت مرة أخرى.. وفجأة ظهرت إحدى اليهوديات من أسرة داود عدس ، ترتدي نفس الفستان.. القماش.. الطول.. الكرانيش.. الأكسسوارات.. حتى تسمية الشعر التي هي «مفروقة» من الوسط.. حتى شرطة العين وسحابة الكohl وطابع الحسن على الخد الأيسر.. لقد امتنع لون الأميرة وانسحبت فوراً من الحفلة.. وفسدت الليلة الجميلة.. وقبل أن يطلع النهار، أطاحوا

بالخياطة إلى الإسكندرية وألقوا بها في أحد المراكب إلى خارج البلاد.

أما الذي حدث فهو أن إحدى الفتيات اللاتي يعملن عند هذه الخياطة قد نقلت تصميم الفستان إلى السيدة أرليت عدس - لقد دفعت لها مبلغاً أكبر!

وعشرات الحوادث والفضائح جاءت في هذا الكتاب.

* * *

وموضة «نيولوك» عندما ظهرت في نهاية الأربعينيات أي بعد الحرب العالمية الثانية كانت مفاجأة فالفستان طويل ويحتاج إلى قماش كثير. وهو يناسب الطويلات وليس القصیرات، التحيفات وليس السمینات.. وكان شيئاً غريباً، والناس غير قادرین على شراء مثل هذه الفساتين المكلفة. ولكن الحقيقة هي أن المصانع الفرنسية قد عملت ليلاً ونهاراً، ولا بد من بيع منتجات هذه المصانع في فرنسا وفي العالم كله. فهذه الموضة قد ظهرت بحكمة، وليس هكذا بلا منطق!

وظهرت موضة «الشوال» وهو الفستان الواسع جداً، وهو الفستان الذي وصف بأنه: الثوب الذي تبدو فيه المرأة حاملاً، أو تريده ذلك.

وكانت متعة الناس في العاصم أن يقفوا على النواصي.. حيث الهواء يهب من كل الاتجاهات، ويضغط على الثوب الواسع فتحدد معالم المرأة.

ثم ظهر «الميني جيب» أو الفستان القصير جداً.. أي حيث الذيل فوق الركبة بشرين وأحياناً بثلاثة.. ولم يحدث في تاريخ الأزياء أن ارتفعت قطعة صغيرة من القماش إلى هذا العلو لتكشف كل هذه المسافة

من الجسم ، ليصبح من الضروري تغطيتها في أسرع وقت . ولكن المرأة لم تتمسك بمروضة تمسكها بهذه المروضة التي تكشف سيقانها .. ولا تزال حتى الآن - أي أكثر من ثلاثين عاماً !

ومن الحوادث التي تروي تاريخ المروضة حادثة الممثلة النمساوية «هيدى لامار» وهي . من ممثلات الأربعينات . ظهرت في فيلم ترتدي فستانًا شفافاً وأوقفوها وسط بحيرة . طوبيلة شاحنة . جحيلة العين دقيقة الأنف شهية الشفتين .. والتلف حولها الممثلون والمخرج والمنتج وكل العاملين في الأستديوهات .

ولم ينتظروا الرياح تهب ، فأطلقوها عليها المراوح تحط وتضع ثوبها الذي يبدو حورها دائحاً في عطرها وفستانها . وجاءت اللحظة المتطرفة . ظهر أحد رعاة البقر يعلن للناس أنه إذا وضع الرمل من هنا . نزل ذهباً من هناك . وكان يضع الرمال على صدرها ويترقبها ذهباً من الناحية الأخرى .. وطلب من الناس أن يحرصوا عليها فهي مصدر ثرائهم وسعادتهم .

ولكن أحد حكماء الهندو الحرر تقدم يقول له : ولكن إذا وضعنا الذهب من هنا نزل رملًا من هناك .

فقد طلب أن يوقفها على رأسها : ووضع الذهب من ناحية ليتلقاء رملًا من الناحية الأخرى .

وفي حالة تحويل الذهب إلى تراب والتراب إلى ذهب ، كانت هيدى لامار عارية تماماً .. ولم يشاهد الناس هذا الفيلم ، فقد تزوجها أحد الأغنياء واحتوى هذا الفيلم حتى لا يراه أحد !

ولكن الحديث عن الفيلم ملأ الدنيا.. وأخذت دور الأزياء موضة فستانها تعرضه.. وكان فستانها مشفوقاً من الأمام حتى الخصر، وكان مطرزاً على الجانيين بالترتر واللولي. ورفع زوجها أمره إلى القضاء لأنهم سرقوا موضة الفستان الذي هو من حقه، لأنه اشتري كل الفيلم، وكذلك بطلة الفيلم.. وتوقفت دور الأزياء عن بيع فساتين مشفوقة من الوسط وباعوا فساتين أخرى مشقوقة من الجانب أو من الجانيين أو من الخلف..

وفي المذكرات التي كتبها هيدي لامار بعد أن اعتزلت السينما، وأدمنت المخدرات، وراحت تهدد عشاقها القدامي، بأنهم إذا لم يساعدوها فسوف تروي غرامياتهم معها. قالت: إنها تحتفظ بهذا الفستان. وإن أحد عشاقها القدامي طلب منها أن ترتديه له وحده مرة واحدة. وسوف يفرش الأرض تحت قدميها بالدولارات.. وفعلت وكسبت نصف مليون دولاراً

وقالت إن أحد القضاة طلب منها أن ترتديه في غرفة نومه. فإذا فعلت فإنه سوف يفرج عن أحد أقاربها المتهم بقتل رجل مليونير. وأفرج القاضي عنه!

* * *

لقد انتهى ذلك الزمن الذي كانت ترتدي فيه الملكة فكتوريا ثوباً واحداً حتى الموت، أو يتم تتوبيتها وهي ترتدي نفس قميص النوم الذي كانت ترتديه يوم مات سلفها على العرش.

ففي استطاعة كل فتاة أن تكون على «الموضة». ولا توجد فتاة قبيحة

ولإثنا فقط فتاة غير قادرة على أن تكون أنيقة.

والملوضة قد استعبدت المرأة، فجعلتها تهتم بمظهرها.. جعلت اهتمامها «خارجيا» فلم تعد لها أعمق.. هي تحب ذلك والرجال أيضاً. وحتى عندما يضيق الرجال بالمرأة التي هي بغيغان أو هي قرد، تقلد الآخريات.. فإنه في جميع الأحوال هو الذي يدفع. فهناك مؤامرة علمية صناعية تجارية ذوقية تحاك في كل العواصم، من أجل التغيير الدائم للملوضة.. أي عرض أقمشة جديدة وألوان جديدة واجهة البيع - أردن أو لم نرد. ونحن نريد عادة. بوعي أو بلاوعي!

«أم علي» وملابس اللاعبين والمجوهرات.. لماذا؟

بعد عشرين عاماً من البحث اهتدى علماء الآثار الإنجليز إلى أن هذه السيدة التي وجدوها مغطاة بالذهب ليست سارقة للقبور مدた يدها إلى عنق النساء وأصابعهن واستولت على كل ما لديهن من ذهب وأحجار كريمة ثم نقلتها إلى مقبرتها وماتت تحتها.. إنها الملكة السومرية «بواي» التي توفيت سنة ٣٥٠٠ ق. م وقد وضعت على رأسها ثلاثة تيجان وفي عنقها عشرين عقداً، وفي أذنيها ثلاثة أقراط وفي ذراعيها عشرين أسورة لها شكل أوراق التوت وحول ذراعيها سلاسل لها شكل الغزلان وحول ساقيها سلاسل مطعمه بالأحجار الكريمة.

ولأول مرة في التاريخ يجدون امرأة قد وضعت خواتم في أصابع قدميها - لا تزال من العادات الشعبية في دول الخليج -. كان ذلك في مقبرة في مدينة أور العراقية التي خرج منها سيدنا إبراهيم عليه السلام وأولاده اليهود مهاجرين إلى أرض «كنعان» ومعناها الأراضي الواطئة في فلسطين .. ثم أنها كانت ترتدي بلوزة من الحرير بها خيوط من الذهب والفضة. وهي أول امرأة في التاريخ قد استخدمت كل هذه المجوهرات.. وأعجب من ذلك أنهم وجدوا إلى جوارها في مقبرتها

سيدة أخرى أطول وأعرض ولكنها عارية من المجوهرات. وبعد عشرين عاماً أخرى عرف علماء الآثار أن هذه السيدة هي الزوجة الأولى لزوجها. وقد قررت الزوجة الثانية أن تبين للتاريخ أنها هي التي كانت مفضلة عند زوجها ولذلك كانت تملك كل هذه المجوهرات بينما الزوجة الأولى الأكبر سنًا والأبقي شكلًا كانت بلا مجوهرات أي بلا قيمة.

ومنذ ذلك الحين والمرأة والرجل يستخدمان هذه الخلل للدلالة على الوضع الاجتماعي وعلى الشراء أيضاً. فقد كان أكثر الناس استخداماً للمجوهرات والخلل: الملوك والبناء والكهنة والتجار.

وأهم من ارتداء المجوهرات هو الظهور بها أمام الناس. أي عرضها واستعراضها. والمرأة بطبعتها حيوان استعراضي. فالمرأة من عاداتها أن تقف أمام المرأة وتتأمل نفسها قطعة قطعة وتشعر بالنشوة لذلك. وتحب أن يرى الآخرون مفاتنها. ومن هنا تنتقل من النظر إلى نفسها إلى الخروج والظهور ليراها الآخرون، يرون جسمها وفساتينها ومجوهراتها.

وشاعرنا الساخر بيير التونسي له كتاب جميل اسمه «السيد ومراته في باريس» في هذا الكتاب أخذ زوجته إلى باريس وجعلها تصطدم بكل الأداب الفرنسية المتحضررة، ومن هذا الاصطدام تفجر النكتة. فهي في إحدى المرات نشرت الغسيل من النافذة ليرى الناس أنها ليست فقيرة وإنما جاءت ومعها الكثير من الفساتين.. ثم أنها تلقي بقشر السمك أمام البيت. ليعرف الناس ما الذي اشتريت وما الذي تعد لزوجها. ثم إنها لا تحب أن تغطي عنقها بالعقود فالفرنسيون يفعلون ذلك لأن أعناق النساء رفيعة «لحم على عضم» وكذلك سيقانهن أما هي فليست في حاجة إلى

ولم تكشف المرأة عن ساقيها إلا في القرن العشرين. وقبل ذلك كانت تغطية الساقين والذراعين ضرورة وكشفهما ثورة لم يعد أحد يتحدث عنها الآن. وربما كانت المرأة الصينية هي أول من شق فستانها من الذيل حتى الخصر لتعرض ساقيها. بينما المرأة الهندية ترى أن هذه كبرى الكبائر. وقد أدى الكشف عن ساق المرأة إلى تطوير في صناعة الجوارب التي تغطي الساقين أو التي تكشفهما فكانت الجوارب من الحرير والنابيلون.. وفيها ترترا ولؤلؤ. أو كانت فسفورية. ولما ظهرت موضة الميني جيب طالت الجوارب حتى استغفت المرأة تماماً عن الفستان والجيب.

ووراء كل رغبة في تغطية الجسم الإنساني، رغبة أعمق في كشفه وتعريفه، ولذلك كانت الموضة هي الأسلوب الذي يحقق الرغبتين في وقت واحد.

* * *

وكما تطورت الأزياء، تطورت أدوات الزينة والخل والمجوهرات. فهي تتلون وتتخد أشكالاً وأحجاماً تتفق مع الموضة. ولكن لماذا يستخدم الإنسان الخل والزينة والمجوهرات والجواب: لكي يتميز عن الآخرين.

فنحن نرى الصياد القديم يضع ريشة الطيور التي اصطادها في رأسه وفي قبعته.. والذى اصطاد الذئب والثعلب والأسد والحيوانات الأخرى يستخدم فراءها وأنياتها في تزيين ملابسه.. وأحياناً يعلق رأس الحيوان من صدره أو على ظهره. متباهياً بما أحرزه من نصر. وفي نفس الوقت

دليلًا على قدرته الجسمية والمادية، على أن يذهب للصيد.

ونحن نرى الجزار لا يضيق بأن تظهر بقع الدم في ملابسه. وفي نفس الوقت تبدو الساعة الذهبية في ذراعه والخواتم الماسية في أصابعه والمعنى: أنه غني وقدر على أن يرتدي أغلى ثياب ويركب أفحى السيارات. ولكنه يريد أن يبين أنه جزار أو تاجر لحوم.. وأنه غني وأنه محظوظ.

وكذلك المرأة عندما تضع كل هذه الخل تريد أن تؤكد مكانتها الاجتماعية وانتسابها إلى طبقة رفيعة، وأن تشعر بثرائها أيضًا.

وفي الحروب البدائية نجد أن المنتصرين يعلقون رؤوس الأعداء في مداخل بيوتهم. وأحياناً يحتفظون بذراع أو ساق أو خصلة شعر.. ويحتفظون بأسلحتهم وملابسهم أيضًا.. وفي الحروب الحديثة يسرقون المتاحف ويستولون على اللوحات الفنية ويسرقون البيوت - موشى ديان سرق الكثير من الآثار الفنية من البيوت الفلسطينية.. وهتلر وكل الزعماء النازيين سرقوا من فرنسا وهولندا وبلجيكا.. ونابليون استولى على تحف من بولندا ومن روسيا.

والحلفاء فنكروا المصانع الألمانية ونقلوها إلى بلادهم.. والأمريكان خطفوا العلماء الألمان ليساعدوهم في إطلاق الصواريخ وسفن الفضاء..

وفي ملاعب كرة القدم نجد اللاعبين يتداولون الفالنسات - الفانلة خطأ - وهو تطوير متحضر لخطف اللاعب المهزوم وتجريده من ملابسه.. ولذلك فاللاعب المهزوم يطلب فالنة اللاعب المنتصر أو العكس.

ونحن نتناول طعاماً حلواً اسمه «أم علي» وأم علي هذه كانت زوجة للسلطان ابيك التركاني الذي تزوجته شجرة الدر، وشجرة الدر قتلتها. ولكن الزوجة الأولى «أم علي» قد تآمرت على شجرة الدر وقتلتها بالباقيب في حمامها سنة ١٣٥٢. وابتهاجاً بهذا النصر دعت الناس وقدمت لهم «الفترة باللبن والسكر» وسمى هذا الطعام بأم علي.. وقد وضع أم علي في هذه الفترة خصلة من شعر شجرة الدر وحملتني ثديها ولذلك كان من المأثور إذا وجدت ربة البيت شعراً في «أم علي» قالت إنه شعر شجرة الدر، والحقيقة أنه شعرها هي.. ورمزاً لحلمة الثدي فإننا نضع الزبيب.

ونحن نأكل «الكرواسان» وهي الكلمة فرنسية معناها: الهملا. وهو نوع من الخبز له شكل الهملا. وهذا الخبز قد اخترعه النمساويون سنة ١٦٨٣ عندما نجحوا في وقف الزحف العثماني على فيينا، وابتهاجاً بهذا النصر صنعوا خبزاً على شكل الهملا الموجود في العلم التركي. وراحوا يأكلونه دليلاً على أنهم التهموا القوات التركية.

ثم تحولت الخل إلى فلوس. هي نفسها فلوس. ولذلك كانت مصنوعة من الذهب والمالاس فالمرأة تضع العملات الذهبية في ملابسها. حول عنقها أو حول ذراعيها . أو تتدلى من فساتينها أو تلفها خلائط حول ساقيها . ولكن لم يكن استخدام هذه المجوهرات بسبب أنها موضعه. لأن الفرصة قصيرة العمر فهي تظهر بعض الوقت ثم تخفي لتظهر موضة أخرى وإنما وجدنا المجوهرات ثابتة في كل العصور ومن مظاهر الموضة الثبات بعض الوقت. بل الجمود، كأنها لن تتغير وفجأة تتغير.

فالملابس الشعبية أو الزي القومي ، كان موضة في يوم من الأيام ثم تجمدت مئات السنين . والملابس الشعبية كان الملوك والبناء يرتدونها . ثم انتقلت إلى الشعب ، واحتفظ بها الشعب ولم يشاً أن يغيرها .

فعند الهند الحمر ترتدي المرأة البلوزة المتعددة الألوان . هذه البلوزة كانت ترتديها المرأة الأسبانية عندما جاءت إلى أمريكا في القرن السادس عشر ، وتعلق بها الهند الحمر . ولا تزال حتى اليوم زياً قومياً أما الجوب الواسعة ، فقد أخذها الهند الحمر عن الغزاة الإنكليز في القرن السابع عشر ولم تتغير منذ ذلك الحين .

ولم يكن الأصل في استخدام الملابس : الاحتشام . فالاحتشام قد ظهرت الرغبة فيه والحرص عليه متأخراً جداً . صحيح أن التوراة تحدثنا عن آدم وحواء عندما أحساً بأنهما عاريان راحا يقطعان الأوراق والأغصان منأشجار الجنة ، ليغطيا عورتيهما . وذلك عندما أحساً بأنهما في حضرة الله . فكان الاحتشام ضرورة .

وعندما شرب نوح عليه السلام النبيذ كما تقول التوراة - قد سكر وانشى وتعرى تحت خيمته فرأه واحد من أولاده وأخبر أخويه الآخرين فتضايق الأخوان ، من أن أخاهما قد رأى أبيه عارياً ولم يفعل شيئاً فدخلوا على الأب وقد أدار كل منها ظهره حتى لا يرى أبيه العاري وغطياه . فلما نهض من نومه لعن ابنه وبارك ولديه الآخرين .

فقد كان العربي - إذن - شيئاً بغيضاً من الناحية الأخلاقية . . وكانت المرأة البدائية تضع حزاماً حول خصرها - فقط حزاماً - دليلاً على أنها تريد أن تنغطى ولكنها لم تكن تعرف كيف ، ثم تغطت بقطعة من

القمash صغيرة من الأئم، وكانت تختار لها ألواناً وأحجاماً مختلفة. وكانت هذه القطعة الصغيرة ملتقى العيون التي تريد أن ترى ما وراء ذلك. ثم راحت المرأة تضفي في تلوين وترصيع هذه القطعة من القماش. ومعنى ذلك أنها تعلم أنها تغطي عورتها وأنها في نفس الوقت حريصة على أن يبقى الغطاء جيلاً أنيقاً يغري الرجال بأن ينظروا ويتظروا.

وفي جزر المحيط الهادئ اعتادت المرأة أن تعرى صدرها تماماً - في جزر بالي في أندونيسيا - وفي جزر هواي. ولكن في هواي تغطي المرأة صدرها العاري تماماً بالورود وأكاليل من أوراق الشجر. وهي تجعل الأكاليل كبيرة تتراقص من حين لآخر - أي أنها حريصة على أن تغطي صدرها وأن تكشفه أيضاً. فهو إذن إتفاق ليس مكتوباً بين المرأة والرجل : إن الذي تفعله يرضيها ويرضيه - فهي تريد أن تغطي صدرها أحياناً وتكشفه أحياناً. والرجل حريص على ذلك أيضاً.

وفي العصور الوسطى كان الرجال يرتدون أحذية مدبوبة - وأحياناً يعلون للأحذية شكلأً جنسياً. وانتشرت في العصور الوسطى موضة أن يجلس الرجل واضعاً ساقاً على ساق ثم يحركها إلى الأمام وإلى الخلف. وأحياناً يرسمون عند بوز الجزمة أعضاء جنسية.

* * *

وعندما تتشابه الملابس أو الزيارات والخل. فالمقصود هو أن يؤكّد أصحابها أنهم يتسبّبون إلى جمعية واحدة. أو مؤسسة واحدة.. أو سلاح من أسلحة الجيش، القوات البرية أو البحرية أو الجوية أو جنود أو ضباط .. أما النياشين والأوسمة التي يضعها الجنود في صدورهم فلكي

يتميزوا عن غيرهم ، دليلاً على اشتراكهم في الحروب وتفوقهم فيها . وكذلك الفرق الرياضية .. وكذلك رهبان المذاهب الدينية المختلفة أو الأديان المختلفة .

والري الموحد يقتضي من صاحبه سلوكاً موحداً . فالجنود لهم سلوك ورجال السيرك لهم سلوك ، والمرضى والرهبان ..

وفي ملاعب كرة القدم نجد مشجعي الأندية المنافسة قد حلوا علامات على هذه دليلاً على سعادتهم بالانتصار إلى أحد الأندية ، تشجيعاً له وتحدياً للمنافسين .

وفي القبائل البدائية لا يكتفون بملابس الواحدة أو الزينات المشابهة وإنما يرسون على وجوههم أو على أذرعهم علامات غائرة تأكيداً لذلك .

وفي أحد الكانتونات السويسرية - كانتون أنتسيل - تضع المرأة في أدتها قرطاً على شكل زرار من الذهب .

والمنود الحمر يضعون رءوس الأطفال في إطار من الجلد المثير ليتخد شكلاً معيناً إذا كبر . وكانت المرأة الصينية القديمة ، تضع قدميها في قالب من الحديد ، حتى لا تكبر القدم - فمن علامات الجمال أن تكون القدم صغيرة .

ومن أسباب استخدام المجوهرات : المنافسة بين الأقوياء والأغنياء في أي مجتمع وهذا واضح جداً عند سيدات الطبقة الحاكمة في أي بلد .. فإذا وضعوا واحدة خاتماً من عشرين قيراطاً من الماس وضعت الأخرى واحداً من ثلاثة . أو خمسة خواتم كل واحد يزن عشرين قيراطاً .

وهكذا.. وقد انتشر في حوض نهر الأمازون أن هناك مدينة اسمها «اللدورادو» وهي كلمة إسبانية معناها الذهبية أي المدينة الذهبية. ويقال إنها تحت الماء ويقال إنها سرقت. ولم يبق من هذه المدينة إلا ثعبان من الذهب.. هذا الثعبان يظهر من حين إلى حين. ولا يأكل إلا الطيور المصنوعة من الذهب. فكانوا يلقون في نهر الأمازون بالمجوهرات الذهبية لعل الثعبان يظهر، فإذا ظهر اصطادوه واستولوا عليه. وقالت الأساطير أيضاً إن هذا الثعبان يريد أن يتزوج أثى من بني الإنسان ، ولذلك كانوا يختارون فتاة جميلة ويلقون بها في النهر ثم يستردونها إذا لم يظهر الثعبان.. ولم يظهر. ولكن أصبح من عادة المرأة في هذه المنطقة أن تلف حول ذراعيها ثعباناً من الذهب دليلاً على أن زوجها قد عثر على الثعبان. وكانت النساء يتبارين في تصخيم حجم الثعبان وتطعيمه بالأحجار الكريمة والمالس.

أما الأحجار الكريمة فقد ظهرت على صدور النساء وفي أصابع الرجال خوفاً من الحسد، ودفعاً للأرواح الشريرة بعيداً عن الأسرة والبيت ، وانحدرت هذه المجوهرات شكل الخمسة والخمسة.. وشكل حدوة الحصان وشكل «عين العفريت».. وشكل الدبابيس .. وشكل الأعضاء الجنسية لتجه إليها عيون الحسود. فإذا اتجهت لها، انصرف شرها وسمها إلى شيء آخر. وبذلك لا تصيب من يضع هذه الخل.

* * *

والمرأة لديها هذا الشعور بالنقص وعدم الأمان ولذلك فهي حريصة على أن تتزين وتتجمل فالزينة والمجوهرات أسلحة وذخيرة لها.. وهي من غيرها منزوعة السلاح.

ولكن الفنان الإغريقي زوبكسس ، الذي عاش في القرن الرابع الميلادي يرى أن «هيلين» ابنة كبير الآلهة زيوس هي أجمل امرأة في العالم لأنها كانت ترتدي مجويهات على اللحم ، ولأنها كانت لا تضع شيئاً من الزينة .. وإن حرب طروادة التي قامت من أجل استردادها . قد خدت لأن فريقاً غلب فريقاً ولكن لأن هيلين ظهرت أمام الجنود الذين خطفواها عارية ، فانهار الرجال .

وفي مدينة فرانكفورت بألمانيا وضع الجوهرية تمثلاً لأبي الهول وقد سقط خططاً أمام أسورة من ذهب .. أما المعنى فهو أن في أساطير الإغريق أن أبو الهول كان حيواناً مفترساً وأنه قطع الطريق على الناس . فإذا اعترضه أحد وجه إليه سؤالاً . فإن فشل في الإجابة عنه قتله .. أما السؤال فهو: ما هو الحيوان الذي يمشي على أربع صباحاً ، وعلى اثنين ظهراً وعلى ثلاثة مساءً . واستطاع الفتى أوديب أن يجيب فقال: إنه الإنسان .. يحب وهو طفل على أربع فإذا أصبح شاباً مشي على ساقين ، وإذا صارشيخاً توكل على عصا .

ويقال إن الذي عرف سر أبي الهول هو تاجر مجويهات . فعندما اعترضه أبو الهول ، ألقى إليه بأسورة من ذهب فسقط أبو الهول ميتاً . أما المعنى فهو: أن المرأة التي تجعل الرجل يزحف وراءها على يديه ورجليه حتى يتزوجها فيمشي إلى جوارها ، وبعد ذلك تكسر ظهره بشراء المجويهات فيتوكل على العصا .

لأسباب أنيقة بين الطبقات تدوّب الفوارق

«مكافأة قطعة من ذهب لمن يلقي القبض على «هشيم».. إنها خادمة اختفت منذ أيام ومعها فستان جديد لسيدة لها». وجده علماء الآثار على جدران مدينة طيبة المصرية من ثلاثة آلاف سنة. ولم يقل لنا المؤرخون إن كانوا قد عثروا على الخادمة أو الفستان أو أن أحداً قد فاز بالجائزة. ولكن المهم أن هناك فستاناً جديداً. أغري خادمة بأن تسرقه وتهرّب. لعلها ترتديه في مدينة بعيدة أو لعلها تبيعه لسيدة أخرى. وهذه هي أول مرة في التاريخ نقرأ عن فستان جديد. وأنه جديد فقد سرقته الخادمة. لأند أنه فستان «موضة».

الموضة تمثي في نفس خط السرقة. فالخادمة تريد أن تقلد سيدتها.. والطبقة الفقيرة تقلد الطبقة الغنية، والشعب يقلد الأسرة المالكة. وهذا التقليد يذيب الفوارق بين الطبقات. ويسبب هذا التقليل فإن الطبقات الغنية تحاول بسرعة أن تخلص من الموضة لتدخل في موضة جديدة هرباً من الموضة القديمة التي انتشرت بين الشعب. وكذلك التفرقة مرة أخرى بين الغني والفقير، بين السيد والخادم، وبين النبل والفقير، بين الملك وعامة الناس.

والتقليد - أي تقليد عامة الناس للطبقة الأرستقراطية - يجعل عامة الناس يشعرون بأنهم ليسوا وحدهم . . وإنما مع غيرهم ومثل غيرهم من الأغنياء والمعظماء .

والتقليد يجعلك تفعل شيئاً دون تفكير . فكما ارتدى الآخرون ترتدي أنت . فالتقليد ينذرك من حرية الاختيار . فأنت تضيق بحريرتك ، لأن الحرية معناها أن تفكّر وأن تختار بين هذا وذاك . ولكن التقليد يجعلك وأنت مغمض العينين ، ترتدي هذا الزي أو هذا الفستان دون أن تشغلك بالذك بالسبب الذي دفعك إلى ذلك .

فالموضة القائمة على التفكير تؤدي إلى التقليد الذي هو انعدام التفكير .

وهكذا يصبح السلوك العام «غطاء» . . وتصبح الموضة زياً موحداً . ولكي تقلد أحداً من الناس ، لابد أن يكون لديك شعور خاص بالنسبة له . أن تعاطف معه أو تحترمه أو تعجب به ، أو ترى في تقليده ارتفاعاً بمكانتك الاجتماعية ، فأنت لا تقلد الإنسان الشاذ ، ولا الإنسان الذي يحتقره الناس ، ولا تحاكي المجنون . .

وإذا أنت قلدت إنساناً تحبه أو تحترمه ، فهذا التقليد لا يخلق علاقة اجتماعية . بل إن الذي تقلده يتضاد منك تماماً . وهذه الخادمة التي هربت من سيدتها الفرعونية إذا ارتدت فستاناً مشابهاً ، فإن سيدتها كانت ستطردها من البيت . . لأنها لا تطيق أن تضيق المسافة بينهما للدرجة أن ترتدي السيدة والخادمة ثوباً واحداً !

والذين يتعجلون التقليد ودون وعي ، هم أغنياء الحرب أي الذين إمتلأت جيوبهم فجأة بسبب تجارتهم في أقوات الشعب بعد الحرب .. فهم أغنياء لصوص . ولذلك فقد أطلقت عليهم الطبقة الغنية والأرستقراطية هذه الصفة بإعاداً لهم عن الأغنياء القدماء الذي يملكون حق متابعة الموضة . بينما أغنياء الحرب كما سرقوا أموال الفقراء سرقوا موضة الأغنياء أيضاً . فهم لصوص مرتين !

وبعض أغنياء الحرب يطلبون من السائق أن يكون له زي لا يشبهه زي صاحب السيارة .. ويطلبون من الخادمة أن ترتدي المنديل «أبو قوية» وتختفي شعرها وتتطيل أكمامها وثوبها حتى تختلف تماماً عن سيدتها .. وتحبى المسلاسل التليفزيونية تنتقم من سيدة البيت فتجعلها مريضة عجوزاً، بينما الخادمة شابة جميلة .. ومن الطبيعي أن يتزوجها صاحب البيت . وتعاقب المسلاسل سيدة البيت مرة أخرى عندما تجلس إلى جوار الخادمة أمام التليفزيون تتبرج على إهانتها !!

فنحن في عصر منافقة الفقراء والعاطلين والمحترفين ، وعصر هدم القيم والطبقات وقوانين الفصل بين الطبقات . وعصر الديموقراطية التي لا تقوى على مهاجمة الدكتاتورية الوحيدة الباقية : الموضة .. التي تفرض نفسها بالقوة على كل الناس وتفصل بين الطبقات أول الأمر ثم تذهب الفوارق بين الطبقات . ومن هذا الذوبان تتولد موضة جديدة تفصل بين الطبقات وهكذا .

ولأن الموضة تمشي من فوق إلى تحت . ففي تاريخ الموضة نكت تدل على قوة الموضة وعلى سخافتها أيضاً . وفي أوائل هذا القرن نسي ولي

عهد بريطانيا أن يزور أحد زراري الحاكمة. وقبل ذلك فوجيء ضيوف الأمبراطورة ماريا تريزا النمساوية بأنها تسلم على ضيوفها جالسة. ثم ترفع ذراعها إلى أعلى وتجعل كفها منحنية ليقبلها الجميع. واندهش الناس، لاجلوسها. فقد كان من عادتها أن تفعل ذلك. ولكن لأن ذراعها مرفوعة أكثر من اللازم.

وربطوا بين هذه البدعة وبين حضور أميرات من الأسرة المالكة الفرنسية. وأصبحت موضة. مع أن الأمبراطورة لم تفعل ذلك إلا لأن دملاً كبيراً يوجعها تحت إيطها

وفي سنة ١٨٩٣ ظهرت موضة الجيوب الصغيرة في أكمام بعض العمال. وقد بدأ هذه الموضة أحد أصحاب المصانع البريطانية في سنة ١٨٩٣. وكان «السيكارين» قد اخترعه الأطباء ليتناوله مرضى السكر، بدلاً من السكر والعسل. وكان صاحب المصنع حريصاً على تناول السيكارين. وكان إذا وضعه في جبيه فإنه يعاشر عليه بصعوبة. فما كان منه إلا أن قطع أسوره كم القميص وأدخل فيها حبوب السيكارين.. . وظهرت موضة الجيوب في أكمام القميص والجاكيت.

والموضة تعيش وقوت وفقاً لقانونها: فهي تصدم الناس ويتشون وراءها، وتنتشر بين كل الناس كأنها زي موحد. وهذه هي اللحظة التي تموت فيها الموضة أو من الواجب أن تلقى هذا المصير. ويتحول مصممو الموضة إلى أعدى أعدائها - فهم يريدون أن يتخلصوا منها بسرعة لأنها أصبحت بضاعة راكرة.

قالت السيدة كوكوشانيل مصممة الأزياء المعروفة: لقد كنت أرى

الفتيات الجميلات وقد ارتدين الموضة التي صممتها في شيءٍ كثير من الحب والفزع.. فأنا أحب من يقلدني. وفي نفس الوقت أخاف من أن هذه الفتاة سوف تتخلى عني كأنني مرض أو كأنني أعداً لها.. فأنا جعلتها جميلة وهذه الجميلة هي التي سوف تقتلني بعد ذلك!

قال مصمم الأزياء الفرنسي بيير في مؤتمر الصحافي في مينا هاوس: أني في كل مرة أقدم فستانًا جديداًأشعر كأن صاحبة الفستان هي «عروس النيل» الفرعونية.. سوف أجعلها وأزفها للناس.. ثم ألتقي بها في النيل.. أنا أعرف أنها سوف تموت.. ولذلك يجب أن أستعد لعروس أخرى، وإلا كان ذلك موتاً لي!

وأحسن ما قيل عن العلاقة بين الفستان وبين مصمم الفستان ما قاله كريستيان ديور قبل وفاته في المحاضرة التي ألقاها في «الجمعية الفلسفية الإيطالية» نشرت ضمن موسوعة «رواد الفكر الحديث» قال ديور: أنا أشعر بعدم الأمان. فالموضة عابرة. ولأنها عابرة فأنا أقدمها وأستعد للموضة التي بعدها. ولا أبني لا أعرفكم عمرها، كما إنني لا أعرفكم عمري، فلأنني أقدمها وأنزلفت ورائي.. ولا أقوى على النظر إلى الذين يشاهدون الموضة فهم جميعاً الحладون الأعزاء.. بهم نعيش وبهم ثوت!

ولكنها شروط لعبة الموضة، وشروط أن تكون مصمماً لها.. ففي هذه الدنيا إثنان يجب أن يفهمها قواعد هذه اللعبة: الكاتب والترزي

* * *

أذكر أنني كنت أتناول طعام العشاء في مطعم «أرارات» بموسكو.. وأرارات هو اسم جبل على حدود تركيا وأرمينيا وقد رست عليه سفينة

سيدةنا نوح عليه السلام. وأعجبني صوت المطرب وكان أرمنيا.. صوت حزين شجي يقطع القلب مثل أصوات أبناء الجنوب في إيطاليا وأصوات أهل البحرين. وطلبت من المراقبة الروسية أن تترجم لي كلام الأغنية ..

تقول الأغنية: ليتني شجرة في غابتك، ليتني غصن في شجرتك، ليتني وردة في غصنك، ليتني عطر في أنفك، آه.. ليتني وردة على فستانك إذن لظللت هكذا إلى الأبد.. إلى الأبد.. ليتني.. الله ما أحلى الكلام، وما أكثر سذاجة الشاعر. فهو يتصور أنه إذا كان وردة على فستانها فسوف يظل قريباً منها إلى الأبد. وهو يتصور أنها لن ترتدي إلا فستاناً واحداً حتى الموت.. وهو لا يعلم طبعاً أن الموضة إذا فررت أن تظهر على الفستان جزمة فسوف تخليع الفستان «بوردة» ولو ظل يعني تحت النافذة مدى الحياة! وكما تجبي الموضة من فوق لمجرد التقليد، تجبي أيضاً بسبب الحب والإعجاب والحزن والحرص على إطالة عمر الفقيد، وهذا واضح فيما حدث بعد وفاة السيدة الأولى في الأرجنتين. ماتت القديسة ايفا بيرون يوم خرج الملك فاروق من مصر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وحنطروا جثمانها. وعرضوه على الشعب. وحدث انقلاب عسكري بعد ثلاثة سنوات. فهرب الشعب جثمانها إلى إيطاليا ودفنوها في مدينة ميلانو. ثم طلب زوجها الجنرال بيرون نقل جثمانها إلى مدريد ١٩٧١ ليعود به إلى الأرجنتين. وعاد الجنرال إلى أرض الوطن في ١٩٧٦. وتوفي وحكمت بعده زوجته الثانية إيزابيلا بيرون التي أمرت بإعادة جثمان ايفا إلى الأرجنتين لتدفن إلى جوار زوجها، وفوجشت بأن الزوج قد اختفت جثته ونقلت إلى خارج البلاد.. ثم أعيدت إلى مكانها إلى جوار ايفا بيرون.. وأصرت النساء في الأرجنتين على خلع الموضة الجديدة وارتداء الفستان

الذي ماتت به ايفا بيرون . إنه فستان واسع وله ذيل على الركبة «شانيل»
وله أكمام ثلاثة أرباع ، وخط الرقبة منخفض قليلاً . أما الوسط فمحدد
بحزام واسع وعلى الصدر وردة كبيرة . وفي الأذن قرط على شكل وردة ..
وعلى الرأس طرحة محلاة باللؤلؤ كانت قد ارتديتها عندما زارت
الفاتيكان . وكانت أكبر هزيمة للموضة . وأعظم كسد اقتصادي أصاب
الصناعات الفرنسية

وقد استطاعت المطربة الفرنسية «جولييت جريكو» أن تقف ضد تيار
الموضة الفرنسية وحدها ، فارتديت البنطلون الأسود والبلوزة السوداء ،
نهاراً وليلًا . وظهرت بها في كل كباريهات باريس ولندن ونيويورك .
وسار وراءها الملايين . وحاولت دور الأزياء أن تغريها بتطوير هذا
الزي ، ولكنها رفضت . . وعندما جاءت إلى القاهرة والتقت بالأدباء
وظهرت تغنى في الأوبرا كانت ترتدي بلوزة سوداء بلا أكمام ، وجلسنا
بعد ذلك حوالها لنسأها عن الفلسفة الوجودية التي تحمس لها وعن
الأدب الحديث . . ثم عن التغيير الذي طرأ على البلوزة ، فضحكـت وقالـت
بسـرعة عجـيبة : إن نابـليـون قد حـطمـ أـنـفـ أبوـ الـهـولـ . وأنـتمـ قـطـعـتـمـ أـكـامـ
بلـوزـتيـ اـنتـقامـاـ لـذـلـكـ !

فقد كان الجحوارا جدا في يوليو ١٩٥٤ .

والموضة تمشي وراء القوى . . ولذلك خرجت من بلاط الملوك .
وعندما كانت إسبانيا أقوى دولة في أوروبا ، سارت وراءها الموضة .
وعندما استعادت بريطانيا قوتها البحرية ، اتجهت إليها العيون وسارت
وراءها نساء العالم .

ولكن إسبانيا كانت تضع المرأة في مؤخرة كل الصور. واللوحات الفنية.. أي أن المرأة تحيي وراء الرجل. أما في فرنسا فقد تقدمت المرأة كل اللوحات الفنية لأنها تقدمت في البلاط الملكي. وأن لها دوراً كبيراً ونفوذاً قوياً، فتزعمت فرنسا موضة النساء في العالم كله منذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ حتى اليوم.

* * *

ومع الموضة كانت آداب السلوك والليةة وحسن التصرف: الأتيكيت. أي آداب الجلوس والوقوف والانحناء والسلام وآداب المائدة.

ولذلك كان الأتيكيت هو محاولة مستمرة للتوفيق بين الأخلاق والذوق.. والموضة أيضاً: محاولة عقد زواج سعيد بين الأخلاقيات العامة والرغبة في المتعة.. أو إخفاء الرغبات الجنسية بصورة جمالية والإنسان البدائي كان يمشي عارياً تماماً. ولا يجد في ذلك خروجاً على الآداب. بل هذا هو الأسلوب اليومي في حياته. أما في أوروبا فلم يكن ممكناً أن تظهر قدم المرأة أو كعبها قبل مائتي سنة.. وإذا حدث ذلك فهو فضيحة كبيرة. ويقال إن مدام بومبادور التي كانت تشكو من آلام في مفاصلها لم تكشف عن قدمها للطبيب وإنما هو قد استأنفها في أن يلمس أصابعها من فوق جوربها!

ومع ذلك فالموضة لا تخفي من أعضاء الجسم الإنساني، بقدر ما تبرز ذلك.. وعندما هبط خط الرقبة في فساتين العصور الوسطى، أدى ذلك إلى تأكيد بروز البطن والنهدتين.. حتى أن الرسام الألماني ديرر في

لوحته الشهيرة للسيدة العذراء في سنة ١٥١٢ ، قد جعلها ترتدي فستانًا واسع الرقبة .. بل إن خط العنق قد نزل بصورة غير لائقة - ولكنها الموضة في ذلك الوقت!

وظهرت آداب السلوك الاجتماعي الفرنسي مع ظهور «الشوكة» التركية الأصل على مائدة أحد النبلاء .. ورأوا أن شكلها مثل أنياب وحش قد مات منذ وقت طويل ، ولكنها انتشرت بعد ذلك ، ابتداء من القرن الرابع عشر.

ومن آداب اللياقة لا يذكر أحد شيئاً عن دورة المياه ، قيل أو بعد الأكل ، فهناك تعبيرات كثيرة للرمز إلى ذلك .. كأن تضع المرأة يدها على أنفها ، أو على فمها أو على صدرها .. بما يدل على أنها تشكو من شيء ما .. ويفهم الآخرون أنها تريد أن تذهب إلى الحمام .. أو التواليت .. بيت الأدب .. أو بيت الراحة .. أو غرفة التجميل .. أو غرفة البويرة .. أو أنها ذهبت كما تقول العبارة الفرنسية : لترى وجهها أجمل - أي وجهها هي .

بينما كانت الحمامات الشعبية من أيام الرومان والإغريق والأتراك مشاعاً للرجال والنساء معاً .. ثم للنساء معاً والرجال وحدهم .. وفي هذه الحمامات التركية التي تستخدم البخار كانت حياة اجتماعية تجارية وسياسية .. وجنسية أيضاً . أما الحمامات الطبية أو «الصونا» الحديثة ، فهي للعلاج والرشاقة ولبيت بها حياة اجتماعية

* * *

وربما كان الإمبراطور شارلمان في ٨٠٨ هو أول من جدد للطبقات ما يجب أن ترتديه من ملابس ومن مجواهرات.. وفرض عقاباً لكل من يخالف ذلك.. ولكن هذا الإمبراطور لم يدرك أن هناك إمبراطوراً أعظم وأكثر طغياناً هو: الموضة نفسها!

وهو أيضاً أول من أدان تقليد الأجانب. أي تقليد الفرنسيين للألمان، والعكس. وكان السبب عنده هو كراهية الأجانب.. ولكنه لم يدرك المخاطر الاقتصادية التي تصيب الصناعات المحلية بسبب تدفق السلع الأجنبية والموضة الأجنبية والذوق الأجنبي. إن بريطانيا قد أنعمت بأعلى أوسمتها على الشبان المطربين «الختافس» لأنهم كسروا احتكار أمريكا للأغنية وللرقص.. ولأن انتشار أغانيهم وموضة ملابسهم وموضة «الميني جيب» قد عاد على بريطانيا بعدة ملايين من السياح جاءوا يشاهدون بأنفسهم هؤلاء الخنافس وبنات بريطانيا وقد ارتدن الميني جيب «وميكرو جيب» فكسبت بريطانيا في عشرة أعوام عشرة آلاف مليون دولار!

وفي القانون الأمريكي قضية اسمها قضية «هانس» تجمع كل هذه المعاني. فقد ذهب شاب إلى المحكمة يشكوا والديه، ويطلب تعويضاً قدره نصف مليون دولار، لأنهما أساءا تربيته. فلما كان هو ابنهما الوحيد فقد جعلاه يرتدي ملابس الفتيات حتى الثانية عشرة من عمره. ولم يعد الآن يحب ملابس الرجال. وقد تحمس للدفاع عنه محام ناشيء وجد في هذه القضية فرصة للشهرة والظهور في الصحف والتليفزيون. ولكن القاضي قال له: إن أبويك لا يستحقان منك هذا العقوق.. إنك الآن

في الثلاثين من عمرك. رجل طويل عريض ولد شارد. وأراك تلأ العين والنفس بهجة وسعادة.

وقال الابن: إنني أرتدي ملابس الفتيات في غرفة نومي وأتزين بالمجوهرات.. إنني لا أستطيع أن أقاوم الموضة.. وإن كنت رجلاً مكتمل الرجالية. وفي غراميات عديدة. ولكن لا أقوى على رؤية الفتيات وقد ارتدين الملابس العارية. أريد أن أقلدهن تماماً.

وحكم القاضي برفض الدعوى. وطلب أن يخلو بالشاب. وصفعه على وجهه بمنتهى القسوة ثم عاد إلى المنصة وقال للمحلفين والشهود: لقد صفعته على وجهه مرتين. فإن شاء أن يعاقبني فليفعل.. وشجعه المحامي على ذلك. ولكن الشاب أعلن أنه سعيد بذلك، فقد انتظر ثلاثة أيامً أن يضربه أبواه فلم يفعل. ثم تبرع الشاب بكل ما لديه من نساتين لأحدى الجمعيات الخيرية!

تقول الأديبة الأمريكية سوزان سونتاج: يعجبنا نحن النساء أن في رجولة الرجال شيئاً من الأنوثة، وفي أنوثة النساء شيئاً من الرجالية فالجميع يتزينون بالذهب والأحجار الكريمة!

الحجاب لأسباب دينية .. والحجاب الأنثيق .. لأسباب نفسية

لا نعرف إلا القليل جداً عن السيدة «بوران» زوجة الخليفة المأمون. كانت جميلة. غنية. كريمة. وكانت تغنى وحدها وختار الخادمات جيئات الصوت - لا الصورة. ولكن كتاباً عن «حرير السلطان» للأديبة الإيطالية ماتيلدا جالي تتحدث فيه عن الحياة في بغداد وتصف فيه ما الذي كانت ترتديه النساء استناداً إلى ما جاء في «ألف ليلة» وإلى ما جاء في كتاب «الأغاني» من أوصاف المطربات والعشيقات ولكنها تقول إن السيدة بوران زوجة المأمون هي أول من ربط المنديل الحريري حول عنقها.

وليس معروفاً السبب الحقيقي لذلك ولكن من المؤكد أنها «زوجة» .. فكرة خطوت ونفذتها .. ولكن المهم أن ربطه المنديل أصبحت موضة بعد ذلك .. حتى يقال إن الخليفة المأمون وجده مطرباً قد لف منديلاً حريراً أحمر حول عنقه فقال له ما معناه: والله لقد أفسدتك النساء.

ولما ذهب رفاعة رافع الطهطاوي إلى باريس لاحظ أن المرأة الفرنسية تشد صدرها وظهورها. وأنها تضع أعوداً من الحديد بين ثديها. ولم يحاول أن يجد تفسيراً لذلك. وإنما هو قد لاحظ وكتب . ولوذهب الشيخ الطهطاوي إلى لندن في نهاية القرن التاسع عشر لرأى الملكة فكتوريا قد

شدت ظهرها وصدرها ونفخت البلوزة والفسستان وارتدت الملابس الواسعة ، والفساتين فوق الفساتين. فكانت موضة عالمية. أما سبب ذلك فهي أنها أرادت إخفاء تقوس في الظهر وتضخم في الصدر.

وهذا هو قانون الموضة إنها تمثي من فوق تحت: من «نزوات» الملك إلى النبلاء إلى الأغنياء إلى الشعب .. ومن البلاط الملكي القوي إلى الأسرة المالكة الأضعف، ومن عاصمة إلى عاصمة.

وإذا كانت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ قد جعلت الموضة هي ملابس الشعب الخشنة البسيطة، فإن توقي نابليون الأول عرش فرنسا، أعاد الآهية والفحشة إلى كل البيوت .. وأعاد الصور والساحات الواسعة والقائمه الضخمة وعدل الدستور القديم الذي كان يجعل المرأة تابعة للرجل. ويحرومها من حقوقها في أن تبيع وأن تشتري. وفي سنوات حروب نابليون انقطعت الموضة عن بقية العواصم الأوروبية. ولكن عندما سقط نابليون، اتصلت العواصم بعضها بعض وتقدمتها باريس. ولا تزال حتى اليوم .. وعلى عكس ما يحدث في عالم الحيوان والطيور، فإن الرجل أقل حفاوة بمظهره. ففي عالم الطيور تجد أن الذكور أكبر حجماً وأطول ريشاً وأكثر الواناً: تجد الديك له تاج من اللحم فوق رأسه إلى جانب الألوان الجميلة في الذيل والعنق .. وتجد الأسد أكبر حجماً. وله رأس ضخم ، وحول الرأس «معرفة» .. إلا في عالم الإنسان فالرجل أقل اهتماماً بمظهره.

ولذلك أسباب كثيرة.. منها أن الرجل يريد أن تكون المرأة هي المغربية وهي المثيرة.. وعليها هي أن تدور حوله وأن يتظر وأن يكون هذا هو دور المرأة. وبذلك يعرضها لسيطرة رجال الدين. الذين قالوا مع

ظهور الديانة المسيحية: إن المرأة هي باب الشيطان وأن احتقارها وعذابها وإذلالها واجب على كل رجل!

وإذا تظاهر الرجل بطاعة الدين، فإنهم حريصون على أن تبدو المرأة متبردة عاصية. مع أن عصيانها وقردها من صنعه هو وإرضاء لشهوانه.

ولكن حدث في العصور الوسطى، مع الشعور العام باليأس والضيق بالحياة، أن فرض رجال الدين «زيا قاتماً» على كل الناس. فارتدوا الثوب الأسود والبني القاتم أو الأبيض. وجعلوا القماش خشناً من الكتان أو التيل أو الصوف أو الوبر - زهدًا في الحياة وتعديلاً للجسد، وبعدًا عن الإغراء.

وفي الحروب الصليبية حدث تغير هام. فقد عاد المحاربون من الشرق وقد عرّفوا الملابس الحريرية وعرفوا العطور ووضعوا العقود والأقراط والأساور.. واستحضروا معهم الدهون والمنشطات من خلاصة الحيوان والأعشاب الشرقية.

ولكن التحولات الاجتماعية التي دفعت بالمرأة الأوروبية خارج البيت، قد جعلتها تتخفّف من ملابسها ومن قيودها أيضًا. فوجدنا الفساتين قد اتسعت. فخط الوسط قد ضاق قليلاً. وذيل الفستان قد ارتفع. ولم تعد المرأة ترى من الضروري أن ترتدي أكثر من فستان واحد. كما أن أحد عبارقة الأزياء قد أطال كعب الجزمة، مما جعل المرأة تدب على الأرض وفي نفس الوقت ترفع رأسها وصدرها وتهتز. وببدأ الرجال يدخلون في منافسة علنية للأناقة والاستعراض.. ولم

يعرف التاريخ رجلاً مثل الإنجليزي «بو» بروميل (١٧٧٨ - ١٨٤٠) فهو الأنيق الأول في التاريخ. كان يفصل الحاكمات عند ترزي والبنطلون عند ترزي آخر والصديري عند ثالث.. أما القمصان فهي من تصميمه هو.. وكذلك الجزمة. وكان ينفق أمواله وأموال أصحابه من النساء على مظهره الفخم. وهو أول من ابتدع الكثير من مصطلحات الأناقة. فقد كان من الضروري أن يترك مذكرة لخادمه لكي يعد له ملابسه قبل أن ينهض من نومه. وكان الخادم يسهر الليل كله يحاول أن يوفق بين الملابس التي يريد أن يرتديها سيده.. وكان عليه أن يلاحق الخياطين في كل مكان وأن يبيع أثاث البيت ليدفع لهم الأجور.. وأن يفترض. وفي أحد الأيام وجد «بو» بروميل خادمه قد انتحر لأنه لم يعد قادرًا على خدمة سيده.. أما سيده نفسه فقد هرب من الدائنين ومات مت蛔راً وقد فرش الغرفة بعثات من الحاكمات والبنطلونات و«البشيرت» أي «قميص بو» الذي نرتديه الآن سمي كذلك نسبة إلى «بو» بروميل.

وهذا الرجل غواچ للرجل «العايق» أو «المعجاني» أو «الرجل الذئب» الذي نشاهده في الأفلام وقد ارتدى السروب فوق القميص والبنطلون أو على اللحم وقد سوى شعره وتعطر ووقف وراء الباب في انتظار الضاحية الجميلة.

وقد أدى اختراع المواد الكيماوية الجديدة إلى خلق الخيوط الصناعية والنایلون والحرير الصناعي وإلى ابتداع صبغات جديدة.. كل ذلك انتقل بسرعة إلى فساتين المرأة. وبسبب الحساسية للمواد الكيماوية المستخدمة في الملابس الجديدة، عادت المصانع تضيف القطن إلى الحرير الصناعي، وعادت تخفف من الصبغة الكاوية للبشرة. وبعد أن اعتادت

المرأة على الفحم والشحوم رجعت إلى الحرير. فالمصانع تدور ولا بد أن تبيع ، والرجال قد استراحوا والنساء أيضاً، ولا بد من أن يكافي الإنسان نفسه بعد هذا العناء من الحررين.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية بعد خراب الدنيا وموت ثلاثة ملءوناً، وتوقف المصانع ، انتاب الناس شعوران متضادان: الصيق بالحياة وبالإنسان والكفر بالمثل العليا. ثم الاقبال على الحياة والملذات بعد أن حرموا منها.. ولذلك كانت الفساتين تشي في التماهين متضادين: التخفف الشديد والتكدس الشديد.. فساتين قصيرة مختصرة خفيفة في المدن ، وفساتين فوق فساتين في الريف.. الفساتين الخفيفة دليل على الحرية والانطلاق.. والفساتين المكدسة دليل على عدم الشعور بالأمان ..

وقد وصفت السيدة عصمت ارتغان في كتابها «جميلات محمد علي» ما الذي كانت تعانيه الملكة نازلي من الحساسية الشديدة بسبب بعض الأقمشة . وتقول المؤلفة إن الملكة نازلي هي رابع امرأة في التاريخ كانت تستحم في اللبن .. الأولى هي بلقيس ملكة سبا والثانية كليوبترا ملكة مصر والثالثة راقصة الباليه الأمريكية إيزادوره دنكان.

وبو- برومبل هو الذي ابتدع القبعة العالية وانتشرت.

ولكن لماذا يضع الإنسان القبعة وينخلعها عند التحية.. ولماذا يضع الباروكة إذا كان قاضياً أو إذا كان ملكاً؟

الجواب: أن الإنسان يخلع القبعة كنوع من التواضع ، لأن القبعة تضيف بضعة سنتيمترات إلى طول الإنسان. فإذا خلعها نقص طوله ، أي

أصبح أقصر قليلاً.. فهذا مظهر من مظاهر التواضع أمام الغير.. وكذلك إذا انحنى فالانحناء معناه: أن ينقص طوله.. وأن يكون أقل.. ومعنى ذلك: إني احتراما لك، فإنني أنزل عن بعض طولي وأنظر إلى الأرض أمامك، بدلاً من أن أنظر إليك: خشوعاً وخوفاً وتذللاً

وكذلك فإننا أمام الكبار «نزرر» الجاكلة.. أي لنكون أقل «عرضياً» أي أصغر قليلاً.. إذن أنت تخني رأسك وتزrer الجاكلة.. وهكذا تكون أنقص طولاً وعرضياً.

أما ارتداء الباروكة فقد يديم جداً، الفراعنة كانوا يفعلون ذلك. وكانت الباروكة للوقاية من الشمس، كأنها طاقية أو بريطة.. وكان الرجل الأصلع يتغطى بها أيضاً. والملائكة حتشبسوت وضعوا الباروكة لكي تبدو وقراء كما لو كانت رجلاً. والملك لويس الثالث عشر كان أصلع، وقد فرض الباروكة على الآخرين حتى الذين عندهم شعر، كان يحكم عليهم أن يقتصر وليضعوا الباروكة!

وتطورت صناعة الباروكة، فكانت أولاً من شعور الأسيويات فبنات الصين وأندونيسيا يقمن بتطويل الشعر ثم قصه وبيعه وتصديره إلى أوروبا لتعاد صباغته باللون الذهبي.. وبعد ذلك ظهرت الشعور الصناعية: الباروكة الطويلة والقصيرة.. و«البوستيش» أي «الخصلة» التي توضع تحت الشعر الطبيعي.. وذلك حماية لشعر المرأة من أدوات التسريحات الحديثة التي إذ لا بد من استخدام «شوان» أي مجفف ساخن للشعر المغسول بالزيوت حتى يتخد الشكل المطلوب.

وكما أن القوة تفرض الموضة.. قوة الأسرة المالكة أو الطبقة المالكة أو

الأغنياء .. أو قوة الدولة نفسها، فكذلك الظروف القرية أو الأحداث القاهرة، تفرض أسلوباً في الحياة والتفكير أيضاً ..

فماذا حدث حتى انتشرت موضة الفساتين «الميني» في أوروبا في الستينيات.. والزي الموحد للرجال والنساء في السبعينيات.. ثم ظهور الحجاب في الشرق الأوسط؟

الأسباب واحدة.. وإن كانت النتائج مختلفة.. وبعد الحرب العالمية الثانية كان هناك نوع من الكفر السياسي والإلحاد الاجتماعي والقرف من الإنسان.. فكل الصرخ العلنية والمذاهب السياسية قد انهارت.. أي انهار الإنسان أمام الإنسان.. واجتاحت الإنسان موجات من اليأس والتشرد والرغبة في الموت.. ثم تحول التشرد إلى نوع من الغضب، وتحول الغضب إلى سخط ، والسخط إلى تمرد.. والتمرد إلى عصيان مدني ضد الدولة ورجال الدين ورجال الحرب والأب والأم والمدرس. فرأينا في أوروبا الشبان يفعلون بالضبط عكس الذي اعتادوا عليه.. لا يذهبون إلى المدرسة والكنيسة ويطلبون أظافرهم ولا يحلقون رءوسهم ولا يعودون إلى البيت وإنما ينامون على الأرصفة وفي الحدائق.. ويعايشون الفتيات بلا زواج ويكون لهم أولاد.. ولا تكون لهم وظيفة.. ثم يهجرن البيوت والمدنية إلى الجبال والكهوف.. ثم يغيبون عن الحياة بتعاطي المخدرات والإسراف في الجنس، وإذا حاول الآباء أو السلطة أو الكنيسة أن تسترد هم طالبوها بالشمن.. بأن يدفعوا مقابلأً مالياً لذلك. فيدفع الآباء، إشفاقاً على الشبان الصغار. ويعود الشبان إلى المدرسة ولكنهم لا ينامون في البيت.. ثم يهاجرون سراً إلى بلاد أخرى، ويهربون من الجيش..

ويرفضون أن يحاربوا تحت أي لواء لا يفهمونه.. وتطبيقاً لأية نظرية لا يصدقونها فقد كذب كل الرجال على كل الأطفال والشبان.. ولم يعد هناك سبب مقبول لأن يموتوا من أجل ما لا يفهمون وما لا يحبون وما لا يصدقون.

وكان ذلك واضحاً في الأزياء التي هي قلب لكل المألوف. وقد قلدت نساء العالم موضات لندن ولكن أحداً لا يعرف السبب الحقيقي الذي دفع الشباب الساخط إلى ذلك. فالموضة انتشرت، لأن الموضة قوة ذاتية لا يقوى أحد على مقاومتها.

وظهور الحجاب في الشرق الإسلامي له نفس السبب. ففي إيران مثلاً كان السخط شديداً على محاولة «التغريب» أو «الفرنسية» التي فرضها شاه إيران بالقوة على الشعب. ولكن الشعب وجد هذا التيار ضد الدين.. يخفي وراءه أهدافاً تجارية.. وتتولى التجارة أفراد الأسرة المالكة. فكانت الأسرة المالكة في إيران تبيع الشعب لتكتسب ولوأدى ذلك إلى هدم الأسرة والقيم الدينية.

وليس معنى ذلك أن التمسك بالدين حديث جداً. ولا الاحتشام يرجع إلى عشر سنوات فقط. ولكن الاحتشام والتمسك بالقيم الأخلاقية فقد يمين جداً. والحرص على الأسرة وعلى البيت وعلى الزوجة والأولاد يرجع إلى حياة الإنسان في الكهف. أي عندما قال الإنسان هذا لي.. وهذا لك.. هذه حدود ملكتك، وتلك حدود ملكتك.

ولكن ححدث في الشرق الأوسط في أعقاب الحروب المتواترة والهزائم المتكررة أن أصبح اليأس عميقاً، وهذا اليأس سببه أن المذاهب السياسية

والفنية والاقتصادية قد عجزت عن تحقيق السلام النفسي والاجتماعي
وعجزت أيضاً أن تحقق العدل بين الناس فكان الغضب عاماً
والسخط غامراً. ومن مظاهر ذلك العودة إلى الدين ..

ولما كثرت القواعد والقوانين والكتب، كان لا بد من العودة إلى الكتاب الواحد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والقانون السماوي الواضح الصادق. أي لا بد من التمسك بكتاب الله والدين والله . وأوضح صورة لذلك أن ترتدي الفتاة الملابس المحشمة .. وأن تخفي شعرها وملامح جسمها. فلا تلتفت العيون إليها.. ويكون هذا الذي يميزها عن غيرها ويكون عرضاً يارزاً لوجهة نظرها لأن لها رأياً دينياً وأن هذا الرأي يحتج على الأوضاع القائمة .. وأنها حريصة على أن تؤكد ذلك .. وازدياد عدد المحجبات هو تعبئة عامة ، صامدة وتنظيم لصفوف المعترضين والمحتجين والساخطين والمرتضىين.

ونحن لا نعرف بوضوح كيف كان زيج المرأة المسلمة على أيام الرسول عليه السلام. ولذلك فالزوج الذي ترتديه المرأة المحجبة اليوم هو أقرب إلى زيج الإرهابيات المسيحيات . ولكن أحداً لا يشعر بحرج من ذلك .. بل إن هناك نوعاً من الارتياح لهذا المعنى . فكانت الفتيات المسلمات قد أضفن إلى صفوهن راهبات مسيحيات وكلهن في معسكر واحد ساخط على الحياة الحديثة بعيدة عن الدين .

وكانت دور الأزياء أكثر ذكاء وأسرع إلى الاستجابة إلى هذه الرغبة الخفية عند الفتيات المحجبات، فأقامت عروضاً لأزياء المحجبات وقدمت فساتين جميلة الألوان و مختلفة الخطوط .. ومعنى ذلك أن

المرأة بدأت تتفنن في تجميل هذا الزي المحتشم.. فهي تهرب من إحساسها بأن الزي قد أصبح «يونيفورم»- أي زي موحد- ولذلك فهي تحرض على الخطوط الطويلة الواسعة.. ولكنها في نفس الوقت تريد أن تضيف إليه لمسات من ذوقها ومن إحساسها بالجمال ومن لفت العيون إليها أيضاً!

وهذا يدل على أنها خففت قبضتها على نفسها. فليس الدين ثوباً طويلاً ولا هو إخفاء للشعر وإظهار للعينين والشفتين والكفين. وإنما الدين في القلب، بينك وبين الله وفي نفس الوقت هو الاحتشام العاقل والوقار اللطيف.

قد كان التحجب لأسباب دينية، أما التحجب الأنثى فلا أسباب نفسية.. ومن الطبيعي أن يكون لهذا التحجب الأنثى رد فعل عنيف قريباً.. بأن يظهر حجاب غير أنيق. حجاب جاف يؤدي إلى ارتداء ملابس لا تكشف شيئاً. وبذلك تميز نوعية جديدة من الفتيات المتشددات عن الفتيات اللاتي هن أقل تشديداً.

حتى هذا السلوك يتمشى تماماً مع قوانين الموضة. وهي أن الموضة تنشر تمهيداً لأن تنكمش أي تعيش واسعة النطاق استعداداً لأن الموت - لأسباب جمالية أو اجتماعية أو دينية أو عسكرية أو علمية.. أو تجارية!

القانون يحرم إحراق موضة الرئيس الأمريكي نيكسون

شيء غريب ذلك القرار الذي اتخذه شاب في العشرين من عمره لا يملك إلا قطعة قماش تصلح لأن تكون خيمة. فهاجر ومعه هذا القماش من ألمانيا إلى أمريكا. عرض القماش للبيع. فلم يشتري أحد. ذهب إلى مناجم الذهب. ليرى الذهب الذي يحلم بأن يكون واحداً من الذين يملكون منه الملايين. لم يلتفت نظره الذهب. ولكن لفت نظره أن هناك علاقة بين عمال المناجم وبين القماش الذي معه. فالعمال في حاجة إلى بنطلونات متينة ثقيلة. هنا فقط أدرك «ليفي اشتراوس» الألماني اليهودي، أن هذا هو القماش الذي يناسبهم. وفتح دكاناً لبيع البنطلونات المتينة القماش. والقماش من نوع «دنيم» الفرنسي - نسبة إلى مدينة «نيم» . . وأقبل العمال يشترون البنطلونات بالمئات . . وبالألاف . . واتسع الدكان وانتقل البنطلون «الجينز» الأزرق من العمال إلى الموظفين، وكان ذلك في سنة ١٨٥٣.

وانتقل ليفي إلى الشاطئ الآخر من أمريكا وفتح محلاً أكبر حطمته وأحرقه الزلازل . . وتوفي ليفي اشتراوس سنة ١٩٠٢ . . وتولى إخوته وأولادهم تسويق البنطلون الذي انتشر في أمريكا كلها . . وفي

سنة ١٩٣٠ ارتدت المرأة الأمريكية البنطلون الجينز. وظل هذا البنطلون بشكله وقماشه مخلوطاً بخيوط النحاس إلى يومنا هذا. أي أنه أطول موضة عرفها الإنسان - ١٣٣ عاماً!

ربما كان زي الحرس البابوي أطول عمرًا. فالحرس السويسري الذي يحرس الباب يرتدي زيًا من تصميم الفنان العظيم ميكيل أنجلو. فلم يتغير هذا الزي ٤٥٠ عاماً. فقط سنة ١٩٧٥ أدخلت بعض التعديلات على هذا الزي ليتمكن الحراس من وضع القنابل اليدوية في جيب البنطلون أو في جيب الحاكمة!

ولكن زي الحرس البابوي لا يوصف بأنه موضة - وإنما هي موضة محدودة يراها الناس ولا ينقلونها. لأنها تشتغل بمن يرتديها وظيفة خاصة. ولذلك بقيت هذه الموضة محصورة بين جدران الفاتيكان - للمشاهدة وليس للتقليد!

ولكن الذي يساعد على انتشار الموضة «سيولة المجتمع». فالمجتمع تساب طبقاته ببعضها في بعض. فقد سقطت الحاجز بين الطبقات والفاصل بين الفئات.. وانفتحت العواصم على المدن والمدن على القرى، والطبقة العاملة على الطبقة الكاتبة على الطبقة الحاكمة في أماكن العمل واللعب والزيارة.. ورأى الناس بعضهم بعضاً عن قرب.. وعرفوا بوضوح ماذا يرتدون ويأكلون ويفكرون. ولذلك كان الالقاء بينهم على أشياء كثيرة. وانتقلت الموضات من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى - وهذا هو أكثر انتشاراً. ظهور الطبقة العاملة القرية جعل الموضة ترتفع من أعلى إلى أسفل.. وانتشار البنطلون «البلوجينز»

أكبر وأطول وأعمق دليل على ذلك. وانتشار القمصان بلا ياقات، والياقات بلا كرافتات، دليل آخر.

وبسبب تحديد ساعات العمل أصبح لدى الناس وقت للفسحة، والفسحة لا تكون بالجلوس في البيت، وإنما بالخروج إلى الشوارع والأندية والجلوس في المقهى. والشوارع هي أكبر فرصة لعرض الأزياء، والنساء عندما يقفن يتفرجن على الفترinetات، فهن عارضات أزياء، يتفرجن على عارضات الأزياء. ولذلك فدور الأزياء تطلق المانيكانيات في الشوارع يعرضن ويستعرضن، والنساء يتفرجن على العارضات، والرجال يجلسون في المقهى يتفرجون على النساء اللائي يتفرجن على عارضات الأزياء. وتقوم التليفونات بما يتبقى من دعاية للموضة الجديدة. فكل سيدة تمسك التليفون وتتحدث عن الذي رأت وبكل دقة. وهكذا في ليلة واحدة تكون العاصمة قد عرفت آخر خطوط الموضة، دون مجهد تبذله دور الأزياء!

وقد أدى انتشار الكهرباء بعد الحرب العالمية الأولى إلى نشر الموضة.. ففي عروض الأزياء تحت الأضواء ترى المرأة بمنتهى الدقة تفاصيل الموضة. وقد تبدو هذه العبارة عادمة الآن . ولكنها لم تكن كذلك قبل الحرب العالمية الأولى. فكانت الأضواء قليلة. والمصابيح أقل انتشاراً. ولم نعرف معنى الإضاءة وخطورتها إلا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان من الضروري إطفاء الأنوار أثناء الغارات الجوية. والموضة لم تتوقف حتى أثناء الحرب. ولكن كان انتشارها ضيقاً، لأن أحداً لا يرى أحداً.. فالدنيا مظلمة وفرص الاستعراض ضيقة. مثلاً:

أثناء العرض العسكري للمجنادات بالقرب من لندن انتشرت موضة ربط المنديل حول المعصم. ولم يكن ذلك مقصوداً. فقد فوجئت إحدى المجنادات بأن حاكمها بلا جيوب فلم تجد مكاناً تضع فيه منديلاً لها فربطته حول معصمها. وفي اليوم التالي ظهرت إحدى أميرات الأسرة المالكة وقد ربطت منديلاً وردياً حريراً حول معصمها.. واستغرقت هذه الموضة ثلاثة سنوات في ظلام لندن لكي تنشر بين الناس بعد ذلك!

والطبقة العاملة القرية رأت من حقها أن تكون لها موضة خاصة. هذه الموضة تفرض نفسها على بقية الطبقات. ظهر البنطلون أبو حمالة، بشرط أن تكون الحمالة عريضة غليظة لا تتماشي مع الرقة والنعومة التي تفضلها الطبقة المتوسطة تقليداً للطبقة الغنية.

وعلى الرغم من قوة الطبقة العاملة، إلا أنها ثروة للطبقة المترددة في اتباع الموضة. فهي حديثة العهد بالقيادة. ولذلك بلأ مصممو الأزياء إلى أن يجعلوا الموضة صارخة الألوان جريئة الخطوط. ففي مواجهة التردد لا بد من الحسم. فجاء الجسم من مصممي الأزياء. وفي مواجهة هذا القرار الفاضح لا بد من الطاعة. وانتقلت الموضات الشاذة بين الطبقة العاملة إلى الطبقة المتوسطة. وتولى نشر مثل هذه الموضة أبناء العمال من الشبان. فكانت الجماعات الجريئة: الخنافس والقمصان السوداء والضعفاء ونصف الأقوباء والبنكس والشعور الزرقاء وهامش الطريق، وكلها أسماء جماعات ترتاد شوارع العاصمة الأوروبية.

وسائل الإعلام هي إحدى قوى الضغط الاجتماعي على كل الناس في الصحف مساحات للأزياء، والمرأة عادة أكثر تحركاً نحو الموضة من

الرجل . والمرأة دون الثلاثين تتمسك بخطوط اليوم ، ودون الخمسين تتمسك بخطوط الأمس ، وفوق الخمسين تحرض على خطوط أمس الأول .

وتنقل الموضة أيضاً محاكاة للنجوم ، نجوم السينما والمسرح ونجوم المجتمع - أي زوجات الأغنياء والأقرياء . وفي ثلاثينيات هذا القرن كانت الممثلة المعروفة جريتا جاربو مثل الأعلى لكل امرأة أنيقة . كما كانت حلم كل رجل . فشعرها القصير . وساقاها ، وذيل فستانها ، وفتحة الصدر ، و «شق القمر» على كتفيها . . وحاجبها الرفيع وعقدها الملفوف ثلاثة حول عنقها :

وفي الخمسينيات كانت بريجيت باردو نجمة السينما الفرنسية هي الموضة : شعرها الطويل وشفتها الغليظتان وقوامها النحيف وجلوسها حافية القدمين وركوب سيارتها بدون حداء ، وفستانها الذي يتذلّى بلا كسرات في الوسط ، وقميص نومها الذي يشبه العباءة ، والكحل الثقيل حول عينيها .

وقد استخدمت الصحف والتلفزيون نجوم السينما في الدعاية للعطور والصابون والمشروبات والمأكولات . ولأن الناس لديهم إعجاب جاهز هؤلاء النجوم فما يفعلونه تقلده الملايين بلا تفكير .

مثلاً الرئيس الكوبي «فيدييل كاسترو» كان من أحلامه أن يكون مثلاً - ومعظم الزعماء مثلكون استعراضيون ، وهو يتوجهون عادة إلى الجماهير يؤثرون فيها ، ويقودونها ، ظهر كاسترو في فيلم «السابقات الفاتنات» بطولة ملكة الاستعراض المائي استير ولیامز . وكان دوره متواضعاً جداً .

هو أن يقترب من حمام السباحة ويساعد أحد الممثلين على خلع الجاكيتة والبنطلون ثم يلقي به في الماء - انتهى دور كاسترو. وببدأت المراة النفسية عنده. وكان ذلك آخر مرة ظهر فيها على الشاشة. ولكنه عاد إلى بلاده وفي خياله صورة البذلة التي كان مرغباً على أن ينزعها من فوق أحد الممثلين .. فاختارها لنفسه وفرضها على الشعب الكوبي زياً رسمياً

فالذى لم يتحقق سينمائياً، حققه بالسياسة .. أي أنه إذا لم يتمكن من أن يفرض هذا الزي على الناس إعجاباً به كممثل، جعله زياً شعرياً لأهل كوبا، إعجاباً به كزعيم سياسي !!

ومن المؤكد أن الغرض من الأنفاس هو لفت النظر. لفت نظر الرجل إلى المرأة والمرأة إلى الرجل. أي الجاذبية الجنسية، جنس يجتذب جنساً آخر. ولذلك لم تسترح المرأة في أن يكون لها «يونيفورم» أي زي موحد.. لأن الزي الموحد معناه أنه لا فرق بين واحدة وأخرى. لا فرق بين الجميلة والقبيحة، الرشيقية والبدنية. وفي استطاعتك أن تلاحظ ذلك عند طالبات المدارس الثانوية. ففي هذه المرحلة تكون الفتاة أنشى صغيرة فهي تحتم على أن تبرز هي من تحت «المريلة» فتجعل المريلة قصيرة ليظهر فستانها من تحتها أو تجعل فتحة الرقبة واسعة، أو أنها تضع عقداً يتبدل على صدرها - وكلها حيل لكي تبدو هي تحت اليونيفورم. أو أنها ترتدي الكعب العالي، أو تضع وردة في شعرها أو تضع الماكياج. والمعنى أنها ت يريد أن تقول إنها كأنثى تستطيع أن تتسلل من تحت اليونيفورم. أي أنها ترفض هذا الزي، وإن كانت غير قادرة على خلعه نهائياً.

ورفضت كثير من العاملات أن يكون هن زي موحد. ورفضت

طالبات الجامعة أن يرتدين زياً موحداً. لأن ذلك قيد على حريتها، وعلى شخصيتها وحرصها على أن تكون «فردية» متميزة عن غيرها ولا شيء استطاع أن يقرب المسافات بين النساء، في كل العصور مثل: الماكياج.

والماكياج - أي أدوات التجميل - هي أعظم صناعة في العالم، والمرأة تشتري بعشرات ألوف ملايين الجنيهات.. كل سنة: العطور والأحمر والأبيض والأزرق والكريات وغيرها. وهذا الماكياج هو الذي غير معالم الوجه.

وكان الماكياج في متناول القادرین أما الآن فهو في حقيقة كل سيدة من أية طبقة.. حتى المرأة التي اختارت الحجاب، لم تستطع أن تمنع عن استخدام الماكياج.. وسبب ذلك أنه لما انتشر الحجاب، أصبح نوعاً من اليونيفورم - أي الزي الموحد - فكان من الضروري أن تشق هي هذا الحجاب. وأن تبرز هي من ورائه ذات وجه متميز وخطوط بارزة، فكان الماكياج.. بل إن الراهبات يستخدمن الماكياج الخفيف وبتصريح بابوي!

فالمرأة هي المرأة، والمرأة لا تستطيع إلا أن تكون أنسى، وإلا أن تكون «غازية» لقلوب الرجال حتى لو شنقوها - كذلك فعلت كليوباترة قبل أن تموت بسم الأفعى - وكذلك فعلت ماري أنطوانيت قبل شنقها، وكذلك كل الملكات قبل عرض جثائهن على الناس.. أي أن المرأة تريد أن تبدو جميلة لآخر لحظة ويكون أثرها في عيون الناس، إطالة لعمرها بضع لحظات.

وقد أدت الحروب الأمريكية في آسيا إلى انتقال الخطوط الآسيوية إلى أمريكا وأوروبا. فالقوات الأمريكية عندما ذهبت إلى كوريا الجنوبيّة، وعاد الجنود بخطوط الحاكمات والبيات إلى ملابس الرجال والنساء.. كما انتشرت بدلة «تسى تونج» موضة عند الجنود، وعند المدنيين في أمريكا أيضاً - أي الحاكمة المزررة دائمًا والبسطلون الأسطواني المنفوخ... بل إن بعض الأمريكيةاتكن يستخدمن الماكياج الذي يجعل الوجه شاحباً كالصينيات - أو شاحباً كأنه الحب والعشق. قد قتلهن عذاباً على غياب المحبوب الذي يحارب بعيداً عن الوطن!

أما المرأة اليابانية فسارعت إلى ارتداء الفساتين القصيرة وفتحت الصدر. وصيغت الشعر ذهبياً، ثم انتشرت عمليات تجميل العين الآسيوية المتحرفة، لتكون قريبة الشبه من عيون الأمريكية.

وكذلك عمليات التجميل في الأنف والشفتين والأذنين. وقد أصبح طب التجميل من أكثر فنون الطب رواجاً في الشرق والغرب.

وقد نشر بعض العلماء في اليابان أنه من الممكن تغيير لون البشرة الصفراء لتكون شقراء ، والسوداء تكون بيضاء. وأن اللون ليس سجناً أبداً لا يمكن الخروج منه، وأن هناك حاولات لتغيير في تكوين الخلية يؤدي إلى أن يكون للإنسان اللون الذي يريد. وأن هذا اليوم قريب. ومعنى ذلك أن اللون مشكلة.. وأن هذه المشكلة لها حل. فالأسف يزيد أن يكون أبيض ، والأسود كذلك ، وهكذا يمكن رفع هذا الظلم عن ذوي الألوان غير البيضاء. وحينما تختلف الموازين الاجتماعية.. فاللون عقدة. وهذه العقدة مسؤولة عن كل مظاهر العنف والعدوان بين العناصر..

مثلاً في عالم الحيوان: إذا ظهر ديك فجأة بين أنواع من الديوك مختلفة عنه في الفصيلة، أي في اللون والحجم، فإن الديوك تلتف حول الديك الغريب وتضر به بقصد أن تطرده، لأنه غريب شاذ.. غريب الحجم.. وشاذ الألوان.. ولا تزال الديوك تتکاثر عليه حتى يهرب الديك الشاذ.. وكذلك الكلاب والقطط والذئاب والثعالب. لماذا لأن هذا الحيوان غريب عنها وغرابته واضحة في لون ريشه أو في لون شعره أو في رائحته.. ولذلك يجب أن يتلاشى لأنه شاذ!

ولكن الماكياج وعمليات التجميل قادرة على جعل الشاذ عاديا، فالماكياج يقرب المسافات ويزيل الفوارق، وكذلك عمليات التجميل.

وإن كانت الموضة عكس ذلك تماماً. فالشاذ هو بداية الموضة. وبدلاً من أن تطرد الأغلبية هذا الشاذ، فإنها تقليده وتحاكيه، فلا يكون شذاً، وإنما يكون مثل كل الناس، أو على الأصح يكون كل الناس مثله!

ومن النواادر التي يرددتها مؤرخو الأزياء ما جاء في كتاب د. ألبرت روتشاو بعنوان «الدلالة النفسية والاجهاعية للموضة» أن ما فعله الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون في البيت الأبيض هو أكبر دليل على أن الموضة ليست بالأمر.. وإنما الأمر يجيء من فهم سليم ودقيق لسبيولة المجتمع، وتحركاته وتقلباته. وما فعله نيكسون يدل على غرابته وشذوذه هو. فقد أصدر قراراً بتغيير أزياء الحرنس - بتغيير لون القماش والحزام والزرابير. ولم يكدر نيكسون يختفي من البيت الأبيض حتى تكدرست هذه الملابس في المخازن. وتجمعت بها الحشرات. وليس في استطاعة أحد أن

يشعل النار فيها، لأن القانون الأميركي يحرم حرق ممتلكات الدولة، لأي سبب.

ويقول د. روتشاو إن فكرة تغيير ملابس الحرنس في البيت الأبيض لم تخطر على بال رجل آخر مثل الرئيس فورد، الذي عمل أول حياته «مانيكان» للمصورين والمجلات الرياضية لإعلانات عن الأزياء والكريات.. وبعض المؤرخين يقول: إن هذه الملابس التي صممها الرئيس نيكسون تشبه ملابس أحد ملوك ألبانيا - ومن المعروف أن الرئيس نيكسون ينحدر من الأسرة المالكة الألبانية -. وكان من الممكن أن تنتشر هذه الموضة الألبانية في البيت الأبيض، لو أن هناك ما يبرر ذلك كما حاولت جاكلين كينيدي الفرنسية الأصل، فقد جعلت أثاث البيت الأبيض فرنسيًا يرجع إلى عصر الإمبراطور نابليون الأول.. ولكن، دون فهم لمعنى الموضة ومقدماتها وانتشارها وظروف استمرارها، كان قرار الرئيس الأميركي.. الذي لم يعش ثلث سنوات - هو الموضة -!

الوجودية: احتياجاً على دكتاتورية الموضة؟

السيدة هاجر الفرعونية زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام لها مأساة. كانت خادمة لزوجته سارة. وكانت سارة لا تنجذب فنصحت زوجها أن يتزوج الخادمة. وتزوجها. وحملت. وخافت من سيدتها فهربت بطفلها. ولكن قبل أن تهرب أقسمت سارة أن تمزق جسدها وأن تغرس الحديد في بطنهما أربع مرات. ويقال خمس مرات. وخشى إبراهيم عليه السلام أن تفعل ذلك. فهي امرأة قوية. وهي في نفس الوقت في حالة غضب وغيرة - وليس أكثر شراسة من امرأة تغار. وأقنعها إبراهيم عليه السلام أن تكتفي بغرس مسمار من الحديد في أذنيها: مرتين هنا ومرتين في الأذن الأخرى.. فوضعت هاجر قرطين في كل أذن.. فكانت أول من ثقبت أذنيها في التاريخ. وأول من وضع قرطين في الأذن الواحدة - وهي موضة هذه الأيام.. ولما وضعت الأقراط في أذنيها ازدادت جمالاً. وزادت سارة غيظاً. وأقسمت أن تقطع أذنيها. ولكن هاجر هربت.

ويشغل مؤرخو الأزياء عن هذه القصة الحزينة، بما كانت ترتديه السيدة هاجر والسيدة سارة. فكانت هاجر أول من لف خيوط الصوف حول ذراعيها وساقيها.. وكانت سارة أول من جعلت من أوراق الشجر

حالاً تلفها حول ذراعيها وساقيها أيضاً - وقد أصبحت موضة بعد ذلك في خمسينات وستينات هذا القرن. وإن كان الإغريق أثناء الحروب قد فعلوا ذلك أيضاً. إقتباساً من الفرس والهنود.. . ويوم ذهب الإسكندر الأكبر إلى بلاد الفرس، لم يكن الرجال والنساء في أوروبا قد عرفوا الملابس الداخلية. فقد رأى الإسكندر كاهناً يربى عدداً من الكلاب في أعلى الجبل. وكانت الكلاب قد ارتدت ملابس لوقايتها من البرد. ويقال إنه بعث لأستاذه الفيلسوف العظيم أرسطو بهذه الملاحظة. فكان الفيلسوف أرسطو هو أول من أوصى بأن يكون للإنسان ما للكلاب من ملابس داخلية. وكانت ملابس الكلاب والرهبان من الحرير الطبيعي. وعرفت أوروبا الحرير الطبيعي.

وانفتح بذلك الطريق الشهير جداً: طريق الحرير. وهو الذي يبدأ من الصين إلى أوروبا. وعرفت أوروبا خيوط حرير دودة القز. وانتقل الحرير إلى الغرب بينما انتقل الصوف إلى الشرق. ومع الصوف العملات الفضية والذهبية والديانة البوذية والمسيحية.. . وظل العالم العربي يشتري الحرير ويقايس على الصوف أكثر من ألفي سنة.. . ولكنه انتشر في أوروبا كلها عن طريق إيطاليا وإسبانيا إبتداء من القرن الحادي عشر. وأوروبا عرفت الأنوال اليدوية التي اخترعها الفراعنة. وعرفت المكوك الطائر بعد ذلك مع قيام الثورة الصناعية.

وفي سنة ١٨١٦ ظهر النول المعروف باسم «جاكار» فأدى إلى انقلاب في صناعة الغزل والنسيج.

واخترع بيجر الأقمشة المسامية - وجعلها للملابس الداخلية. وكان

ذلك انقلاباً جديداً في صناعة الملابس الداخلية والخارجية.

وفي سنة ١٨٩١ اخترع الفرنسيون الحرير الصناعي ، للاستغناء عن الحرير الطبيعي . لأن ما تنتجه آسيا من حرير دودة القرز لم يعد يكفي لاحتياجات النساء في أوروبا وأمريكا . ولكن الحرير الصناعي ، لا يرقى إلى مستوى الحرير الطبيعي الناعم اللين والذي يتشكل مع الجسم ، ويغطيه ويكشفه برقه ورفق - على عكس الخيوط الصناعية التي ترفع درجة حرارة الجسم وتعريه أيضاً

وفي سنة ١٩٢٤ اتخد الحرير الصناعي اسم «ريون» - وهو مأخوذ من ألياف النبات ومن قشور البذور . وظهرت أسماء تجارية كثيرة للخيوط الصناعية . ومع ظهور هذه الخيوط والآلات المتقدورة عرفت الإنسانية «الملابس الجاهزة» بالملابس . وأصبحت في متناول كل الناس .

وكما هي العادة : فإن الشباب هم أكثر الناس إقبالاً على الجديد في القماش وفي الخيوط والألوان . ولذلك اتجهت شركات الأقمشة إلى الرياضيين ليكونوا أول من يظهر بالخيوط الجديدة . وتحولت ملاعب كرة القدم وكرة الماء والتنس إلى أكبر عروض للأزياء .. فاتجهت العيون إلى اللاعبين .. وإلى المفرجين أيضاً .

والشباب رمز الحيوية والصحة والمستقبل والشجاعة . ولذلك اتسمت الأزياء بحيوية الألوان . وبخفتها التي لا تضغط على الجسم ولا تكتم حرارته ، وإلى عدم المبالغة بما يقال عنها .

فكان مثلاً «سوزان لانجلان» بطلة التنس الفرنسية أول من ارتدت الشورت أثناء اللعب .. وظل الشورت يتناقص شيئاً شبراً حتى

كان الجيب التي تراها في ملاعب النساء - فلا هي ينظرون ولا هي جيب،
ولا هي شيء آخر!

وفي نهاية الأربعينيات ظهر المايوه «البكيبي» أي المايوه من قطعتين التي ترتديه المرأة في الشواطئ المغلقة عندنا، وفي كل الشواطئ والشوارع في بلاد أخرى. وبكيني - بالباء الخفيفة - مجموعة جزر في المحيط الهادئ استخدمها الأميركيان للتجارب الذرية سنة ١٩٤٦ فألقوا القبلة الذرية الرابعة والخامسة فارتفع مليون طن ماء إلى ١٥٠٠ متر.. ثم ألقوا عليها ٢٣ قنبلة ذرية أخرى.. وقد أدت هذه المياه إلى شطر الجزر نصفين.. بين هذين النصفين تجويف مائي كبير.. هذا التجويف هو الذي أوحى إلى مصممي الأزياء باختراع المايوه من قطعتين بينهما هذا التجويف من اللحم البرونزي على شواطئ بحار العالم.. واتخذ مايوه الرجل قطعة واحدة. حتى هذه القطعة أخذت تصغر وتضيق حتى أصبحت غطاء فقط.. ويعابها ضيق في مايوهات المرأة حتى أصبحت خيوطاً من الألوان - كالخيوط النباتية الملونة التي استخدمتها السيدتان هاجر وسارة قبل أربعة آلاف سنة!

ومن الغريب أن الفلسفة الوجودية لها دخل في الموضة - أو في الخروج على الموضة - حتى كان الخروج على الموضة موضة جديدة! والفلسفة الوجودية ظهرت في أوروبا كاحتجاج واعتراض على فلسفات أخرى من بينها: المثالية المتطرفة عند الفيلسوف الألماني هيجل، والمادية المتطرفة عند الفيلسوف الألماني كارل ماركس. فالوجودية تؤكد معنى الإنسان. حرية الإنسان. فردية الإنسان

مسألة هذه الحياة. فالإنسان قد ولد ليموت. هذه هي الحقيقة المؤكدة الوحيدة في حياته.

والفيلسوف الوجودي الفرنسي سارتر هو الذي قال: إذا أنت وقفت إلى سرير طفل قد ولد حالاً فأنت لا تستطيع أن تتبناً بأنه سوف يكون غنياً أو فقيراً، وزيراً أو خفيراً، قصير العمر أو طويل العمر.. ولكن أنت على يقين من أنه سوف يموت - وأنت أيضاً.

ثم إنك لا تنظر إلى حياتك بيقين ، وإنما بقلل وفزع ، فالحرب العالمية الأولى والثانية وقبلها الحرب السبعينية وعشرات الملايين من المحتلوب في العالم تؤكد أن السلام ليس إلا ضيفاً غريباً على هذه الأرض وبين الناس ، وأن القتل والقتال والموت هو صاحب البيت ، وليس الضيف الذي يدق الباب من حين إلى حين .. كما أن المذاهب الدينية والسياسية التي حاولت أن تساعد الإنسان على فهم الإنسان والحياة والمستقبل ، قد قيدت حريتها وكبلت شخصيته وأضافت عباء الجهل بهذه الحياة ، عباء السلسل التي التفت حول عقله وقلبه من أجل أن يفهم وأن يرى أوضاع .. تماماً كما يضع الإنسان لنفسه ممنظاراً يزن طناً لكي يرى أوضاع .. قد يرى أوضاع ، ولكن من المؤكد أن المنظار سوف يكسر عنقه ويهمش رأسه وأصابعه أيضاً.

فالفلسفة الوجودية التي ظهرت في فرنسا ترفض قيود المذهب الديني والسياسي ، ترفض أيضاً قيود الأزياء وقوانين الموضة وطقوس عروض الأزياء .. واستطاعت فتاة واحدة فقط أن تتفنّف في وجه طوفان الموضة . تماماً كما استطاع طفل هولندي أن يضع أصبعه في ثقب بأحد السدود

فتتجو بلادة من الغرق . الفتاة أوقفت الطوفان وحولت مسار الخيوط والخطوط والألوان لتمشي وراءها الملائين . إنها المطربة الفرنسية : جوليت جريكو .

ومن الغريب أن الفيلسوف الوجودي جيريل مارسيل قد ذهب يلقي حاضرة في مصيف دوفيل بشمال فرنسا ، فوجئ بأن الحاضرين يرتدون المايوه - الرجال في مايه من قطعة واحدة والفتيات في قطعتين .. وفي قطعة واحدة - أي أن صدورهن عارية (توبلس) .. ووضع المنظار على أنفه ومسح وتأكد من هذا الذي رأى . وخرج قبل أن يكمل المحاضرة ، استنكاراً لهذا الاستخفاف به . ولكن الجمهور ظن أن الذي فعله هو جزء مما تنادي به الفلسفة الوجودية : الحرية الشخصية في المجيء وعدم المجيء في ارتداء الملابس القصيرة أو المجيء بملابس النوم . إنهم أحراز - وهذا ما تنادي به الوجودية .

ولكنهم لم يعرفوا أنه لا توجد حرية مطلقة . وإنما الحرية أحد الاختيارات . فأنا حر في أن أستمع إلى المحاضرة أو لا أستمع . أذهب بملابس أو عارياً . ولكن الذي يكسبني الاحترام ، الذي أنا حريص عليه ، هو أن أذهب كما يذهب الناس الجادون المحترمون . ولذلك فأنا أرتدي ملابس الخروج ، وليس ملابس النوم !

وكان هذا الذي فعله المستمعون حلقة من سلسلة طويلة من الأخطاء التي ارتكبت باسم الحرية الشخصية - أو باسم الوجودية التي لم يحسنوا فهمها . فهي فلسفة جادة شاقة أيضاً .

ولذلك عندما خرجت جوليت جريكو على الموضة ، كان هذا

الاحتجاج على الموضة. موضة جديدة. فماذا فعلت؟

منذ القرن السابع عشر في أوروبا. ومصممو الأزياء الملكية في حيرة. مصدر هذه الحيرة أن الأميرات يرددن من خط الرقة أن ينزل إلى أقصى درجة. ولكن الرجال ينظرون إلى ذلك بإعجاب. ورجال الدين ينظرون بغضب، وتغيير الخطوط، حيرة السلطة بين رجال الدين ورجال الدنيا.

ففي القرن الثامن عشر، ظهر في فرنسا مدام ريكامييه، ارتدت قميص النوم على اللحم. واندهش كل الأمراء والبنادق. حتى أن السياسي المعروف تاليان التفت إلى جارته يقول: لم أر شيئاً كهذا منذ كنت رضيعاً أكل وأنام على صدر أمي.

ويبدو أن مدام ريكامييه قد سمعته. فأخذته من يده وأشارت إلى لوحة على الحائط لعشيق الملك شارل السابع: عارية الصدر تماماً. وقالت وهي تغمز بعينيها: سيدي حدث ذلك من مائة عام، وأنت لا ترفع عينيك عن أقدام النساء!

وكان تاليان يرى أن جمال المرأة يبدأ ويتوقف طويلاً عند أصابع قدميها! والفراعنة أسبق إلى كل ذلك. فعندنا لوحة العازفات الثلاث، وهي من أشهر اللوحات الفرعونية. الثلاث يرتدين فساتين شفافة تماماً، وتحت هذه الفساتين يوجد ما يمكن أن يوصف بأنه ما يزيد قطعة واحدة. ولكن الذي يجعل هذا الزي محترماً أو ليس مقصوداً به الإشارة أن العازفات جادات الملائم وأثنين ينفخن في الناي.. إذن هذه الملابس ليس مقصوداً بها الإثارة. وإنما هي ضرورة التخفف بسبب حرارة الجو!

وعلى «الضفة اليسرى» لنهر السين ظهرت هذه الفتاة جوليت جريكو ترتدي البلوزة السوداء والبنطلون الأسود. وبلا ماكياج ولا مجوهرات. تغنى وترقص وترتاد الأندية الأدبية والرياضية. فهي احتجاج منفرد على موجة الموضة التي تجتاح الناس وتصبغهم بلون واحد. وتكتسب ذوقهم، وتسلسل أذواقهم وأفكارهم. وقد اختارت اللون الأسود، لأن العالم كله حزين على ما أصاب الحضارة الإنسانية. فالإنسان بعقله وعلمه لم يحقق السعادة للفرد والأسرة. وإذا كان هناك ضحك في هذه الدنيا، فهو الضحك الأسود أو الكوميديا السوداء. لأن شر المصائب ما يضحك. ولم تعرف الإنسانية مصيبة أكبر من أن تنهار كل صروحها الحضارية في الحرب العالمية الثانية.. فيموت خسون مليون نسمة.. يموتون بلا قضية!

وعندما التفت مئات الآلاف حول جوليت جريكو في الخمسينات كانت قد ظهرت موضة «نيولوك» ذات الفستان تحت الركبة بشبرين.. هذه الموضة من تصميم «كريستيان ديور».. وكريستيان ديور هذا من اختراع البليونير الفرنسي بوساك الذي أراد بالفساتين الطويلة والأقمشة الكثيرة انتعاش الصناعات الفرنسية في مدينة ليون. وراححت جوليت جريكو تحطب في الكباريّات وتقول: لأن رجلاً غنياً أراد أن يزداد غني، وذلك بتشغيل مصانعه كان على جميع نساء العالم أن يرتدين فساتين طويلة.. ومهمها كان عجزهن عن شراء ذلك.. ومهمها كان هذا الطول لا مبرر له. ولكنه هو أراد ووجد من يعمم له رغبته. وأن يفرقها على كل النساء. فتفقد المرأة حريتها أمام هذه الرغبة السامية! فخرجت جوليت جريكو على الموضة.. بموضة «اللاموضة».

وفي باريس وفي لندن وسان فرانسيسكو خرج الشبان يرتدون أي قماش من أي لون من أي طول: البنطلونات الضيقة.. والبنطلونات المرقعة.. وأطالوا أظافرهم. وأطالوا شعورهم - أليس الآباء والأمهات يطلبون قص الأظافر وقص الشعر أيضاً؟

ثم إن الشبان في الجامعات والمصانع رفضوا ملابس المديرين: الياقات البيضاء والقمصان والبنطلونات والجاكيتات «المكوية».. فلا كرافات ولا دبابيس في الياقات.. ولا خواتم في الأصابع ولا أساور في الأيدي.. ولا أقراط ولا عقود.. فالشباب مختلفون. ويجب أن يختلفوا عن الأكبر سنا.. وشعارهم: لا تصدق رجلاً أكبر من ثلاثين عاماً

وإذا كانت الأزياء على الأضواء الباهرة، لكي يرى الناس كل خطوطها بدقة، فإن الشباب الرافض لدكتاتورية الموضة وأي طغيان آخر، قد اخند الشوارع المظلمة والغابات والكباريهات والاصطبلاء مكاناً «لحياته وسهراته». وإذا كان لابد للإنسان الحديث أن يفتح عينيه بقوة الأضواء، فإنهما قدأغلقا عيونهم بالنوم أو بالمخدرات أو بالخمور. فقد فتح الإنسان عينيه بالمصالح وفي أضواء المدافع والقتابل وظل يفعل ويتنفسن في ذلك حتى هدم الحضارة الإنسانية بالحروب المتواتلة.

واعتراض الشباب أيضاً على المدرسة والجامعة والمدرسين. وعلى الحرب وعلى القتال.. واعتراض على المذاهب الرسمية للإدارة الحكومية، والإدارة الكنسية أيضاً.

وظهر الشباب الحنافس في بريطانيا والشبان الصابحون في أمريكا.. وشباب «الصفة اليسرى» لنهر السين في باريس «والشباب الذئاب التي

لا تعيي» في روما، وشباب بركان فوجي الذي لا يقذف الحمم في طوكيو - وهم جيئاً من الغاضبين الساخطين الذي يرفضون الموضة تماماً مثل فتاة باريس جوليت جريكو.

وامتنعت الحياة طعماً مائعاً بل إن «اللغة» التي يتكلّمها الناس لم تعد مفهومة.. لم يعد أحد يدرِّي ماذا يقول الآخرون.. الكلام مكرر والصحف مملة وكذلك التليفزيون والإذاعة والسياسة والأدباء ورجال الدين. فليس بين الناس إلا سوء فهم ينتهي إلى سوء قصد ومن سيئ إلى أسوأ إلى الأسوأ.. لذلك عرفت مسارح باريس مسرحاً جديداً اسمه «مسرح العبث» أو «مسرح اللامعقول» احتجاجاً على المأثور المعمول في المسرح الكلاسيكي القديم وعلى الفكر الكلاسيكي.. وعلى الموضة الكلاسيكية - أي الموضة التي تتغير دائمًا، ورغم ذلك فإنها مقبولة ومطاعة كأنها قواعد دينية راسخة من مئات السنين.

شيء جديد أدى إلى تصفية الطبقة الغنية نهائياً: ظهور المجوهرات المزيفة أي المجوهرات الصناعية. فالزجاج والكريستال بدلاً من الماس.

ومثل ذلك: اللؤلؤ المزروع بدلاً من اللؤلؤ الطبيعي.. فقد قام اليابانيون بتطوير أحجام وألوان اللؤلؤ المزروع، بحيث لم يعد لللؤلؤ الطبيعي وجود، وإذا وجد فلا قيمة له. ثم قفز اليابانيون بهذا اللؤلؤ المزروع فجعلوه مسحوقاً. ومن هذا المسحوق اللامع صنعوا المجوهرات الغالية الشمن. ولكن منها فعلوا فقد اختفى اللؤلؤ الطبيعي النادر وظهر «اللؤلؤ الجاهز» الذي هو في متناول ملايين النساء. فلم يعد اللؤلؤ احتكار لطبقة غنية أو طبقة نبيلة.

أما الماس فقد ظهرت أنواع من الكريستال متقدة للدرجة يصعب التفرقة بينها وبين الماس الجديد - الذي هو شديد البياض وشديد اللمعان . ومع ظهور عصابات السطوع على الأغنياء في العالم ، أودعت السيدات الغنيات مجوهراتها في البنوك ووضعن بدلاً منها مجوهرات مزيفة - كأنهن لا يملكن مجوهرات حقيقة . وهكذا تساوت الغنية بالفقيرة فكلتاها تضع مجوهرات زائفة !

ورأينا الشبان الساخطين يبيعون منتجاتهم على الأرصفة : السلال الحديدية والنحاسية والزجاج والبلاستيك .. فلم تعد هناك قيمة ملادة المجوهرات ، وإنما المهم هو الشكل .. والمهم أن الذين كانوا يستهلكون هذه المجوهرات ، هم يصنعونها ويفرضونها احتجاجاً على المجوهرات إليها - ذات القيمة الفادحة . وأصبحت هذه الموضة المتواضعة ، أو الموضة الساخطة على الموضة ، على صدور القادرات أيضاً .. كأنهن يرددن المساواة مع غير القادرات . ومسايرة السخط العام والغضب العام .. وفي نفس الوقت تزيد القادرات أن يشترين في هذه المظاهر ، كأنهن لسن مقصودات بذلك .

فتاة واحدة فعلت ذلك أيضاً وصدقها الفقراء والأغنياء . ولو كانت تعيش في بلد غير بريطانيا لجعلوها رئيسة للجمهورية : إنها الأميرة ديانا التي ارتدت البلوزة الواسعة والبنطلون الجينز ولأنها أميرة أخيراً جداً . وملكة غداً .. ورغم الأبهة التي حرثها فهي أقرب إلى الشعب منها إلى الأسرة المالكة .. وهي قاومت وعارضت .. وكانت موضاتها ليست إلا استمراراً للاحتجاج لا على الحشمة ولكن على قيود الحياة في القصور

الملكية - وذلك عندما نزلت بخط الرقبة عميقاً، وعندما هبطت بخط الظهر إلى ما دون الخصر. . وعندما انقصت وزنها كثيراً. من أجل ذلك أحسست الملائين أنها «جوليت جريكو» على أرفع وأعظم المستويات.

«الأسطى المدير» الموسيقى المحفوظة!

المشتغلون بالسحر فقط هم الذين يعرفون «الطاروط» - وهي كوتشنية كانت من ٢٢ ورقة في القرن الرابع عشر، وهي الآن في فرنسا وسويسرا وأمريكا من ٧٨ ورقة. ويقال إن اليهود هم الذين طوروها لتتفق مع الذي جاء في كتب السحر الأسود. وعلى كل ورقة توجد شخصية ترمز لمعنى للعدل والأمبراطور والدنيا والحب والكراهية والعشق والشيطان والموت. ومنذ خمس سنوات تبأّت قارئة الطاروط الإسرائيلية «مریام مائیر» باغتيال الرئيس السادس وذلك عندما وجدت صورة «الأمبراطور» قد جاءتها بعدها صورة العربة مقلوبة - أي أن عربة انقلبت به فهات في منتصف الطريق..

وقد دخلت أوراق الطاروط تاریخ الأزياء في القرن التاسع عشر عندما ابتكر أحد الرسامين الفرنسيين لوحة خرافية للعدالة.. لقد جعل لها فستانًا من لونين: لون للظهر ولون للوجه.. أي أنه فستان ذو وجهين، يمكن ارتداؤه معدولاً ومقلوباً.. وقدر الرسام أن العدالة ذات وجهين.. وقدر أيضاً أنه لا شيء يبطل فعل السحر إلا الملابس المقلوبة.

ثم عاد الرسام وجعل للعدالة فستانًا «موصولاً» - أي يمكن تقديره وتطویله حسب الطلب.. وهو أيضاً يقصد نفس المعنى ونفس السخرية من العدالة والقانون.. ولكن تجاه الأقمشة والخياطات والتزيزية التقطوا معنى آخر وهو كيف يمكن تصميم فستان اقتصادي يلبس على الوجه وعلى الظهر.. وكيف يمكن تطويل الفستان وتقديره.. وأصبح ذلك موضة!

وكما هي العادة انتشرت هذه الموضة عند الطبقة العاملة. ولم ترتفع إلى الطبقة الغنية. ولكن في نهاية القرن التاسع عشر في أوروبا وأمريكا انتشرت الفلسفة الماركسية التي ترى أن الطبقة الغنية سوف تزداد غنى والطبقة الفقيرة سوف تزداد فقرًا.. وفي نفس الوقت سوف تزداد قوة، حتى تصبح الطبقة القادرة على فرض إرادتها وذوقها على الطبقة الغنية التي هي طبقة الأقلية الحاكمة.. ولكن ما توقعته «الماركسية» لم يحدث. فالطبقة العاملة أصبحت قوية، ولكنها لم تصبح الطبقة الحاكمة. فلا تزال الطبقة التي تملك الأرض والمصانع والشركات هي الطبقة الحاكمة.

ولكن ظهرت طبقة أخرى هي «الطبقة المتوسطة». وهذه الطبقة هي ناقلة ميكروب الموضة، وإليها تتطلع الطبقة العاملة، والطبقة الغنية أيضاً.

ولأن الطبقة العاملة ليست قادرة على الابداع، فإنها تمشي وراء الطبقة المتوسطة وتري فيها مثلها الأعلى. وتضم الطبقة المتوسطة العامل الماهر والأسطى ومساعد المهندس والمهندس والمديرين

ولذلك فالعامل يرتدي نفس القميص والبنطلون الذي يرتديه المدير والسيد رئيس مجلس الادارة . والعامل حريص على مظهره أكثر من حرصه على طعامه وشرابه . . وهو من أجل المظهر يبدل أكثر الذي يكسبه .

وظهرت في أوروبا وأمريكا موضة «الأسطى المدير» - أي الأسطى الذي له مظهر المدير . . وحتى الملابس الجاهزة التي انتشرت لم تعد هي التي تحبها الطبقة الوسطى . فالطبقة الوسطى الصاعدة لم تعد مشكّلتها أن ترتدي أحسن الملابس وأغلاها . . ولكن أن يكون لها ذوق خاص ، ولذلك انتعشت الخياطة والترزي ، وانتشرت الأزياء الراقية . وبعد أن كان تفصيل الأزياء والخطوط الراقية من معالم الطبقة الغنية القادرة الأرستقراطية البورجوازية طبقة النبلاء والحكام ، أصبحت من المعالم العاديّة جداً للطبقة الغنية الجديدة - أغنياء الحرب . . حرب الطبقات . . ولذلك كانت المرأة التي لا تعرف القراءة والكتابة هي التي تشتري أهم معرضات شوارع الشوارب وسيماني باشا وقصر النيل ، وهي نفسها التي تسافر إلى لندن وباريس لشراء ما تحتاجه من الخطوط الراقية . . وهي أيضاً التي تزاحم عند الخياطات وتدفع الألف في تفصيل الفستان الواحد والألفين للعروض !

وأصبحت هذه الطبقة المتوسطة ذات أثر قوي على كل وجوه الاستهلاك . فلم يعد الطعام من أجل ملء المعدة هو الهدف ، فالطعام متوافر ، ولكن تذوق الطعام في المطعم الأنثيق . فكما ظهرت الملابس الجاهزة ظهرت الأطعمة المحفوظة - كل شيء في العلب والأكياس

النابليون. ولكن الطبقة المتوسطة التي تتعاظم وتسع تريد أن يكون للضروريات مذاق خاص. ولذلك كان تناول الغداء والعشاء خارج البيت.. والكل يرتدي أحسن الملابس، ويركب أكبر السيارات، ذهاباً وإياباً للمطاعم في الفنادق الكبرى.

أي أن هذه الطبقة لم تعد مشغولة بأي طعام، ولكن بطعم خاص في جو خاص. ولم تعد حرية على أي ملابس جاهزة، وإنما على أحسن التفصيلات عند أغلى الخياطات ويامضاء أشهر البيوت.

مثلاً: عندما ذهب الرحالة الإيطالي ماركوبولو إلى بلاد الصين نقل بعض الأطعمة.. من بينها «المكرونة» ولم تكن معروفة في أوروبا. وأصبحت المكرونة من أهم الأطباق الإيطالية. وتفنن الإيطاليون في تشكيل هذه العجينة فهي «الاسباجيتي» - أي الخطوط الصغيرة.. وهي - أي الديدان الصغيرة.. وهي «لانشتي» - أي السهام الصغيرة.. وهي «دتشوليسي» - أي الفيونكات الصغيرة.. وهي «فرافالوني» - أي الفراشات الكبيرة. فالمستهلك الإيطالي والأوروبي أيضاً، لم يعد يبحث عن المكرونة وإنما عن أنواع مختلفة وعن جو شاعري لكي يذوق طعم الحياة والسعادة الاجتماعية.

مثلاً: عندما ذهب الرحالة الإسباني أورييني مادرياجا إلى طنجة المغربية في القرن الثامن عشر وجدهم لا يقدمون طعام الكسكسي في البيوت الكبيرة. وإنما الفقراء فقط. وعرف أن الأغنياء كانوا قادرين على استيراد الأرز. أما الفقراء فليس أمامهم إلا القمح. ومن القمح ابتدعوا الكسكسي بدليلاً عن الأرز.. ولكن الأغنياء تحولوا إلى

الكسكسي وأضافوا إليه ما يعجز عنه القراء.. وضعوا اللحوم والخضروات ووضعوا الفستق والبندق والسكر.. . وابتدعوا طعاماً آخر اسمه «البستيلة» وهي من لحم الدجاج والسكر والدقيق - أي أنها مرة أخرى طعام الكسكسي ولكن بصورة متطرفة مقتدرة.

وهذا تطور جمالي - أي تطوير للذوق ولشكل الطعام ومادته والجر الذي يجتمع فيه الناس.. . ومع الاتجاه إلى عامة المستهلكين ، وهم مساحة عريضة من المجتمع ، ظهرت مع الأطعمة المحفوظة الأغاني المحفوظة والموسيقى المحفوظة والأفلام المحفوظة. فقد انتشرت الكاستات التي تضم الأغاني والألحان غير الرسمية، فلم يعد أحد في حاجة إلى أن يذهب إلى المسارح أو الأوبرا ليشاهد الفرق الموسيقية. وإنما الموسيقى تجيء إليه في كاستات أو في أسطوانات. وكذلك انتشرت صناعة الفيديو وعلى الفيديو كل الأفلام غير الرسمية. فلم يعد الراديو الحكومي والتليفزيون الرسمي ، هو المصدر الوحيد للتذوق الموسيقي والغنائي والاستعراضي ، ولم يعد الإنسان مضطراً إلى ذلك. فهو بفلوسه حر في أن يستمع إلى الأغنية والموسيقى ويشاهد الفن الذي يعجبه. وقد تطورت وتضخم صناعة الكاستات في العالم كله.. . تماماً كما أدى اختراع المطبعة إلى نشر الثقافة وتطوير صناعة الكتاب والصحف والمجلات.

و قبل أن يذهب الإمام الخومي إلى طهران ، فإنه كان يبعث إلى إيران بالكاستات الثورية.. . وكانت هذه أسلحته السرية القوية التي أسقطت الإمبراطور !

ولما أصبحت الطبقة العاملة هي الغنية واحتلت مكان الطبقة المتوسطة كان حرصها على تحديد ساعات العمل، فكانت الإجازة ضرورية. ويرى المؤرخ العظيم تويني أن ما حدث في مدينة نيويورك من ثلاثة عاماً يعتبر نقطة تحول في التاريخ الحديث. فقد رفضت السكريبرات أن يعملن يومي السبت والأحد، رغم الإغراءات المادية أي أنهن اخترن الإجازة، وأصبحت حقاً مكتسباً. وكذلك فعل كل الموظفين والإداريين والعمال في كل العالم. واتخذت الإجازة الأسبوعية صورة مقدسة. وهذه الإجازة أدت إلى قيام صناعة هامة جداً: هي صناعة الراحة بالجملة.. أو الراحة الجاهزة.. فكانت الفنادق والسفن والطائرات والمكاتب السياحية.. والأطعمة التي يمكن حملها في الأيدي وكانت السيارات والخيام، واليخوت في الأنهر والبحار.. واتجهت المرأة إلى المطعم وسط المدينة، حيث يمكنها أن تستعرض نفسها وتستعرض الفترينت أيضاً.

أذكر أنني عرفت مليونيراً صينياً داعني إلى بيته في جزيرة هونج كونج. وذهبت وركبنا معاً زورقاً جميلاً فخماً لنتقل من مكتبه إلى قصره. ولما نزلنا إلى الشاطئ وجدت أننا قمنا بجولة حول الجزيرة استغرقت ساعة. ثم عدنا إلى نفس المكان. فقال لي الرجل: إنني اختار أجمل الطرق إلى البيت.. فالمكتب في جانب من القصر.. ولكن أريد أن أستمتع بالطريق الطويل إلى البيت!

وعرفت شيئاً من مثل ذلك يحدث في بورسعيد الميناء الحر بلد الألف مليونير.. فكثير من أصحاب المتاجر لهم بيوت في مواجهة

دكاينهم .. وأمام الدكان «توجد سيارة كبيرة» وهو - عادة - لا يعبر الشارع لكي يصل إلى البيت. وإنما يركب السيارة ويدور بها على الكورنيش وبعد ذلك يتوجه إلى البيت!

ومع تغير حجم الطبقة المتوسطة ابتداء من القرن التاسع عشر حتى اليوم ، تغيرت الأزياء والمواضات . وتغيرت أنماط الطعام والشراب .. وتغير لون وطول الشعر عند الرجال والنساء وانخفض وارتفاع كعب الجزمة عند الجنسين - والمرأة أسبق إلى «الموضة» .. والفتاة الصغيرة أسرع من أمها . ولذلك تتصارع دور الأنوثة على الفتاة . وعن طريق الفتاة إلى الفتى . أذكر أنني عندما ذهبت إلى مدينة «طوبا» باليابان حيث توجد جزيرة بيكوموتو، الذي اخترع اللؤلؤ المزروع وجدت أكثر الزوار من تلميذات المدارس وطالبات المعاهد . وقال لي رجل العلاقات العامة : نحن مشغولون بالمرأة الصغيرة . هي الزيتون الأول . وعليها هي أن تقنع الرجل ، فهو الزيتون الثاني !

كما تغير أيضاً الديكور في البيوت .. وصناعة الأثاث وأدوات المطبخ . بل تغيرت العمارة كلها .. فلم تعد القصور هي المثل الأعلى للبيوت . ولكن الشقق الصغيرة . شقق العرسان . وتغيرت أحجام قطع الأثاث لتناسب الشقق الصغيرة .. وتغيرت أدوات الطبخ والغسل وتطورت صناعة البلاستيك التي لا تقبل الكسر ، واتخذت الشركات المصنوع «التقسيط» سياسة عامة لكي تبيع وتحرك مصانعها .. واتجهت الشركات الكبرى إلى أن تتولى دفع الأثاث وتجهيز البيوت وتخصم أثمانها من الموظفين .. بل إن الشركات اليابانية الكبرى هي التي تقوم

بتزويج العمال من العاملات . و تقوم بالإنفاق في شهر العسل توفيراً لوقت العمال وتوفيقاً لرغباتهم .

وليس من قبيل الصدفة أن تتجه الإعلانات كلها إلى الفتيات فكل إعلانات التليفزيون تقوم بها فتيات صغيرات شقراوات ذوات عيون زرقاء - ومعنى ذلك أن الجميلات الشقراوات يقمن بهذه الدعاية والدعاية . مع أن الجميلات لسن في حاجة إلى أدوات التجميل التي يغنين ويرقصن من أجلها ليلاً ونهاراً . ولكن الفتاة هي السلاح الأشر器 الخطير إلى قلوب وجوب العالم كله !

وأمام الطبقة المتوسطة الصاعدة نجد مشكلة اجتماعية أخلاقية تربوية . ففي بعض مسلسلات التليفزيون نواجه هذه المشكلة : على الفتاة أن تختار إما زميلاً جامعاً فقيراً ، وإما أسطى غنياً يمثل الطبقة العاملة الصاعدة . وفي المسلسلات نجد الآباء يختاران للفتاة من يستطيع أن يشتري الشقة والثلاثجة والفيديو والسيارة - أما التفاهمن والثقافة والحب فلا تهم !

ولكن الأسئلة التي تدويُّ الشبان المشاهدين ، فالمسلسلات والإعلانات لا ترد عليها . مثلاً : ما قيمة التعليم إذا كانت النتيجة أن الفتاة تتزوج الشاب الذي يختاره الآباء ، وهما يختارانه لأنه أقدر من الشاب المتعلم ؟ ما قيمة التعليم الذي يلقن الشبان حرية الاختيار وحق تقرير المصير ، وتجيء المسلسلات في تليفزيون الدولة تقضي على التعليم والحرية وتفرض إحتقاراً عاماً لكل ذلك ؟ وإذا كانت المسلسلات تدعوا إلى الهجرة من مصر ، فمن الذي سوف يبني

مستقبلها؟ وإذا كان العمال وال فلاحون قد هجروا حقولهم إلى المدينة، وهجروا المدينة إلى الخارج، وارتفع أجر العامل وال فلاح وبقي مرتب خريج الجامعة كما هو، أليس معنى ذلك تأكيد عجز المتعلم أمام الطبقة غير المتعلمة من الفلاحين والعمال والأسطوارات؟ أليس الزوج من عامل غني تحريراً للفتاة من الفستان الواحد والحداء الواحد؟ .. أليس معنى ذلك أن الفتاة تفقد حريتها بالزواجه، ثم تسترد حريتها بالأزياء .. أي تفقد حريتها كإنسان، وتسترد حريتها كعارضة أزياء؟ أليس في ذلك دعوة لأن تهتم الفتاة بمظاهرها فقط تدفن في فساتينها إنسانيتها وثقافتها؟ أليس معنى ذلك أن نقدم الفتيات المتعلمات فريسة للدور الأزياء والخياطات والترزية والحلالين والجوهرية؟

إذن لقد ضاعفنا عدد المستهلكات وأنقصنا عدد المتحررات،
ضحايا الإعلانات شقراء الوجوه زرقاء العيون الراقصات المغنيات
سارقات الحرية والجيوب أيضاً !

* * *

ثم انتقل العالم كله من يوم «العطلة المقدسة» التي تحدثت عنها التوراة حيث لا يوقد اليهود عود كبريت ولا يطبخون. وإنما يجلسون بلا عمل في صمت أو في حالة من الامتناع عن العمل، إلى أن تشكلت هيئات تفكير لهم في كيفية قضاء هذه الإجازة، ولذلك تطورت صناعة الراحة، وصناعة الخدمات بالجملة: المطاعم والفنادق والكمبيوترات والأندية الرياضية والاجتماعية والبلاجات، ومع الراحة وقبلها ظهرت

الأزياء: أزياء الشواطئ والسباحة والرياضية.. وظهرت أدوات صباغة البشرة والشعر والكريمات والفيتامينات.. وأمراض الصيف وعقاقير الصيف.. والكمائن والشاليهات والزوارق والشقق المفروشة والأسواق الموسمية في المصايف.

وظهرت حقيقة جديدة: إذا كان أكثر الناس يسافرون ويتمددون على الشواطئ وكل مراافق الدولة تعمل كما كانت تعمل قبل موسم الإجازات، أليس معنى ذلك أن الدولة والمؤسسات والشركات تستطيع أن تعمل بعد أقل من الناس وبساعات أقل أيضاً؟ إذن لماذا لا تتضاعف أيام الإجازات.. يومين بدلاً من واحد وثلاثة بدلاً من اثنين؟

مع هذه الحقيقة والرغبة في مزيد من الصحة والجمال ظهر «الطب الطبيعي» أو «الطب البديل» أي الطب الذي هو بديل عن طب العقاقير. هذا الطب البديل يعتمد على علاج الإنسان لنفسه عن طريق الراحة والمشي والرياضة والتسلق والأعشاب والفاكه، وذلك بالاتجاه إلى الطبيعة: الحقول والحدائق والشواطئ والابتعاد عن العقاقير المنومة والعقاقير المنبهة والذهاب إلى الطبيب.. أي الابتعاد عن النوم بالقوة واليقظة بالقوة ومواجهة الميكروب بإطلاق القذائف الكيمائية عليه. وهذه القذائف الكيمائية تقتل بعض الميكروب ولكن تحطم الخلايا وتضعف الوظائف.. وتحيل إلى المعاش كل القوى الكامنة في جسم الإنسان.. فالعقاقير الطبية ليست إلا جيوشاً مرتزقة مستخدماً في حضور الجيش الطبيعي الاحتياطي الموجود في خلايانا.

وظهرت اليوجا و«الزن» الياباني و«التأمل المتعالي» - كلها نظريات

يطبقها الإنسان إذا أراد الصحة والجمال دون حاجة إلى طبيب.

وفي أمريكا ظهر الطبيب العالمي جايلورد هاوزر. ودخلت مؤلفاته مئات الملايين من البيوت. وله فلسفة شعارها: تناول طعاماً لتكون جميلاً.. اضحك ترقص معدتك.. ما بعد المائة: شباب جديد.. اصبعي خديك بالطماظم وشفتيك بالتفاح.

وفلسفة هاوزر هذه تدعى إلى التردد المستمر على «صيدلية الله» أي الحقول والحدائق والخضروات الطازجة والفواكه وعسل النحل.

* * *

وكان علماء النفس ينظرون إلى الطبقة العاملة مع نهاية القرن التاسع عشر على أنها الطبقة التي تقوى وتشتد ولكنها في نفس الوقت متربدة: تنظر وراءها وأمامها وتدور حول نفسها. ووصفوها بأنها مثل الإله «يانوس» - ذلك الإله الذي له وجهان ينظران في اتجاهين متضاربين. وكان الإغريق يضعونه على أبوابهم، أي ليحرس الداخل والخارج. وعلى الموانئ ليحرس من يقترب منها ومن يبتعد عنها.

ومن معاني هذا الإله أنه رمز لسوء الظن والشك والتردد. والطبقة العاملة كانت كذلك. تنظر إلى نفسها وإلى الطبقة الغنية. ولكنها لا تحلم بأن تكون غنية. فجاءت الطبقة المتوسطة واختارت هذا الإله معبوداً لها: فهي تنظر إلى الطبقة الغنية بحقد، وإلى الطبقة العاملة باحتقار. أما الآن فقد أصبح للتمثال وجه واحد ووجهة واحدة: أن تكون غنية.. أن تكون الغنية وأن تكون «مانيكان» الأزياء الجسمية.

والأزياء العقلية.. وأن تكون نزواتها «أوامر» لكل الشركات الاستهلاكية في العالم.. ولذلك تسلطت على عرش الأزياء والأذواق منذ أكثر من مائة سنة مضت، ولمئات السنوات القادمة!

بيوت الأزياء ودور السينما صناعتها الحرير والسلطان!

عندما تهبط الطائرة تجد في انتظارها سيارة صغيرة هي التي تسبقها إلى المكان الذي يجب أن توقف عنده .. على هذه السيارة بالإنجليزية هذه الكلمة: اتبعني .. هذه الكلمة كانت منقوشة على أحذية غانيات أثينا .. لكي يمشي وراءها كل من يريدها .. ثم انتقلت هذه الكلمة إلى المشرفة على «حرير السلطان» فكانت تضع الكلمة على جزمتها وأحياناً على أطراف فستانها لكي تمشي وراءها الفتيات الصغيرات التي جئن إلى حرير السلطان .. والفتيات يمعن في الأسواق أو يقعن في الأسر .. وأكثر المسلمين أمهاهن من الحرير ..

وعندما جاء المؤرخ الإغريقي هيرودوت إلى مصر، أدهشه أنه وجد في مدينة الفيوم النساء يمشين بحرية في الأسواق والشوارع .. الذراعان عاريتان والعنق والصدر أيضاً .. وإذا نظرن إلى الرجال فإن الواحدة تملأ عينيها تماماً من الرجل. وأدهشه أكثر أن الرجال يعرفون الحياة الذي لم تعرفه المرأة .. وهيرودوت هو الذي قال: لو عرف الرجال ماذا يقوله النساء إذا جلسن معاً، فإن أحداً لن يتزوج!

وكلمة «حرير» في اللغة الفرعونية القديمة يعني: السجن .. أو

المكان الذي لا يقترب منه أحد.. أي المكان المحرم. وهو مكان به عدد كبير من النساء الملحقات بالقصور الملكية أو قصور النبلاء.

وفي اللغة العربية: الحرير.. هو المكان المحرم في البيت أو في المسجد.. والحرير أيضاً: هو الملابس التي كان يخلعها العرب عندما يطوفون بالكعبة ، فهم يرون أنهم قد ارتكبوا ذنوبًا عندما ارتدوا هذه الملابس ، ولذلك كان من الضروري أن يؤكدها .

وكانت النساء تطفن عاريات إلا من قطعة من القماش.. ولذلك نزلت الآية الكريمة: ﴿يَا بَنِي آدَمْ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ويفعل «حرير» البثأ أي المنطقة المحرمة من البئر وحولها. وقد حددتها رسول الله عليه السلام بأربعين ذراعاً - أي البئر والطين الذي خرج منها وألقى حولها. فهذه منطقة محظوظة على الآخرين!

وفي الحضارة البابلية والفارسية والصينية والهندية - عرفوا أشكالاً وألواناً من الحرير. ولكن حرير السلاطين العثمانيين أشهرها جميعاً.

ومنذ أيام كنت أتفرج على حرير السلطان في قصر «طوب فابي» بإسطنبول. وهو جانب من أعظم القصور خصص لحرير السلطان.. . وقد بلغ عدد الحرير في القرن الخامس عشر سبعينات وفي القرن السادس عشر ألفاً وفي القرن الثامن عشر ألفين - وفي القرن التاسع عشر خمسينات.

وفي حرير السلطان أو السجن الذهبي للمرأة في العصر العثماني، تعلمت النساء الكثير من فنون الحب.. وأهم من ذلك: المؤامرات.. فكل المؤامرات على السلطة وعلى العرش، قد رسمت في حرير

السلطان. فالغيرة تجعل الفتيات يقتلن بعضهن البعض.. والسيدة التي تدرب الفتيات تقاضي منهن أجوراً عالية وهدايا ثمينة.. فإذا أصبحت واحدة منهن أما لولي العهد، تغيرت مكانتها وحياتها، وتحولت مئات الفتيات من الحرير خدمتها. وفي نفس الوقت، راحت أم الأمير هذه تتخلص منهن جميعاً حتى لا تزوج عنين السلطان كما زاغت من قبل.. ولذلك تفضل أم الأمير، أن يكون خدامها من الرجال «الخصيان» - أي الأغوات.

امرأة واحدة من مئات السنين استطاعت أن تحكم الإمبراطورية .. إنها من أصل روسي. دخلت الحرير مربوطة في حبل لأنها «رقين» - أي إنها ضعيفة.. وفي نفس الوقت قادرة بفتتها وذكائها على أن يكون الرجل ضعيفاً أمامها أيضاً. وقد جاء بها «النخاس» - وهو الرجل الذي يبيع الحيوانات في الأسواق وينحسها أي يغرس مسماً في جسدها لكي تتحرك.. فهو باائع الحيوانات وبائع العبيد من الفتيات أيضاً. وقد ربطوها بالحبال لأنها في غاية الحيوانية، إلى جانب جمالها وذكائها. اسمها روكلانة. واستطاعت أن تسلل إلى سرير السلطان وإلى قلبه وإلى عرشه أيضاً. ولذلك لم يفلح السلطان سليم في أن يتزوج أو يقترب من امرأة غيرها. واستطاعت أن تجعل ابنها الوحيد سلطاناً أيضاً. وهذه الفتاة الروسية قتلت وخنقـت والـقت في البحر ووضـعت السـم لـعشـرات من حرـيمـ السـلطـانـ. وإـغـتـالـتـ الـأـمـرـاءـ وـعـزـلـتـ السـلـطـانـ عنـ كـلـ النـاسـ إلاـ الـذـينـ يـمـرـونـ بـبـاـهـاـ وـيـقـبـلـونـ عـتـبـتـهاـ وـقـدـمـيـهاـ.

ويسجل التاريخ هذا الحوار بينها وبين زوجها السلطان سليم ..

يقول السلطان لها: جعلتك ملكة وقد كنت خادمة. هل تنسين ذلك!

تقول هي: جعلتك إنساناً يحترم امرأة واحدة.. وكانت حيواناً لا تعرف ماذا تأكل وماذا تشرب وماذا تلبس.. وكانت تزحف إلى العرش فوق جث النساء اللاتي يلعن السلطان والقصور والهوان..

قال: ولكنك كنت واحدة من كل هؤلاء فما الذي تغير فيك؟
تقول: كنت كذلك بعض الوقت. ولكن ما أن دخلت الحرير، حتى أحسست أنني خلقت لغير ذلك.. وأنك أيضاً خلقت لأن تكون ملكاً متحضراً..

قال: ولكنك قتلت وذبحت وألقيت في البحر عشرات من بنات جنسك.

قالت: دفاعاً عن عرشك.. لقد كنت الوحيدة التي تحميك.. إن خارج القصر مئات الرجال كلهم ساهرون على راحتكم.. ولكنهم لا يضمونون لك نوماً هادئاً وسط مئات العبيد الذين يتربصون بك.. أنت لا تعرف ما الذي يدور بين نساء الحرير.. الناعمات السجينات المعدبات الحاقدات على السادة والأحرار.

فكل سلطان يعلم أن أمه من العبيد.. ويضايقه ذلك.. فهو يحتقر الشجرة التي أزهرته، والزهرة التي أمرته والأم التي حملته وأرضعته ولولته - منتهى العقوق لهن. ولذلك كانت لديهن رغبة في شرب دم السلاطين جميعاً. كل ذلك منعه عنك!

وكما هي العادة تصفق روكلسانة، فيجيء عشر فتيات يغسلن قدميها بالعطور.. ثم ينحنين لأن السلطان قد جاء يقبل هاتين القدمين، حباً وامتناناً لأذكي وأعنف امرأة خرجت من الحرير وخرجت عليه أيضاً وكانت روكلسانة هي الأخرى تحقر أصلها، وتحقر كل اللاتي كن مثل حالمها.. ولذلك كانت إذا جلست تنتظر الحرير.. مدت ساقيها فوق أحد المقاعد وجاءت الفتيات يرغبن الخدود في نعليها.. وكان النساء يتبارون في الانحناء والخشوع لها.. فكان بعضهم يفضل أن يبر بحداثتها فيقبله الرجال أو يضعونه على رءوسهم - لأنهم أحقر من أن يلمسو قدميها!

فالحرير ليس فقط مكاناً تعيش فيها النساء في قصر السلطان، ولكنه أسلوب حياة، وأسلوب في التفكير أيضاً. فالرجل الذي ينظر إلى المرأة على أنها حرير هو الذي يرى أن المرأة خادم له. تابع له تنتظر أوامره. وتنتظر رغباته. ثم أنها ليست أكثر من جسم جميل وزيق.. أو أنها الوسيلة الوحيدة ليكون عنده أولاد.

والمرأة التي تفضل أن تكون حريراً، هي التي تحب «السجن» من أجل الرجل بشرط أن يكون هذا الرجل لها وحدها. فهي ترفض الحرية إذا كانت هناك نساء آخرات. وتدفع الحرية ثمناً لأن تنفرد بالرجل. والمرأة تفضل أن يضعها الرجل في سجن. ويغلقه بإحكام ويجيء إليها من حين إلى حين. ويسعدها السجن والظلم والظلام.. إذا كانت تفوز ب الرجلها في النهاية!

وفي خمسينات هذا القرن قام العالم الأمريكي «كنسي» ومعه آخرون

بدراسة السلوك الجنسي عند المرأة الأمريكية. ووُجد أن ٧٪ من النساء المتعلمات يفضلن حياة الحرير، على هذه الحياة «السافاري» - أي الحياة التي تشبه حدائق الحيوانات المفتوحة تختلط بها الذئاب بالكلاب بالأسود بالخلباء بالفيلة.. فالمرأة الأمريكية بعد أن ذاقت الحرية وضاقت بها، عادت تفضل أقفال حدائق الحيوان المغلقة على الذكر والأثى والصغراء.. أي إنها تفضل أن يكون لها بيت من حديد، قفص عائلي. على أن تفتح لها الشوارع والنوادي والبارات. فتجد كل الناس إلا زوجها، وكل الأطفال إلا أولادها، وكل البيوت إلا عشها!

وعندما أكمل العالم الأمريكي كنسي دراسته عن سلوك الرجل وجد أن عدداً كبيراً من الرجال يفضلون الزوجة الشرقية. أو الزوجة اليابانية.. التي تنظر إلى الرجل على أنه سيدها.. السيد.. سي السيد.. وأن الكلمة كلامته، والشخطة شخطته، وأن الصقر يقف على شاربه، والأسد يقف على كتفيه.. ولكن المرأة الأمريكية لا تجد عند زوجها كل هذه الصفات. ولا ترى أنها ضرورية.. ثم أنها متوافرة مثل كل الأطعمة في السوبر ماركت والأندية والشواطئ..

إذن هذه الدراسة التي زلزلت خمسينيات هذا القرن في أمريكا وأوروبا: تؤكد أن الرجل يتمنى أن يكون سلطاناً له حرير، والحرير امرأة واحدة أو كل النساء. والمرأة تفضل أن يكون لها سلطان، وأن يكون لهذا السلطان سجن معطر دافئ هو مسكنها.. لأنها هي الحرير.

وليس صحيحاً أن الحرير قد اختفى وإنما ظهر في أماكن أخرى..

فليا اختفى السلطان نفسه، أحس كل رجل أنه سلطان. ولما اختفت القصور، قامت الكباريهات بديلاً عنها. وفي الكباريهات: حريم لأي سلطان.. وهن بالملائين حول الأرض وفي كل ساعات الليل والنهار.. وقد استطعن أن يقفزن إلى أعلى السلطة فكن زوجات للوزراء ولرؤساء الجمهوريات أيضاً ولأغنى الأغنياء.

وصناعة السينا هي أكبر داعية لحريرم السلطان - والسلطان هو المخرج.. مئات الملائين في العالم كله. فالسينا هي تجارة الرقيق الحديثة. إنها تقدم الجميلات وتبيع فيهن وتشتري.. فالسينا هي تجارة اللحوم الشقراء.. وهذه التجارة تؤكد كل هذه المعاني عند الرجل وعند المرأة أيضاً.. فالمرأة تريد أن تشير وتبهر. والرجل يبحث عن هذه الإثارة.. فهو السلطان، وشركات السينا هي مصانع لتوريد حريرم السلطان.. وهذه المصانع قادرة بوسائلها العبرية على نشر النظريات والمعاني وتعويضها سنوات طويلة.. فهي التي تقدم الجمال الجنسي، وتقدم الأنقة وهي التي تشعل الألوان في أعصاب الجميع.. وهي التي تفرض الذوق بالقوة على مئات الملائين.. تقدم الصدور والسيقان والألوان والإشفاء والعيون والطويلة والقصيرة والنحيفة.. كل ذلك تنشره فيلماً بعد فيلم.. وقصة بعد قصة.

وهي بذلك تثبت معنى واحداً عند الملائين: أن الزيتون على حق.. والزيتون هو السلطان، والسلطان حيوان، وتقدم له الحرير من كل حجم ومن كل لون.. وهو تحت تأثير الشاشة يطبق ما يرى وما يسمع على حياته الخاصة وال العامة.

ودور الأزياء هي التي تقوم بزفة العروس إلى السلطان.. وهي قادرة على أن تجعل البوصة عروسة. وهي أيضاً استطاعت أن تجعل المرأة تومن بأن بشرتها هي فستانها، وأن صناعتها الأولى هي: الإغراء. وأن الرجل ضحيتها.. أو أنها ضحية الرجل.. أي أن العلاقة بينها وبين الرجل: قاتل وقتل، إنها معركة. حرب من حريم السلطان من أجل الوصول إلى حضن السلطان وعرش السلطان - أي سلطاناً!

وعندما هاجم النقاد أمير الشعراء شوقي بسبب مسرحيته الشعرية على بك الكبير، لم يجد الشاعر العظيم ما يقوله دفاعاً عن نفسه.

فقد استنكروا أن يتحدث عن تجارة الرقيق.. وأن يعترف السلطان بأنه هو الآخر واحد من الرقيق، محتقر لهم ولنفسه، حريص على تحريرهم وتحرير نفسه من عقدة الذل والهوان..

يقول البائع الحرير في السوق:

تعالي أيها الشقرا

وهاتي شعرك التبرى

هلمي اقتربى مني

والقى رأسك في حجري

فغدا يأخذك الشاري

وما تدررين من يشرى

ويقول البائع وهو يقدم واحدة اسمها «أمال»:

تعالى أيها السمرا
فإن الخير في السمر
أشعر ذاك أمال
أم الليل إذا يسرى
قضاك الله للواли
أول للحاكم في مصر
وينادي على فتاة ثلاثة:
وأنت يا ضحمة يا بدينة
يا محلا ينطر بالمدينة
قومي إلى أقبي لليزينة
رزقت عمدة بلا مدينة
ثروته في داره دفينة
يطلب مني امرأة سمينة
ويقول علي بك الكبير هذه الحسناء أمال التي يعرضها عليه
النخاس - وكان النخاس أباها:
أنا أيضاً مررت بالسوق يا أمال
حالياً يا بنت مثل حالك
قد وقفنا بهذه السوق نبكي

دولًا من ورائها ومالك
وقد يأْنَت سبيل المعالي
للهما اليك أو سبيل المهالك
ولم يطرأ أي تغيير على البائع والمشتري والسوق - تغير الأسماء
فقط.

* * *

وفي العشرين مقالاً السابقة ما يصيب الجسم الإنساني، تحت الجلد
وفوق الجلد، ووجدت أن الناس جميعاً سواء تحت الجلد، فكل الدماء
حمراء ولكنهم مختلفون في لون البشرة وفي معالم الوجه. وفي إحساسهم
بهذه الملامح وفي تغيرها وتشكيلها، وفقاً لمعتقداتهم الوثنية والدينية
والاجتماعية.

وجاءت أدوات التجميل تباعد بين الطبقات وتقرب بينها أيضاً..
أما الأزياء فهي ما فوق الجلد.. أي هي البشرة الثانية وهي المسكن الذي
منه نطل على الدنيا.. ومن اللون الذي يختار والطول والقصر، والحرير
والقطن، ومن المجوهرات التي نضعها هنا وهناك، يتحدد بالضبط مكاننا
في المجتمع وبين الناس.

وللموضة قوانين أخرى غير قوانين المجتمع والدين.. وهي قوانين
صارخة. ولا تملك المرأة إلا أن تطيعها. وإنما تدفع دون مناقشة..
فهي حضور الطغاة لا يوجد إلا الطاعة.. والموضة طاغية وأدوات الزينة
طاغية.. والخلق والتزوي وهم جميعاً يتأمرون على أن يجعلوا المرأة

جسماً جيلاً.. وأن يكون كل النساء حريراً للسلطان.. أي يقدسون ذلك، ولو لم يكن هناك سلطان.. إذن بحثاً عن السلطان.. ويفكرون للرجل أيضاً. أنه لابد أن يقوم بدور السلطان ما دام قد اختار الحرير نصفاً لحياته في البيت وفي الشارع وعلى الشاشة.

وهكذا فجسمك لا يكذب لو تركته وحده، ولكننا لأسباب كثيرة علمناه كيف يكذب علينا.. وكيف نصدق أكاذيبه التي هي من صنعنا أيضاً!

شارح ومشروع وبينهما: تافه!

من كل الذي فعله اللورد ساندويتش لبلاده في الاكتشافات البحرية في القرن ١٨ لم يبق إلا اسمه على شكل من أشكال الطعام: الرغيف الذي به فول أو لحم. فقد كان اللورد غارقاً في القمار ولا يريد أن يترك مكانه ليتناول طعامه فطلب من خادمه أن يأتي بقطعة من اللحم بين قطعتين من الخبز.. السنديويتش هو الوجبة السريعة الخاطفة لمن ليس عنده وقت.. ولذلك فأنت تتناوله صباحاً ومساء في الشارع في المكتب في مدرجات الكلية.

وأصبح السنديويتش مثلاً أعلى لأشياء كثيرة: فالكافيريا والفيتامينات والبلوجينز و «برشم» الامتحانات والكتب المدرسية، لها معنى واحد: ضيق الوقت والبحث عن شيء سريع للأكل أو للنبي أو لتحصيل المعلومات!

وفي العام الماضي عندما التقى أكبر علماء أمريكا يبحثون عن سبب «الخيبة» الأمريكية والسطحية في العلوم والصناعة أصدروا تقريراً قدموه للرئيس الأمريكي. التقرير اسمه «أمة في خطأ». والأمة هي أمريكا التي هي أقوى وأغنى دولة في العالم. والخطأ هو أن أمريكا تخلفت في سباق

العلوم وفي صناعة السيارات والالكترونيات وأن العباقرة الأميركيكان أصبحوا نادرين . لماذا؟

لأن الثقافة الأمريكية هي ثقافة «السنديتش» و«الكافتيريا» .. فالطالب يخطف المعلومات . ولم يعد لديه صبر على القراءة الطويلة والبحث المتأني . ثم إن أحداً لا يشجعه على ذلك . ولا أحداً يشجعه لأن المدرسين قد أفسدت نفوسهم مادياً وأدبياً . إذن لا بد من إصلاح حال المدرسين ابتداءً من تعليمهم وترقيتهم وراحة عائلاتهم . ولأن الندوات الثقافية عند الطلبة قد انعدمت ، فهم إذا اجتمعوا ففي الكافتيريا . وفي هذا المكان يكون لكل شيء شكل «السنديتش» واللبان الشيكليس والبنطلون الجينز الذي ترتديه الطالبة والطالب ويحيى به إلى الكلية وينام به ويرقص ويذهب إلى الكنيسة - إن ذهب . وفي الكافتيريا يجلس الطلبة يأكلون ويشربون ويدخنون . ويتحول الحوار إلى خناقة ، والخناقة إلى ملاكمه ، والملاكمه إلى مذبحة . وفي الليل يتلقى هؤلاء الشباب في حانات الخمر والحسيش والجنس ، وينسون بعنف ، ما ارتكبوه بعنف . ومن عنف الذكريات والنسيان العنيف يتبقى للطالب طاقة خامدة لكي يذاكر ويتسلح لمستقبل أفضل ! كيف؟!

هذا التقرير الخطير قدمه أحد المفكرين المصريين إلى الرئيس حسني مبارك . الذي عكف على قراءته . ثم بعث به إلى د . مصطفى كمال حلمي الذي قرأه ودرسه وحلله ونشره بعد ذلك . ثم بعث به إلى كل الهيئات العلمية في مصر . وهذا التقرير في حقيقة كل أساتذة مصر .

والمعنى كيف نستفيد منه في إصلاح التعليم والتربية في مصر - إن كان ذلك ضروريا!

وظهرت في أمريكا تقارير أخرى أخطر. ولها جميماً هدف واحد: كيف يمكن إنقاذ أمريكا، حتى لا تنهار ف تكون دولة من الدرجة الثانية مثل بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان. ووجد هؤلاء العلماء أيضاً إلى جانب سياسة الخطف الثقافي، إن هناك تخللاً في الأسرة الأمريكية. فالآب والأم لا سلطان لها على الإبن الذي ينادي أبوه باسمه الصغير، والبنت التي تطلب أمها في التليفون وتقول لها إنها أنجبت بنتاً جميلة مثلها. ولا تخرب الأم أن تدهش لذلك ، فهي لم تكن تعلم أن ابنته قد تزوجت.. أو أنها أنجبت هذه الطفلة بلا زواج !

وهذا التقرير الذي كتبه علماء النفس والتربية والاجتماع والسياسة والدين إلى الرئيس ريجان أخطر من تقرير آخر بعث به العالم الكبير أينشتين وعدد من علماء الذرة إلى الرئيس ترومان . وتقرير ترومان يدعوه إلى عدم استخدام القنبلة الذرية . فاستخدامها يفتح الباب على نكسة إنسانية ، وعودة إلى الوحشية .. أي إنه خوف من أن يؤدي الاستخدام الشرير للعلم ، إلى وحشية وسفالة إنسانية تقوم بها أكبر دول العالم .. أما تقرير ريجان فهو يدعوه إلى التربية والأخلاق حتى تنض美 أمريكا علمياً وغضبي في سباقها وتتفوقها على الأرض وبين الكواكب . فال்�تقرير الأول هو خوف من العلم أن يؤدي إلى انعدام القيم الأخلاقية والإنسانية . والتقرير الثاني دعوة إلى الأخلاق ل تستطيع أمريكا أن تتفوق في التعليم والتربية والاختراع !

وأنت وأنا نعرف جيداً أين نحن من كل ذلك. إننا نشك من الجموع والجهل. أو من نقص الطعام وارتفاع أسعار الحياة، ونشك أيضاً من الجهل والاخراف الأخلاقية.. ونظرة إلى الثلاثين عاماً الماضية.. نجد أننا بعد النكسة أدركنا أنه الجهل وأنه الغرور الذي ألقى بنا في هوة المزية والعار القومي.. ولذلك طالبنا أنفسنا بالعلم ومواجهة عيوننا بصرامة، ومطالبة الحاكم بأن يكشف أوراقه. ثورة يوليول ولدت من هزيمة الحرب الشاملة ضد إسرائيل. والوحدة مع سوريا ولدت من النصر السياسي والشعبي على العدوان الثلاثي الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي.. ونكسة يونيو كانت بسبب الرغبة القوية في الانتقام من فشل الوحدة مع سوريا. وكان الهدف من حرب ٦٧ هو اكتساب إسرائيل وتركيع سوريا فتجيء صاغرة تطلب العفو والصفح والوحدة الاندماجية مع مصر وليبيا والسودان والعراق واليمن ودول أخرى لم يتمكن الرئيس عبد الناصر من ضمها إلى مصر.. وبعد انتصارات سنة ١٩٧٣ كان المطلب الشعبي «مزيداً» من الحرية والديمقراطية. خوفاً من أن يحاسبنا الرئيس السادات على هذا الانتصار العظيم، بشمن من حررتنا وتعدد آرائنا.. وحتى لا يتهم الحاكم المتصر أنه أعطانا الحرية ووهبنا الديمقراطية. وأنه لذلك العاطي الوهاب.. فكانت الأحزاب وحرية الصحافة والافتتاح الاقتصادي..

وفي عهد الرئيس حسني مبارك حيث تلتقي بثور النكسة وزهور النصر وثمرات الافتتاح الاقتصادي كان لابد من التمسك بالطهارة والنظافة والاعتدال - أي بالقيم الأخلاقية.. فليس غريباً أن تنهاض

بسرعة جماعات دينية تعلن أنها أقدر على ذلك.. وخاصة بعد أن اهتز الميزان في يد العدالة. وتطاير الوحل بين المتهمين والمدعى عليهم ، والقضاة. حتى تراعى لنا أن تمثّل العدالة الذي هو فتاة عصبت عينيها بمنديل مخلاوي حتى لا ترى ، وأمكّست ميزانها بيدها ، هذه الفتاة قد نقلت المنديل إلى خصرها وراحت ترقص على أي إيقاع .. إيقاع سيف المعز وذهبـه ، فإذا رفعت العدالة فلا غرابة أن تقوم أجهزة الأمن بجمع «النقطة» من رواد المحاكم

ومعذورون الشبان الذين يرون أن القوانين كثُرت وأصبحت بعد الاتهامات وأن القوانين أصبحت مثل السهام التي تحدث عنها الشاعر المتّبّي حين قال :

فكانـت إذا أصابـتـي سـهـامـ تـكـسـرـتـ النـصـالـ عـلـىـ النـصـالـ
وـلـاـ شـيـءـ يـدـلـ عـلـىـ اـضـطـرـابـ الـجـمـعـ وـأـجـهـزـةـ الـحـكـمـ مـثـلـ كـثـرةـ
الـقـوـانـينـ وـالـقـوـانـينـ الـمـضـادـةـ حـتـىـ أـصـبـحـ الـقـاضـيـ يـحـكـمـ بـعـلـمـهـ وـلـاـ يـعـلـمـ
بـحـكـمـهـ ١١

وإذا كانت القيم الأخلاقية هي ما نطالب به التلميذ الذي يغش والمدرس الذي يبيع الأسئلة والأستاذ الذي يفرض الدروس الخصوصية التي هي غش مستتر أو هي علاوات دورية - يعاقب بها أولياء أمور الطلبة بموافقة الدولة وسعادتها . فمن يكون المثل الأعلى؟

ثم إن أجهزة الإعلام كلها تدعو إلى الإيمان ويتولى هذه الدعوة التربية من أجل الطهارة الاجتماعية والأمانة العلمية ، رجال من علماء

الدين . علماء النصوص القرآنية وخبراء التخويف والتهويل من عذاب القبر ويوم القيمة وفي نفس أجهزة الإعلام هذه إعلانات راقصة وسهرات حمراء .. ومسلسلات تدعوا إلى احتقار التعليم والثقافة ، ووضع العرائيل والعقد أمام الطالب المستقيم الذي يريد أن يعيش فاضلاً، فالمسلسلات تخرب الفتاة المتعلمة بين أن تعيش في شقة على النيل مع تاجر إنفتاحي ، وبين أن تظل عالة على أمها وأبيها ومعها زوجها ميلها الذي تعلم واستقام ولكن ليس لديه مال . وتنتصر المسلسلات عادة للتاجر الغني .. وفي ذلك احتقار للأخلاق وامتهان للعلم .. وبذلك تضع أجهزة الإعلام مزيداً من الكراهية والسطح في حساب الشباب في بنوك الدين .

فهم شباب : هذه ميزة .. وهم مندفعون : هذه طبيعة . وهم لا جئون إلى المساجد : إلى الله .. ويتوارون وراء لحاظم : هذا زميوني موحد !

ويدهشنا كثيراً ، أنهم كثيرون وأنهم المتعلمون . وأنه من السهل أن يتغافلوا . وأنهم جماعات ليس لها زعيم ولا مرشد عام . ولكن هذه الجماعات مثل مجموعة من الفرق الموسيقية تحفظ لحنًا واحداً .. وتؤديه في أوقات وأماكن مختلفة . وليس أسهل من أن يقف واحد يشير بعصاه لنجد هذه الفرق قد تعالج حناجرها وسواعدها بنشيد الغضب النبيل والسطح الكريم . والضمير الحي . فما أخطر الطريق إلى كل ذلك ، وما أقباه على مصر كلها إذا كنا لا ندرى فداحة كل ذلك !!

ومن أخطائنا أننا ننظر إليهم على أنهم يتظاهرون ويعطّلون المرور.

إنها نظرة أمن عام. وهذه إحدى وجهات النظر، وليس الوجهة الوحيدة.. فليسووا مجموعة من النشالين يطالبون بتوسيع الأتباسات ليتمكنوا من الحركة داخلها. ولا هم يطالبون بنقابة مثل نقابات أصحاب المهن الأخرى التي تسرق أنفاس الشعب وتختفي في قانون حياة الشعب من لصوص الأمان القومي والأمن الغذائي.

ويضايقنا أن يتسلط هؤلاء الشبان على الاتحادات الجامعية وعلى النقابات ونكتفي بتسجيل هذه الملاحظة. ثم لا نذهب إلى أبعد من ذلك. فلا نقترب ولا نسمع منهم وعنهم. ولا أن نحاورهم. وإنما نتركهم وحدهم يتزايدون وتعاظم آلامهم وشعورهم بالغربة في بلادهم، والشذوذ عن أهلهم، وإهانة الجميع والاحتقار لهم - احتقار مستقبل مصر والعالم العربي.

و يوم أحرقت إيران دور السينما في عهد الشاه، كانت عناوين الصحف: عمل همجي لأية الله خوميني.. ولكن هذا العمل الصغير كان إشارة إلى القوة الكامنة في البلاد التي أحرقت عرش ملك الملوك وأسرته وحاشيته.

و يوم حطم الرئيس غيري زجاجات الويستكي وألقى بها في النيل، لا يهم أن بعض الناس انتهزوا الفرصة واحتزروا بعضها لبيعها من وراء ظهر الحكومة. أو بالاتفاق معها. كان ذلك رمزاً. ولكن الرئيس غيري لم يكن جاداً في ذلك فقد أجلس الدكتور الترابي إلى جواره والمليونير عدنان خاشقجي وراءه

وذهب النميري وبقي التطلع إلى نهر النيل ، مقبرة للخمور والفجور.. اليوم وغداً

والرئيس القذافي عندما أحرق الأدوات الموسيقية في طرابلس ، كان يشعل الاحتجاج على الشفافة الغربية.. . وعلى الرغم من أن الموسيقى التي تدخل البيت ليست هي وحدها التي يعرفها الليبيون.. . ففي كل بيت ليبي جميع إذاعات العالم وتليفزيونات تونس وایطاليا ومالطة ومصر. ولكن هذه الحرية الصغيرة رمز كبير.. .

ويوم أحرقت مصر ألف ليلة وليلة لم يكن ذلك إلا رمزاً.. . ويوم حكمت المحكمة ببراءة مئات من الشبان الذين قتلوا مائة من المدنيين ورجال الأمن ، كانت قد أطلقت مئات من المتطرفين ومعهم فليسوف التنظيم.. . وهم لا ينتنون للدولة التي بها قضاء عادل ، وإنما هم غاضبون على الدولة التي حبسهم بلا وجه حق ، وأعدمت زملاء لهم أيضاً.

ولم يحدث في التاريخ الحديث أن أدانت محكمة نظاماً من أوله لآخره ، إلا هذه المرة. وليس ذلك إلا رمزاً أيضاً.

ونختي مرة أخرى إذا ارتضينا لأنفسنا أن نقول إن هذا الذي يحدث في مصر هو فوضى أخلاقية واضطراب ديني فقط وإنما هناك متاعب اقتصادية وخلخلة اجتماعية وفراغ تربوي وتفاهة علمية. فالانفتاح التعليمي مثل الانفتاح التجاري قد أدخل الجامعات وأخرج منها ، مئات الآلاف من أنصاف وأرباع المثقفين والتتوسع في التعليم مثل التوسع الزراعي : أفقى.. . سطحي.. . و يحدث في الزراعة ما يحدث في

التعليم والتجارة أيضاً: سرقة أرض الدولة.. مخالفة قوانينها.. زحف المباني على الأرض الزراعية بعلم الدولة وحماية القانون.. وتجريف التربة وتبيير الأرض الزراعية.. وتصحير الأرض المزروعة.. وذلك بأن تركها دون أن نحصدتها لنقص الأيدي العاملة وارتفاع تكاليفها.. والنتيجة نقص في العمالة والانتاج وضعف المحصولات.

وبعد ذلك تستطيع أن تراهن نفسك وتكتسب الرهان في كل مرة إذا أنت فهمت تفسيراً واحداً لكل ذلك. فهناك ألف التعليقات الرسمية المدعمة بالأرقام وهناك طريقتان مؤكdtان للكذب: أن تكذب وأن تؤيد ذلك بالأرقام.

امسك ورقة وقلماً واكتب صادرات مصر المتزايدة وفائض إنتاجها في الزراعة والصناعة ثم اذهب إلى الأسواق لنرى نفسك إن كانت الأسعار قد ترhzحت إلى تحت مليماً واحداً فكيف إذن؟

في مصر صناعة واحدة متطرفة جداً ومن مئات السنين ولكي أكون أميناً أقول إنها صناعة عربية أيضاً. هي صناعة المسامير لمخترعها خوجة نصر الدين الشهير بجحا. فلا يملو بيت واحد من مسماه بجحا. ولا عقل ولا مدرسة ولا مصنع ولا إدارة ولا حزب.. وهذه المسامير التي هي الأعذار الجاهزة موجودة في كل مكان. وعلى طريقتنا في مصر يجب أن يكون كل شيء نابعاً من ذاتنا: اشتراكينا نابعة من ذاتنا واقتصادنا نابع من أحلامنا وصناعتنا نابعة من احتياجتنا، فكذلك هذه المسامير. إننا لم نعد في حاجة إلى مصانع بجحا. وهذه المسامير تنفر كالأظافر

في أيدينا . وكالشعر على أجسادنا .. ولذلك ظهرت طبقة «الزمبوجية» - وهي كلمة تركية معناها الذي يدق المسامير والخوازيق والأسافين أيضاً .

فإذا كان هذا الذي نقرأ عنه ونسمعه جاداً . فاللهم وفقنا جميعاً إلى إصلاح التعليم والتربية في بلادنا ، التي هي أقل تقدماً وتطوراً من الولايات المتحدة ، وهي أشد حاجة إلى مئات الآلاف من هذا التغيير . فإذا كنا مخلصين في هذه الرحلة إلى الشاطئ الآخر فما أحوجنا إلى شراع ، وإن كنا جادين في التوجه إلى الله ، فما أحوجنا إلى القبلة ، ويفيد إلا ننسى أننا البلد الذي أطلق صاروخين : القاهر والظافر ولم يكن واحد منها عقل الكتروني يوجهه فقد أتينا بالعلماء الألمان ليصنعوا هذه الأجيال من الصواريix ، ونسينا أو قررنا أن تكون بلاوعي . أي نطلقها هاجة غاضبة إلى الفضاء الخارجي ، ولا يهم أن تسقط !

فلسنا في حاجة إلى صواريix بلا عقل ، إلى حاس بلا هدف ، إلى غصب بلا قضية ، إلى قضية بلا حل ، إلى حل ليس ممكناً !

وقد ينظر أحد إلى حالنا في مصر ويقطشفته ويهز كتفيه : لا أمل .. إعتقداً على حوادث العنف : قاتل والديه وقاتل أولاده وزوجته وجدهه . مع إنها حوادث عادية مألوفة في المجتمعات الكبيرة مثل حوادث الزحام وتصادم السيارات . فمن نتائج الزحام أن يدوس الناس ببعضهم البعض ، ولا يجدون مبرراً للاعتذار من ذلك .. إنه الزحام في الأتوبيس وعلى المحطات وأمام المجمعات وفي المكاتب وفي العيادات والمساجد والكنائس وبلجان الامتحان والقنصليات من أجل السفر إلى الخارج . فالعنف الفردي طبيعي . ولكن المشكلة هي العنف الجماعي .

هذه هي القضية العلمية التربوية الأخلاقية الاقتصادية السياسية
الإعلامية.

حتى الذي قتل والديه وقف أمام القاضي يطلب الرحمة، لأنه أصبح
بيتاً! هو الآخر لديه مسار جحا اسمه «الوجودية» - أي إن دراسته
للفلسفة الوجودية هي التي أغرتة بقتل والديه. مع أن الوجودية لا تدعو
إلى ذلك. وإن كان لابد من جريمة قتل فليقتل الإنسان نفسه بيديه -
فهذا القرار هو قمة المثالية البائسة. أن يبدأ الإنسان بنفسه فيكون العامل
القاتل!

أمريكا قررت أن تبدأ بالكتاب، أي بالمؤلف والمدرسة والمدرس
والأب والأم والطالب. وألا يكون الكتاب «سندويتشاً»: شاطر ومشطور
وبينهما طازج. أي شارح ومشروع وبينهما : تافه!
إلا إذا كان لأحد رأي آخر!

المحتويات

١ - الذى هو مليمتر فوق بشرتك	٥
٢ - مط الشفتين وشد الأذنين وتصغير القدمين	١٧
٣ - زمن الألف قناع لكل وجه	٢٧
٤ - الدم والعرق والدموع وسوائل أخرى	٤٠
٥ - التاريخ .. شعر طويل وقصير .. لماذا؟ ..	٥١
٦ - انتهى زمن الأمومة .. بدأ عصر الأنوثة ..	٦٢
٧ - التجويع من أجل الصحة والجمال والنصر ..	٧٤
٨ - دعوت الله أن يأخذها قريباً ..	٨٥
٩ - السعادة الوهمية : حشيش وأعشاب أخرى ..	٩٥
١٠ - يجب أن تقاومه وتقومه وأنت فيه ..	١٠٦
١١ - من أجل المساواة كانت «البهلة» : موضة ..	١١٧
١٢ - جميلات محمد على وفضائح أخرى ..	١٢٨
١٣ - «أم على» وملابس اللاعبين والمجوهرات .. لماذا؟ ..	١٣٩
١٤ - لأسباب أنيقة بين الطبقات تذوب الفوارق ..	١٦١
١٥ - الحجاب لأسباب دينية .. والحجاب الأنيق .. لأسباب نفسية ..	
	١٦٠

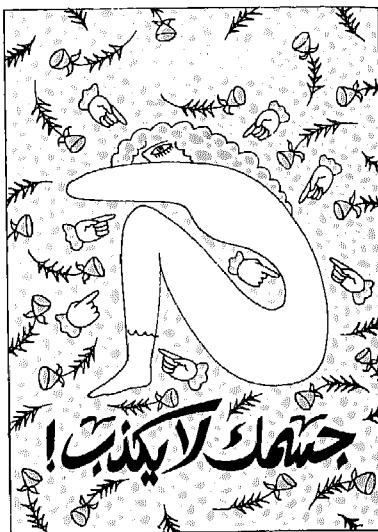
١٦ - القانون يحرم إحراق الموضة التي صممها	
الرئيس الأمريكي نكسون ١٧٠	
١٧ - الوجودية : احتجاجاً على دكتاتورية الموضة ١٨١	
١٨ - «الأسطى المدبر» الموسيقى المحفوظة ! ١٩٢	
١٩ - بيوت الأزياء ودور السينما صناعتها	
الحرير والسلطان ! ٢٠٤	
٢٠ - شارح ومشروع وينها : تافه ٢١٥	

رقم الإيداع : ٨٩/٣٨٩٩
النقط المدرني : × - ٣١٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨: شارع سيريه المصري - ت: ٤٠٢٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الغلاف للفنان حلمي التونسي



نَحْنُ نَشَابِهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ : أَفْكَارُنَا
وَعَادَاتُنَا وَلُغْتَنَا .. وَطَعَامُنَا وَشَرَابُنَا ..
وَمَلَابِسُنَا الْجَاهِزَةُ وَمَلَابِسُنَا التَّفْصِيلُ .
وَلَكُنَا نَخْلَفُ فِي أَجْسَامُنَا .. فَأَجْسَامُنَا
هِيَ الشَّيْءُ الشَّخْصِيُّ الْوَحِيدُ .. فَكُلُّ وَاحِدٍ
لَهُ جَسْمٌ مُخْتَلِفٌ عَنِ الْآخَرِ .. وَلِلْجَسْدِ مَعَالِمٌ
مُتَّبِعَةٌ . وَجْسِيُّهُ هُوَ وَسِيقَيُّ الْوَحِيدَةِ إِلَى
مَعْرِفَةِ الْعَالَمِ وَالْتَّأْثِيرِ فِيهِ .. هُوَ الْمَرْضُ .. هُوَ
الْعَمَلُ .. هُوَ الْأَرْسِيفُ وَهُوَ الْمَلْعُوبُ وَهُوَ
الْمَقْبَرَةُ أَيْضًا ..

اشترش جنبيه
٧٠٠

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد جسبي - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ناكس: ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦١٣ - ٨١٧٧٦١٥